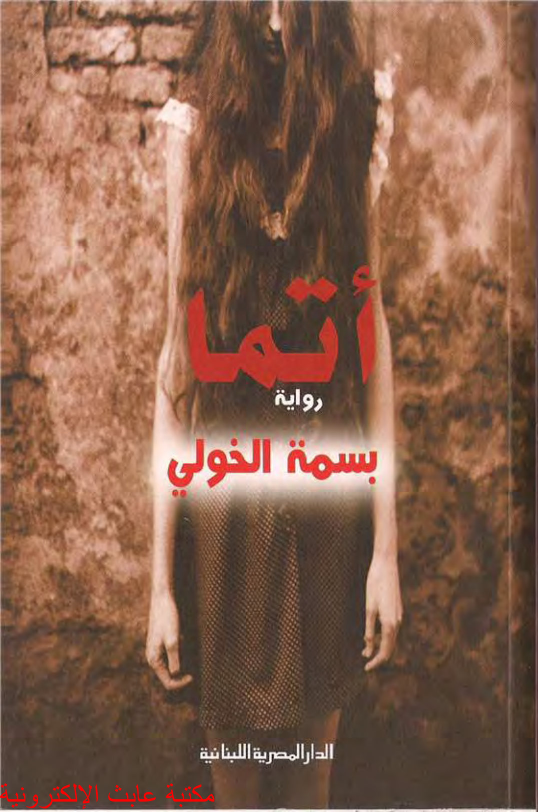


بسمة الخولي
أتما
رواية
الدار المصرية اللبنانية

قلت وأنا أوضح بيدي ما أشرحه: في الهندوسية القديمة «النفس الداخلية»، أو «الروح»، تُدعى «أتْـمَا»، الكيان الحقيقي والأصلي للإنسان بعيدًا عن أي تأثيرات خارجية أو أقنعة مجتمعية، والطريقة الوحيدة للوصول إلى الخلاص هي إيجاد هذه الـ «أتْـمَا».. وهذه هي حالة «يُمنى»، هي ليست مريضة، ولكنها كرهت ما رأته من البشر وما فعلوه بها؛ لذا حاولت الوصول إلى داخل نفسها لتتخلَّص من الألم، باختصار هي حاولت البحث عن روحها..

***

هذه الرواية ترصد حالة إنسانية خاصة، تنبع من مجاهل النفس البشرية؛ لتنعكس على الحياة الواقعية في شكل رغبة كامنة في إيلام الآخرين، من خلال شخصية «يُمنى» المريضة التي تسلم نفسها لمصحة الأمراض النفسية، و«أحمد» الطبيب الشاب الذي يضعه قدره في طريقها ليشاركها المرض، ويسعى إلى التوحد معها.. لكنه في النهاية لا يملك سوى الاستجابة لها، وتخليصها من آلامها، ثم الهروب إلى مكان مهجور داخل المصحة نفسها لانتظار لحظة الخلاص.

***

بسمة الخولي، كاتبة إذاعية بفقرة الرعب في برنامج «ع القهوه» تقديم أحمد يونس بإذاعة «نجوم إف إم»، درست الصيدلة والتكنولوجيا الحيوية، وصاحبة العمل الروائي: «لأنكم أحياء، لأننا موتى» الصادر 2013.

الدار المصرية اللبنانية
9 789774 279225
للشراء عبر موقعنا
store.almasriah.com

أتما

رواية

بسمة الخولي

الدار المصرية اللبنانية

الخولي، بسمة.
أتما: رواية / بسمة الخولي .- ط1.- القاهرة:
الـدار المصريـة اللبنانيـة، 2014.
280 ص؛ 20 سم.
تدمك: 5 - 922 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
ب- العنوان. 813
رقم الإيداع: 17478 /2014

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: محرم 1436هـ - نوفمبر 2014م

إهـــــداء

إلى من اقـــترنتُ به؛ فصار شيطان نفســي،

ومَن اقترن بي؛ فصرت قابـضة روحـه...

« أيها الشيطان الساقط من علٍ، يا حامل لذة الخطيئة..

أكان ضوءًا هو ما نشره ظلامُ جناحيك؟ أم سوادَ الأسفلين؟

أيها الملاك الهائم، يا سيد النور..

أمحوت ظلَّ العاصي إلى جهنم، أم كفَّاك طمَستا خطاياه عن أعين الغافلين؟

أيها السائر على أرض الفناء، يا ذائق الخير والشر، أعِطرُ البراءة نورُك، أم شذا الجحيم؟! »

ب.خ

صرخـت لكنها لَم تبكِ، لطمت وجهها وسـقطت أرضًا جواره فاقدة الوعـي، حين اسـتيقظت صرخت من جديد، حملتـه وحدَّثته دون انتظار رد.. لكنها لم تبكِ.

صنعـت له قبرًا صغيرًا بجوار إحدى أشـجار النخيل، حفرت اسـمه على الجذع البني الجـاف، وأهالت عليه التراب، تذكرت، فصرخت من جديد، ثم مضت.. بعد يومين هرب الحمل الثاني.

لم تكن لديها فكرة إلى أين يمكنه الذهاب وسـط هذا الفراغ، اعتلت التلة مؤرجحة عينيها بين شـمالٍ وجنوب، تبحثُ عن رفيقها الغائب، أين تُـراه ذهب؟ أيـن اختفى؟ أأكلـه ذئب عابر؟ أوقـع في شـركٍ مُتحرِّكٍ من الرمـال؟ بحثت وتسـاءلت؛ لكن لا جـواب، اعترتها الوحدة والحسـرة، لكنها هذه المرة أيضًا.. لَم تبكِ.

ذهـب اثنـان، ولم يعد لديها سـوى رفيـقٍ واحدٍ، لم تعـد المرأة تملأ جرتهـا أو تجمع التمرات، توقفت عن ارتياد مجلسـها فوق التل والحُلم بما خلف الأفق، جلسـت جوار الحمل الذي بقي تحدثه بشـغف مُتناسية حمليها الضائعين، ثـم تصمت بغتةً حين يُصور لها احتمال فقدان رفيقها الأخيـر.. تُراقبه برعب ثم تعود إلى حديثها مُتناسـية من جديد؛ لكن أتى وقتٌ لم يعد بوسعها تحمل مزيد من الخسارة، لم تعد لديها القدرة على ابتلاع المزيد من الألم؛ لذا اتخذت قرارها..

في الصباح الباكر رقد الحمل الأخير بقبرٍ صغيرٍ جوار المنزل الخشبيّ علـى مشـارف الواحة، فـي منتصف اليـوم كانت قد نصبت أنشـوطة من

الليف فوق التل، أمامها وقفت مراقبة الأفق الأصفر، الرمال السابحة إلى مـا لا نهاية، هناك خلف الأفق عالم آخر، أشـخاص آخرون، حياة أخرى كُتب عليها ألا تراها.

حيـن أتـى الليل، لم تعد هُناك أصـوات بالواحة، لا حملان ترعى. لا طعام يُطهى. لا شـيء سوى قبرين، وأنشوطة، وجسد متأرجح لامرأة لم تجف بعد الدماء بيديها، أو الدموع بعينيها.

ومن هُنا.. بدأت القصة...

الفصل الأول

حرّكتُ ساقي قليلًا، عقدتها أسفل الكرسيّ الحديديّ، وضعت ساقًا فوق أخرى، لكن لا فائدة، لم يزُل الخدر منها، فكّرت بالنهوض والتمشية قليلًا على سبيل قتل الوقت؛ لكن ما إن باشرت باتخاذ هذه الخطوة، حتى سمعت سعال الحارس جواري، التفتُّ نحوه لأرى النظرة الشرسة على وجهه المتغضن.

«ممنوع»

هـذا مـا قالته تعبيـرات وجهه بوضوح، لـم أكن أعلم لِـمَ يُحدِّق بي، وكأنني أحد المتهمين القادمين للاستجواب، وكان بوسعي الجدال، أو التبجـح بملء شـدقي عن صلتـي بالعقيد حمدي، وحقي في التمشـية لا الانتظـار كالمحكوم عليـه بالإعدام هكذا؛ لكنني لم أكـن في مزاجٍ رائقٍ بمـا يكفـي للدخول في نقاشـات؛ لذا ابتلعت ما أرغـب بقوله، وعاودت الجلوس بصمت..

لم يمضِ على انتظاري هنا سوى ساعة؛ لكنني كنت قد وصلت بالفعل لمرحلة لعن اليوم الذي قررت فيه العمل على هذا المشروع، مرورًا بلعن

الضوضاء، ورائحة السجائر، والقيء والعرق، والشرطة وكافة مقرات الأمن، ثم لعن نفسي ولعن «حمدي»؛ لأنه السبب في جلوسي هكذا «بلا شغل ولا مشغلة» - كما يُقال - وانتهاءً بلعن البيروقراطية المصرية العقيم، التي اضطرتني إلى اللجوء لمثل هذا الموقف اختصارًا لعدد لا يُحصى من الأيام أمضيها بين عدد من التصاريح الناقصة للأوراق المطلوبة، ومدام« أشجان» في شباك سبعة، التي تنتظر التخلص مني؛ لتفتك بقرص الطعمية جوارها، ثم السيد «عاطف» و«موده» الذي لا يسمح بإنهاء الأوراق بسبب شجار مع زوجته في المنزل، أو زميل المكتب الذي استعمل «شبشبه» دون علمه..

«إذا أردت إنجاز ما ترغب بإنجازه في أقل وقت ممكن، فعليك بالواسطة.. الواسطة صالحة لأي شيء، ابتداءً من شراء حذاء محترم في محل تجاري تعرف صاحبه، وانتهاءً بإنقاذ حياتك، الواسطة ثم الواسطة».. نصيحة قالها لي صديق غادر البلاد مع أول طائرة متجهة إلى كندا بعد التخرج.

في البداية ظننت أن كلماته محض كلمات انهزامية، لكن حين قررت التقدم إلى تلك المنحة التي طالما رغبت فيها، وجدتني مضطرًا للخوض في دائرة «الواسطة» لإنجاز ما ارغب بإنجازه قبل أن أصاب بالفالج!

و مَنْ يقدر على مساعدتي سوى صديق العمر «حمدي»؟ لجأت إليه، وها أنا جالس هنا ألتهم باطن فمي في انتظار السماح لي بمقابلته.

«بلد عقيم»..

قلتها بحنق وأنا أحدق في الأرض، ويبدو أن صوتي قد ارتفع عن الهمس دون أن ألحظ ذلك، فسمعت صوتًا خشنًا ذا بحّة مُميزة يقول:

- عقيم فقط؟

التفتُّ متفاجئًا ليطالعني وجه «حمدي» الحليق بابتسامته الدافئة، ابتسمت بدوري، وأنا أزفر براحة، ونهضت مادًّا يدي بالسلام، لكنه احتضنني كمَن يستقبل أخاه بعد سفرٍ طال:

- أوحشتني يا «أبو حميد».

احتضنته بدوري وأنا أضحك، ثم ابتعدت ناظرًا إليه بعتاب:

- أتعلم كم من الوقت أمضيت منتظرًا في هذا المكان؟!

ملأت ضحكته الجهورية الممر حتى ظننت أن الطلاء قد بدأ يتساقط من فوق الجدران:

- أعلم.. لا تقلق! حضرتك لك تعويض مناسب!

أشار لي باتباعه نحو مكتبه؛ فحملت حقيبة الأوراق من على الكرسيّ المجاور، ومضيت في إثره دون أن أنسى إلقاء نظرة تشفٍّ على الحارس الواقف، وقد بدأت بالتفكير في أن الفرج آتٍ.. أخيرًا.

* * *

«أنت أحمق يا أحمد»!

قالها «حمدي»، وهو يُقلِّب بين أوراق متناثرة فوق مكتبه الكئيب؛ فابتسمت ببلاهة وأنا أحك مؤخرة رأسي، كنت أعلم أن بقية الأسطوانة قادمة، وبالفعل أكمل دون أن ينتظر ردي:

- دونًا عن كافة أقسام الطب.. ينتهي بك المطاف كطبيب لـ...

قطع جملته دون أن ينظر إليَّ، إنما حرك يده جوار رأسه دليلًا على الجنون، فعاودت الابتسام ببلاهة مصطنعة، وأنا أُعلق دون اهتمام:

- لا تقلق.. سمعت الرأي ذاته من زملائي، وأصدقائي، ومن مريم، ووالدتي..

بدا عليه اهتمام مفاجئ أدركت سببه حين رفع ذقنه المدبب من بين الأوراق ليحدق بي:

- بالمناسبة كيف حال مريم؟

رسمت على وجهي تعبيرات أشبه بـ «جيد لكن هذا ليس من شأنك»، لكنه أكمل بسماجة:

- ما زالت الأمور بينكما على ما يرام؟ صدقني أنا أعلم كم يمكن للنساء أن يصبحن غريبات الأطوار بعد أن يضمنَّ الخاتم في إصبعهن اليمنى، يتحوَّلن إلى شيء أشبه بـ...

- مولد الكهرباء.

قلتها مقاطعًا استرساله في الحديث، وأنا أتظاهر بالعلم ببواطن الأمور؛ علَّه يتوقف عن الحديث، لكنه تابع:

- مولد الكهرباء! كيف؟

بقي صامتًا للحظة كي يتمكن من تقليب التشبيه بصلعته اللامعة، وقد تحولت تعبيرات وجهه إلى ما يشبه مَنْ يعاني من إمساك مزمن.

زفرت قبل أن أبدأ بالتفسير:

- لا ضوء من دون ضوضاء.

ظل حمدي واجمًا فترة، ثم انفكَّت أساريره فجائيًّا وبدأ يضحك.

بالطبع لم يكن التشبيه يحملُ أي داعٍ لهذا الكم من الضحك، لكن هكذا «حمدي»، معه عليك تحمُّل نصف ساعة من الضحك، ثم نصف ساعة أخرى من تكرار الحديث مع الكثير من الدموع، وشظايا اللعاب التي لا تجد مرسًى لها إلا على وجهك..

لذا - وأنا غير راغب في إضاعة بقية النهار - ابتسمت بسخافة، وأنا أُقاطع فقرته الاستعراضية:

- حمدي!؟

نظر إليَّ من بين دموعه؛ فأكملت بالسخافةِ ذاتها:

- ماذا فعلت بشأن التصريح اللعين؟

بدا أنه استدرك الأمر؛ لأن وجهه استعاد لونه الطبيعيَّ تدريجيًّا، وعاد يتنفس، وهو يبحث بين الأوراق ليقول بصوتٍ أكثر هدوءًا:

- آه.. نعم.. نعم.. لنعد للعمل.

أخرج «حمدي» ملفًّا ذا غلاف بلاستيكيٍّ داكن من بين الفوضى على المكتب، وقد بدا عليه التركيز:

- حصلت لك على الأوراق المطلوبة، والتصريح بالمُقابلة مع المريض من المصحة النفسية لمدة ساعة ثلاثة أيام في الأُسبوع، لديك كافة الصلاحيات لكتابة ما ترغب بتقريرك، مع إمكانية ذكر الأسماء إن وجدت هذا ضروريًّا.. جعلت رجالي يحصلون على الختم الرسميّ أيضًا، الأمور سارت بوتيرة أسرع مما توقعت في الواقع.

صمت «حمدي»، وهو يعبث بالأوراق، ويحك صلعته، فزفرت بارتياح، وبدأت أسترخي أكثر بمقعدي، شعرت بارتفاع لا بأس به في معنوياتي حتى إنني كنت مستعدًّا لتحمل العبارات القادمة التي يمتدح بها «حمدي» قدراته وسلطاته الجبارة، التي تمكّنه من إسداء خدمات لنا - نحن الرعاع - كُلما لجأ أحد من «الشلة القديمة» إليه طالبًا معروفًا ما..

لكن الرجل لم يقم باستعراضه المعتاد هذه المرة؛ فبدأت بممازحته:

- لا أظنني قادرًا على شكرك بما فيه الكفاية يا صديقي، أنا محظوظ لأن الله رزقني بمعرفه رجل عظيم مثلك.

انتظرت رده؛ لكنه لم يضحك، ولم يُعلق، فقط ظل مُمسكًا بالأوراق بصمت، وتعبيرات الجدية تعلو وجهه، ثم باغتني بقوله:

- أحمد.. هُناك مُشكلة صغيرة فقط..

* * *

«يُمنى رءوف».

قرأت الاسم للمرةِ الخامسة، وأنا أُقاوم شعورًا مباغتًا بالغثيان.

«يُمنى رءوف».

علا صوت سائق سيارة الأجرة أمامي بشيءٍ ما ظننته في البداية موجهًا إليَّ، لكنه كان - على ما يبدو - موجهًا لسائق آخر حاول قطع الإشارة قبله؛ لذا تركت سيل البذاءة المتصاعد أمامي، وعاودت التركيز في الأوراق فوق قدمي.

«يُمنى رءوف».

قرأت الاسم من جديد، وأنا أحاول الشعور بشيءٍ آخر سوى الحنق؛ لكنني عجزت عن طرد الشعور الذي تملكني منذ مغادرة مكتب «حمدي» قبل ساعة مضت.

كان عليَّ إتمام تقرير تفصيلي عن حالة أحد المرضى النفسيين، اخترته بعد تمحيص بملفات استغرق جمعها شهرًا كاملًا، درست كل ما يمكنني دراسته عن الرجل، نظرت إلى صورته عشرات المرات حتى صرت أحفظ وجهه أكثر من وجهي شخصيًّا.

حاولت تخطي دوامة التصريحات المعتادة، ولجأت إلى «حمدي» كعقيد بالشرطة، من شأنه أن يعطيني الإذن المناسب لإجراء مُقابلات مع الرجل كيفما أشاء رغمًا عن أنف المسؤولين، فعلت كل ما بوسعي كي

أشـعر أنني كفء بما يكفي لإتمام التقرير، واتخذت الأمر بالكامل كتحدٍّ من شأنه أن يرفعني إلى السماء، أو يسقطني بالوحل.

فقـط كـي أُفاجأ بأن كل ما خططـت له تم بنجاح، إلا مشـكلة صغيرة فقط، بطريقةٍ ما تم تكليفي بمريض آخر..

كيـف؟ ولماذا؟ ليسـت لـديَّ أدنى فكـرة؛ لكنني شـعرت أنها رد من إدارة المصحة على تجاوزاتي لسـلطاتهم، شـيء من قبيل «اشرب بقى يا حلو».

كان بوسـعي الاعتـراض، التذمـر، المُطالبـة بتصحيـح الوضع حين أبلغني «حمدي» بما حدث؛ لكن جهود الأخير السابقة أشعرتني بالحرج من المطالبة بالمزيد؛ لذا تظاهرت بأن الأمور على ما يرام و«مش هتفرق سـينا من سونيا»، وشكرته مُغادرًا المكتب، وإن عجزت عن الشعور بأي شيء سوى السخط.

قلَّبت أوراق الملف من جديد، باحثًا عن صورة لهذه الـ«يُمنى»، لكن لا شـيء. كان الملف فارغًا إلا من بعض المعلومات الأساسـية: الاسم، الجنس، فصيلة الدم، تاريخ الحجز، السن.. لكن لا صور!

رائع!

تمتمـت بهـا وأنـا أغلق الملف بقـوة، ألقيته فـي الحقيبة التـي ألقيتها بدورهـا إلى جواري، وأشـحت بوجهي خارج الزجـاج. بقيت على هذا الحال حوالي ساعة ونصف الساعة، حتى أعلن السائق بصوتٍ حاد:

وصلنا..

نقدت الرجل أجرته، وترجَّلت من السيارة أمام أبواب المبنى القديم، الـذي تحول إلى مصحة، انتظـرت لحظات، ثم اغتصبت شـهيقًا عميقًا، ودلفـت إلـى الداخل، غير عالـم - للمرةِ الأولى منذ زمن - إلامَ سـتؤول أموري.

* * *

الفصل الثاني

لم تكن لـ«يمنى» علاقة من قريب أو من بعيد بالتخيلات التي رسمتها لها داخل عقلي في طريقي إلى هُنا، حين جلبها مُمرضان إلى داخل الحجرة الصغيرة مُكبّلة توجّست، وحين أجلسوها، وتفقدوا الأساور الحديدية التي تربطها بالمقعد أمامي رغمًا عني؛ اعتراني الخوف.. لكن بعد مرور دقائق على ذهاب المُمرضَين، وامتلاكي الوقت الكافي لإعادة النظر إليها، ذهبت مخاوفي أدراج الرياح.

كانت صغيرة السن، تجاوزت العقد الثاني من العمر ربما بعامين أو ثلاثة، جلست هادئة، تنظر تارة إلى القيود بيدها، وتارة إلى النافذة المُشمسة خلفي، تفادت النظر إليّ، وبدا من الواضح أنها تنتظر مُبادرتي بالحديث، توتُّر حركاتها الطفيفة كان واضحًا، لكنه بالتأكيد لم يكن يستدعي تلك القيود بمعصمها..

سأكون مُبتذلًا إن قلت إنها جميلة، ثم بدأت بوصف وجهها وأنفها وخلافه، لكنها كانت بالفعل جميلة.. جميلة بطريقه مثيرة للفزع.

حين أطلت التحديق إليها بادلتني النظر، العينان الرماديتان اللتان طالعتني بهما من بين سلاسل السواد المُتناثرة حول وجهها الشاحب،

باغتت الكتلة العضلية أسفل ضلوعي لوهلة، لكن قسمات وجهها تحولت من الدهشة إلى الابتسام، فابتسمت بدوري، ثم دفنت وجهي بين الأوراق التي وضعتها فوق الطاولة، تاركًا الفرصة للأحمق خلف ضلوعي كي يجمع شتات نفسه.

حسنًا! تحياتي للشيطان الذي وسوس للحمقى بتقييدها إلى المقعد؛ فهو يملك إرادة من حديد، وطِنًّا من العمى للأسف لا أمتلكهم أنا.

بدأت أشعر بغرابة الموقف؛ لذا ألجمت انبهاري الطفولي بالفتاة، وبدأت التفكير بجدية أكبر، أخرجت المُسجِّل الصغير من الحقيبة، ووضعته بعد تشغيله فوق الطاولة، رتبت الملفات بحيث تظهر ترتيبًا مناسبًا للحديث، وبادرت بقولي:

- اسمك يُمنى.. صحيح؟ تقول الأوراق إنكِ نزيلة هُنا منذ.. قرابة عام ونصف، لا تحمل الأوراق وصفًا واحدًا مُفيدًا بشأنك؛ لذا لنترك هذا الهراء الرسميّ.

أنهيت كلامي متوجًا إياه بابتسامة مزاح، وأنا أقلب الأوراق رأسًا على عقب، وأعقد يدي ناظرًا إليها.

إستراتيجية تخفيف الأجواء بمزحة في ظاهرها رسمية كانت خياري المُفضل من بين طرق بدء الحوار مع المريض، قرأت عنها أثناء دراستي، وأثنى عليها عدد لا بأس به ممَّن تعاملت معهم، قيل إنها الأصلح؛ لأنها تُبديك كشخص يهتم فعلًا، لا كشرطي استجواب؛ لذا توقعت أن تبدأ «يُمنى» بالابتسام أو الضحك، مما يتيح لي الانتقال لبقية الحديث.

لكن تعبيرات الفتاة الهادئة لم تتغير، لم تُعطِ رد فعل إيجابي أو دفاعي، بل بقيت ترمقني بصمتٍ وثبات أصابني بالارتباك.

ماذا؟ هل فشلت؟ هل أسأت استخدام المقدمة فأتت مبتذلة بطريقه أو بأخرى؟ شعرت بالحرج وأنا أعيد تقليب الأوراق، أدى الحرج لإصابتي بالتوتر لثوانٍ، كانت كافية ليتبدد إعجابي السابق بالفتاة، تحوَّلت من جديد إلى «يُمنى رءوف»، مقصلة مستقبلي المهني، رافضًا الفشل بدأت بالحديث من جديد:

- أُدعى أحمد.. أحمد هاشم نصار، على الأرجح أخبرك الطبيب المسؤول عنك هُنا بقدومي؛ إذن لا داعي للتعريف بنفسي من جديد وإثارة مللك.

قاطعت نفسي مبتسمًا، وأنا أعاود النظر إليها، طالعتني ذات التعبيرات، فأكملت بحنق حاولت إخفاءه أسفل ستار المزاح:

- لا فكرة لديكِ كم عانيت للحصول على هذه المقابلة، صدقًا لدينا كمًّا أسطوريًّا من الترهات الروتينية بالبلد، يكفي لانتحار الراغب قبل الوصول إلى رغباته.

لا تغيير بوجهها اللعين، تابعت وقد بدأ الأمر بالتحول إلى تحدٍّ:

- أعتقد أن مَنْ بالمصحة يكرهونني الآن من أكبرهم لأصغرهم، لم أقدم على تجاوز سلطة سوى سلطة الوقت.. لكن كما تعلمين، الكراهية تنتشر، لا أهتم كثيرًا لأنني حصلت على مُبتغاي في النهاية.. لكن لو رأيتِ النظرات التي رمقوني بها حين خطوت عبر بوابه الاستقبال..

انتابني شعور غير مريح بأن الحديث بدأ يتخذ مجرًى شخصيًّا، وأنني هبطت من موقعي خلف المدفع لأجلس بالجهة الأخرى، النظرة المترقبة بعينيها كذلك دفعت عقلي إلى الغليان؛ لذا صحت قبل أن أتمكن من منع نفسي:

- هل تسمعينني أصلًا؟ أم أحدث نفسي هُنا؟!

أطبقت فمي فور أن انتهت الجُملة، وحدَّقت نحو اللا شيء بفزع، كارت أحمر.. ما فعلته الآن كان كارتًا أحمر لمهنتي، ولإمكانياتي كطبيب نفسي، تدربت، راجعت ما وقع أسفل يدي من مراجع، درست كل ما أمكنني دراسته، لكن الصراخ بوجه المريض يُساوي الفشل متجسدًا؛ لذا عجزت عن تصديق ما بدر مني، وتسمَّرت بعقلٍ خاوٍ هنيهة.

- ما زال أمامك طريق طويل دكتور.

باغتني الصوت المخملي، فرفعت عينيّ نحوها تلقائيًّا، كانت تبتسم برزانة، وهي تتفحص تعبيرات وجهي المتغضن، لم تبدُ مستاءةً لكن للمرة الثانية أشعر أنني تحت المجهر أمام نظرتها الثابتة تلك.

- لنعقد اتفاقًا.

انساب صوتها بهدوء من جديد، وبهذه الجُملة استلمت دفة حديث طال..

* * *

1 يوليو 2013
من تفريغ لتسجيل الجلسة الأولى

«عندما تبدأ في امتلاك الوعي الكافي لمراقبة مُضي حياتك باختلاف وتيرتها، ستُدرك أن كيانك بالكامل يتمحور حول نبضات، قمم وقيعان تمامًا كتلك التي يخطها جهاز رسم القلب.

نوبات من فترة استقرار يبدو بها أن جم مشاكل الحياة السابقة في طريقها للحل، سعادة وأفراح ستغزو عالمك الصغير، وستبدو الحياة وردية إلى حد أنك تستطيع شم رائحة الاسترخاء العطرة بالأجواء، تبتسم ثم تضحك ملء شدقيك، تحتضن أي فكرة جديدة شاعرًا بأن الفشل ليس له وجود بقاموسك، ثم تلجأ لفراشك ليلًا مُرغمًا على انتزاع بعض ساعات بعيدًا عن وتيرة الحياة المزهرة؛ كي يتمكن جسدك من الراحة استعدادًا لمواجهه شمس النهار الجديد، تنتهي هذه النوبة غالبًا بنوبة أخرى تتجسد بمأساة إغريقية.

ينحسر المد، وتبدأ تعقيدات ومشاكل بالانبلاج من اللا مكان، حتى تحسب أن الكون بمن فيه قد تآمر ضدك، كل مَنْ حولك يكرهونك بلا سبب محدد، أنت تكره نفسك بلا سبب مُحدد أيضًا، الكُل يتحدث في

الوقت ذاته، الكل يشتكي، حتى تنتابك رغبة عارمة في لَكْمِ مَنْ يجرؤ على النظر إلى وجهك.

ستفشل. ستحاول الخروج من الفشل والسعي للنجاح. سترسم بوابات وآمالًا عريضة، ثم تبدأ بالركض نحوها، لكنك ستفشل هذه المرة أيضًا مع حصولك على جائزة إضافية تُدعى اليأس.

لا فائدة، تبدأ بالشجار لأنك ترى أنه لا فائدة من السيطرة على ذاتك، تبدأ بنبذ طموحك لأنك اقتنعت أخيرًا أنك ستعجز عن التنفس إن واصل ركام مستقبلك الوهمي طمرك أسفله.

لن تجد طريقة للخلاص من السواد الذي يُحيط بك، إلا بالهرب خارج الدائرة.

الهرب إلى أين؟ هذا يعتمد على أي طريق يفضله عقلك.

80٪ يختارون طريق الأقنعة، التظاهر بالسعادة، التظاهر بالأمل، التظاهر بأي شعور يمكنهم التظاهر به في انتظار انقضاء العصر المُظلم، هؤلاء يعانون من نوبة ثالثة تُدعى فترة الانتكاس، حينها ينحدرون إلى قاعٍ أعمق من قاع اليأس، ويمضون فترة الأقنعة بنوبات متفاوتة من الاكتئاب، لكن هؤلاء أدركوا مفهوم «النبضة».

أولئك أدركوا أنه لا نهر دون مصب، وأن للمصب - مهما كان عميقًا - شاطئًا، وفوق طمي الشاطئ المتراكم ستشرق شمس جديدة، وتبدأ العجلة بالدوران من جديد.

10٪ يجدون أنه لا مهرب من الدائرة سوى المهرب النهائيّ من الحياة بالكامل، بمعنى آخر: الانتحار، بعضهم يُقدم على الخطوة بالفعل، وبعضهم الآخر يتراجع قبل الخطوة النهائية لينضم إلى فئة الـ 80٪ الأولى في انتظار شروق الشمس؛ لذا تجد مَنْ فَضَّل الانتحار ليس أكثر معاناة، لكنه أكثر حماقة فقط.

ثم هُنالك الـ 10 ٪، ولكن قصة هؤلاء مُختلفة نوعًا ما..»

* * *

«لم تكن حياتي مأساوية في البداية، لم أعانِ في طفولتي، أو في مراحل نموي من مشاكل بالمنزل، أو شجارات أو أزمات مالية قد تعمل على تكوين عُقدٍ نفسية بداخلي؛ بل على العكس بدت حياتي كما لو كانت تمر فوق شريط قطار دون الانحراف عن وجهتها، أو التأثر بالعوامل الخارجيَّة المُحيطة بها.

نشأت بين أسرة مستقرة، والدان، أخت أصغر بثلاثة أعوام، وأخ.. حين التحقت بالجامعة لم يكن قد تجاوز ثماني سنوات، حين بلغت السادسة عشر - وعلى مضض من عائلتي - انضم فرد سادس إلى عائلتنا، قط صغير أبيض بارع في نثر شعيراته الدقيقة وأوساخه في جميع أرجاء المنزل.

أثار القط انزعاج الجميع؛ لكنني لم أسمح لأحد بالتخلص منه، في البداية كانت رغبتي في الاحتفاظ به أشبه بإصرار طفلة على أصطحاب منزل دماها الجديد إلى فراشها ليلًا.

الطفلة لن تلعب بمنزل الدمى أثناء النوم، لكن فضولها تجاه «مُمتلكاتها الجديدة» قويّ، هي ترغب بالبقاء جوار العالم الجديد الغريب الذي امتلكته مؤخرًا، كذلك أنا، شعرت بالفضول تجاه وجود كائن جديد في حياتي، يتحرك، يأكل، ينام، يمرح، يشعر بالبؤس..

اعتنيت به بسعادة شاعرة أن لوجودي أهمية للمرةِ الأولى، أحببت شعور وجود مَنْ ينتظرني لأطعمه وأعتني به حين أعود من الخارج، تفكيري بالقط ساعد على كسر روتين حياتي لفترةٍ لا بأس بها، لكن بعد فترة بدأت أسأم القط اللعين.

لم يعد التزامي بالعناية به وإطعامه يُشعرني بالأهمية؛ بل بالإجبار، امتصاصه لجزء كبير من وقتي صنع دائرة روتين صغيرة داخل دائرة الروتين الأساسية.. بالتالي أصبحت أمقته.

رغم هذا لم أسمح لأحد بالتخلص منه؛ ليس لأنني أحببته، بل لأنني لم أرغب في الشعور بالهزيمة، كنت عنيدة في ذلك الوقت؛ لذا أقنعت نفسي بأنني إذا رغبت في التخلص من القط عليَّ فعل ذلك بنفسي، لا الاعتراف باستسلامي».

حين وصلت «يُمنى» إلى هذا الجزء من الحديث، تاهت نظراتها ببقعة ما خاوية خلف كتفي، وقد خيم عليها الصمت، وكأنها تُقلب شيئًا ما بعقلها، لم أكن قد تفوّهت بحرف إلى الآن، حتى وضعيتي في الجلوس ظلت ثابتة، وبدأت أشعر بتيبس في مفاصل ساقي:

- هل قتلتِ القط؟

من بين أزيز الأسئلة، والتعليقات التي فاضت بعقلي، خرج السؤال من غير قصد؛ فضحكت دون النظر إليَّ لتجيب:

- هل أنت واثق من أنك طبيب؟!

شعرت بالدماء تندفع إلى وجنتيَّ، وحرَّكت ساقيَّ تلقائيًا، فبدأ الألم يغزوهما حين انتقلا من حالة الجمود إلى الحركة، رغبت بقول شيء ما يُصحح ما تفوهت به سابقًا أو الاعتذار، لكن «يُمنى» عاودت صمتها وشرودها السابقين، وبدا أنها تناست سؤالي الغريب وسط خيالاتها الفرديَّة.

مرت بضع دقائق ألقيت بها مُجبرًا نظرة مُختلسة على ساعة يدي، لم يعد لديَّ الكثير من الوقت لجلسة اليوم، بقي عقلي مُخدرًا بشكلٍ ما، لكن لم أحتج لإفاقته؛ لأنها تابعت حديثها بسؤالٍ مُباغت:

- هل اختبرت شعور التكرار من قَبل دكتور؟

- عفوًا!

أجبتها مستوضحًا، وقد انتبهت فأعادت سؤالها:

- شعور أن تغفو وتستيقظ لتجد نفسك بإعادة لذات اليوم الذي سبق، رُبما هُناك القليل من التفاصيل المُختلفة.. لكن اليوم في المُجمل.. مُكرر.

التفتت ناظرة إلى عينيَّ مُباشرة، فأجفلت قليلًا، لكن أجبت بصراحة غير عالم بمقصدها:

- ومَنْ منّا لم يختبر هذا الشعور؟!

لم تبتسم هذه المرة، لكنها تابعت حديثها:

- مُنذ عدة سـنوات حين حصلت على مجموع مُناسـب لالتحاقي بكلية الفنون التي طالما حلمت بها، تطلعت إلى مسـتقبلٍ حافل، شعرت بأن شريط القطار يقودني نحو الأعلى، نحو سماء زرقاء مفتوحة، وسحب بيضاء لامعة، وقمم أشجار يانعة الخضرة، وألوان.. عدد هائل من الألوان.

بمـرور الوقت بدأت الألـوان بالزهو أكثر، تسـارعت وتيرة حياتي ما بين إثارة تعرف أشخاص جدد، إلى التورط بمشاكسات بهدف المرح مع أصدقـاء لا أعرف عنهم، أو يعرفون عني، سـوى القليل، نجاح اجتهدت حتى اسـتحققت اكتسـابه، ألوان عديدة.. محطتي الجديدة كانت زاخرة بالألوان يا دكتور.

حيـن صمتت بدا على وجهها تعبير أشـبه بالمرارة؛ فاسـتنطقتها دون وعيٍ بنبرةٍ خرجت مُتقطعة رغمًا عني:

- ثُم؟

على ما يبدو، القطار أحرق الكثير من الوقود في طريقه نحو الأعلى.. أكثر من اللازم.

أنهت جُملتها، وقد انمحت أي تعبيرات من وجهها الشاحب، فتحت فمـي لأحثها علـى المُتابعة، لكـن في تلـك اللحظة انزلق بـاب الحجرة مفتوحًا، ليدلف الممرض قوي البنية، مُعلنًا انتهاء الوقت.

* * *

الفصل الثالث

على الرغم من أن أول أضواء الفجر تسلل على استحياء يرمق غرفتي الفوضويـة - عبر السـتار الداكن - باشـمئزاز؛ إلا أنني لم أكن قد غفوت بعد..

كنـت قد قضيت السـاعات الخمس الماضية سـابحًا بيـن الأصوات المنبعثـة من المسـجل الصغيـر، أُفرغ ما دار بجلسـة الصبـاح على ورقٍ ملمـوسٍ، أوقـف المُسـجل لأكتب، ثـم يتوقـف القلم بيدي بغتـةً لأُعيد تشغيل الشريط مُنذ البداية كي أتأكد من أنني لم أفوّت شيئًا مُهمًّا.

«يُمنى رءوف».

طالعني اسـمها المخطـوط بعناية بحبـر ماكينة الطباعة الأسـود فوق الملف الفارغ من صورتها.

- مَن أنتِ؟

قُلتها بصوتٍ خافتٍ، مُحدِّثًا نفسي دون أن أرفع نظري عن الملف.

حين انتهـت المُقابلة بالصبـاح لملمت حاجياتـي، وخرجت لا نحو الشـارع؛ بـل نحو مدير المصحة، لا أدري إن كانـت حالة عدم الود صفة

رسمية بهذا المكان؛ لأن الرجل الأشيب وافق أن يلتقيني على مضض، لم يبدأ بالاهتمام بما أقول إلا حين علم أنني المسؤول عن حالة «يُمنى».

بدت في عينيه الداكنتين لمعة لم تفتني، لكنه رفض – بلباقة – طلبي للمعلومات عن الحالة، وحين تساءلت عن سبب تقييدها إلى مقعد أثناء المقابلة، متعللًا بأن معرفة سبب ذلك على الأقل من حقي كوني معها بحجرة واحدة لفترةٍ طويلةٍ، ناور ليهرب من السؤال، وحين أصررت قال بحدة:

– حالتها العقلية غير مُستقرة، وقد تلجأ للعنف؛ لذا نبقي الأوضاع آمنة، لا نرغب بمشاكل لأن المصحة خاصة، منفصلة عن مستشفى العباسية.

قمت باستغلال هذه النقطة مُستفسرًا عن طبيعة «حالتها غير المستقرة»، لكن الرجل أبقاني في الظلام بطريقة دبلوماسية، فلم أجد بدًّا من المغادرة، شاكرًا إياه على «لا شيء».

– مَن أنتِ يا يُمنى؟

أنا لست طبيبًا ذا خبرة بعد؛ فقد كانت «يُمنى» أولى حالاتي على أرض الواقع، بعيدًا عمَّا تعاملت معه أثناء الدراسة؛ لذا توقعت أن شعوري بالارتباك هو أمرٌ طبيعيٌّ، خاصةً أنني مُجبرٌ على المُضي قدمًا دون معلومات سابقة عمَّن أتعامل معها.

كانت كل الأمور طبيعية حتى هذه اللحظة باستثناء شيء واحد.

– لنعقد اتفاقًا دكتور!

بعقلي بدأ صوتها المخملي ينساب من جديد، شعرت ببرودة جافة تتسلل فوق عمودي الفقري، فارتجفت رغمًا عني..

– لنعقد اتفاقًا دكتور! سأملأ تقريرك كيفما شئت، لن أكبح جماح لساني عن الروي، وسأجيب عن أي سؤال توجهه إليَّ دون مراوغة، ودون الحاجة إلى البحث عن الوسيلة الصحيحة للاستنطاق؛ لكن في المُقابل سأسألك بدوري سؤالًا كل نهاية لقاء بيننا، وباللقاء التالي أنت مُجبرٌ على الإجابة بصراحةٍ تامة.

حين سألتها عن السبب، أجابت متصنِّعة عدم الاهتمام:

– كي أجد ما أتطلع إليه في اللقاء القادم.

كان بوسعي الرفض، لكن بريق عينيها أخبرني أنني إن لَم أسايرها؛ فلن أحصل على شيء، وسأضطر إلى البدء من جديد في البحث عن مريض آخر، في الواقع أغرتني فكرة العودة إلى «حمدي»، والتحجج بفشل المقابلة، ثم السعي للحصول على مريضي السابق.

لكن لسبب ما تحولت «لا» الصارخة بعقلي إلى:

– موافق..

وكأنني وقَّعت عقدًا شفهيًا، ابتسمت «يُمنى» بارتياح، ثم بدأت في الحديث الذي استغرق ساعةً كاملة، وأنا عاجزٌ عن مُقاطعتها، أو تحويل انتباهي، اللهم إلا من مرة أو اثنتين قُرب نهاية المُقابلة، حين قطعت هي حديثها، واضطررت للكلام.

نهضت من أمام الطاولة، وأعدت ترتيب الأوراق فوقها، وضعت المُسجل، وهاتفي المحمول فوق الملف، وخرجت حاملًا قدح قهوة فارغًا، وكمًّا هائلًا من الأفكار، متجهًا نحو المطبخ.

ما إن وصلت، حتى ألقيت القدح جانبًا، وأنا أنظر عبر نافذة المطبخ الصغيرة إلى عالم قد بدأ يتلون بضوء الفجر النقي بالخارج، هُناك حياة كاملة تدور خلف هذا الزجاج، حياة تحوي الكثير من الأفراح، والكثير من المشاكل دون أن يهتم أحدٌ بالتفاصيل الصغيرة التي تحدث خلف نوافذ هذه المباني المُغلقة..

تلقائيًا دارت هذه الأفكار بعقلي، لا أدري لها سببًا، لكنها لم تكسبني سوى شعور عميق بالضآلة، أخذت نفسًا عميقًا وأنا أغلق عينيّ مُستندًا بيديَّ كلتيهما إلى جانبي المغسلة، وبقيت على هذا الحال لحظات أخرى، ثم فتحت عينيَّ بعدها مبتسمًا قليلًا، واتخذت طريقي إلى فراشي أخيرًا.

لا أدري لِمَ وُضعَت «يُمنى» في طريقي، لا أعرف مَنْ هي، أو ما قصتها، لكن الهرب من علامات الاستفهام لن يمحوها؛ لذا قررت الاستمرار، بقليل من التفاؤل اندسست أسفل الأغطية واستسلمت لذكرى صوتها المتسائل:

- أخبرني يا دكتور، هل تملك الإرادة الكافية للانتحار؟

الآن.. كان عليَّ إيجاد إجابة..

* * *

في البداية ظننت أن ما أيقظني كانت شمس ما بعد الظهيرة، التي اندفعت عبر نافذة الحجرة صافعة إياي؛ لكن حين أجبرت نفسي - دون رغبة حقيقية - على رفع رأسي عن الوسادة، وفتح عيني، أدركت أن هاتفي النقال جواري يهتز دون انقطاع.

حدقت بالهاتف المضيء ببلاهة لثوانٍ، ثم عاودت النوم شاعرًا بالرضا، كوني عرفت أن عقلي الباطن يُبالغ، وأن الزلزال بحلمي لم يكن أكثر من اهتزاز هاتفي فوق الفراش، بدأت بالاستعداد للانسحاب إلى داخل دوامة النعاس اللذيذة من جديد، حين أعادني اهتزاز الهاتف للمرة الثانية إلى أرض الواقع، لكن هذه المرة تنبّهت، ورفعت رأسي، والتقطت الكتلة المعدنية المُصرة، شاعرًا بالسخط لأضغط زر الإجابة وأنا أصيح:

- نعم!

- أحمد؟

انساب الصوت الأنثوي عبر سماعة صغيرة بهاتف ما، ليفتت إلى إشارات تناقلتها ذرات التراب والعرق العالقة بالهواء فوق سيارات هدَّها التعب، تقبع أمام إشارات شوارع القاهرة، مُنتظرة الفرج، وأُعيد تجميعه بطبلة أذني فأجفلت:

- مريم؟!

- هل أنت بخير؟ يبدو صوتُكَ غريبًا.. هل حدث شيءٌ ما؟

قالتها بنبرة سريعة دون أن تتيح لي الفرصة الكاملة للاستيعاب، فبقيت صامتًا لفترةٍ لا بأس بها، أستجمع كامل وعيي قبل أن أتثاءب لأجيبها بهدوء:

- كُنت نائمًا، أنا بخير.. لا عليكِ.

من جديد أتى صوتها العصبي مُتجاهلًا - على ما يبدو - تفسيري لغيابي عن الرد:

- أنت لست بخير، صوتك لا يدل على أنك بخير، ماذا بك؟

- أنا بخير يا مريم، كنت نائمًا فقط، لا داعي للقلق.

- لا أشعر بارتياح لنبرتك في الحديث يا أحمد، ماذا بك؟

- أقسم بالله كنت نائمًا!

قاطعت جملتها صائحًا بنفاد صبر، وقد احتشدت نقاط سوداء أمام عينيّ حين نهضت فجأة، ثم أضفت قبل أن تجد الوقت الكافي للرد:

- سأحدثكِ لاحقًا يا مريم، أحتاج لأن أفيق فقط، لا داعي لكل هذا القلق.

ظلت صامته للحظات، ثم عاد صوتها دون تعبير معين لتقول:

- حسنًا، لا تنسَ موعدنا اليوم، كنت أتصل لأتأكد أنك لم تغير الموعد فقط.

كدت أسألها عن أي موعدٍ تتحدث؛ لكنني ابتلعت الكلمات في اللحظة الأخيرة حتى لا أثير حنقها أكثر، عوضًا عن ذلك ابتسمت ابتسامة لن تراها:

- لا تقلقي لم أنسَ.. أتريدين مني المرور لاصطحابك؟

- لماذا؟!

قالتها بشك؛ فتابعت وأنا أتصنع التردد بصوتي:

- حسنًا، سيكون الوقت متأخرًا.. لا.. تعلمين لا أرغب بأن يضايقكِ أحد بالشارع، أنا أكره تلك الأمور.

هكذا ألقيت الكرة بملعبها، وانتظرت حتى أتى صوتها أكثر هدوءًا يحمل نبرة سعادة امتزجت بادعاء اللا مبالاة:

- منذ متى والخامسة وقت مُتأخر بالنسبةِ لَك؟! لا تقلق على أي حال، سأتحرك من المنزل قبل الموعد، وأنتظرك بالكافتيريا، ولا تقلق، فـ«سارتا» كما تعلم قريبة من منزلي.

- بينجو!

قلتها بهمس وفرح طفولي وأنا أطوّح قبضة يدي في الهواء دون أن تسمعني، ثم استعدت وقار صوتي وإجهاده وأنا أنهي المكالمة، ودعتها على وعد بأنني سألتزم بالموعد، وضعت السماعة شاعرًا بالسعادة، هكذا وبسؤال واحد علمت الموعد والمكان أيضًا، وتفاديت شجارًا لا داعي له إن كنت اعترفت بأنني نسيت الأمر برمته.

نظرت للساعة الزرقاء فوق الجدار المُقابل، ما زال لديَّ أربع ساعات كاملة حتى موعدي مع مريم. فركت عينيَّ كي أطرد بواقي النعاس منها، وتوجهت إلى الحمام للاغتسال، فحلاقة ذقني التي بدأت تنبت، باختصار لمحاولة العودة إلى هيئتي البشرية بدلًا من «أحمد» المُفكك الذي خلَّفه النوم المتقطع، والأحلام المُزعجة طوال ليل أمس.

كانت أفكاري قد استعادت منحناها الطبيعي أثناء استعدادي للخروج، فكرت بالمرور بمكتب «حمدي» وشكره مرة أخرى على المساعدة، ثم جلب هدية أو باقة زهور أصطحبها للقاء «مريم» كعربون اهتمام، صحيح أنها أصبحت مزعجة في الفترة الأخيرة، لا تكف عن الإلحاح بشأن كل شيء تقريبًا، كما لو أنها تحولت إلى مولد كهربائيّ عطب، لكنها طيبة، وتستحق بالتأكيد اهتمامًا أكثر.

دارت الأفكار بعقلي وأنا أطالع وجهي المُغطَّى بالصابون في المرآة، مرَّرت شفرة الحلاقة الحادة قرب فمي، ثم هبطت بها إلى جانب حلقي، عندها وبشكل مباغت تسلَّل السؤال إلى رأسي دون أن أشعر:

– دكتور، هل تملك الإرادة الكافية للانتحار؟

توقفت يدي بمنتصف الطريق قبل أن تمس الشفرة بشرتي، كان نظري آنذاك مثبتًا على انعكاسي بالمرآة، ورأيت النظرة المندهشة بعينيّ، الليلة الماضية ما بين الأحلام واليقظة، وجدتني أتساءل عن مدى جدية «يُمنى» بسؤالها، هل كانت تمارس نوعًا من الفكاهة على الطبيب عديم الخبرة، أم كانت تعني ما قالته حقًّا؟ هل كُنت مُضطرًا إلى الإجابة؟

الرد المنطقي كان نعم، عليَّ الإجابة إن أردت أن تتفاعل الفتاة معي، كان بوسعي تأجيل التفكير بالأمر لحين موعد الجلسة التالية، بوسعي اختلاق إجابة حينها وإنهاء المعضلة، لكنَّ شيئًا ما داخلي أخبرني بأن الادعاء لن يمر على «يُمنى» مرور الكِرام، ستعرف أنني كاذب، كيف؟ لا أدري. لم يكن أكثر من مجرد حدس، لكنني صدقته.

أبعدت عينيَّ عن الزجاج البراق لأخفض نظري نحو الشفرة بيدي، هل لديَّ الإرادة الكافية للانتحار؟ لطالما سمعت عن أولئك الذين يمررون الشفرات فوق المعصم كإحدى وسائل الانتحار، كنت في وضع مناسب تمامًا، أنا بالمنزل وحدي، الشفرة الحادة بيدي، فهل بوسعي فعلها؟

كانت أول إجابة خطرت ببالي هي ولِم أفعلها؟ المنتحرون لديهم كم هائل من المشاكل الدنيوية والنفسية التي تدفعهم للهرب بتلك الطريقة، ماذا عني؟ لست أعيش بالجنة لكن لديَّ مهنة بدأت تتجه نحو الأفضل، لديَّ فتاة يحلم بها الكثيرون، لديَّ المال الكافي لتأمين حياتي لفترة لا بأس بها، لست على وفاق تام مع أهلي بالقرية؛ لكنني كذلك لست منقطعًا عنهم.. لِمَ الانتحار؟!

سمعت أن بعض الشباب في سويسرا ينتحرون نتيجة الرفاهية الزائدة التي تجلب مللًا لا يمكن الخلاص منه، لكن هؤلاء حمقى، علاوة على أن ديننا يضع المنتحر جوار الكافر بجهنم، وأنا بالتأكيد لست فضوليًا إلى درجه التطلع لزيارة جهنم.

أدرت هـذه الأفكار برأسـي حتى تشـربتها خلايا عقلي، السـؤال من الأساس أحمق، إن كانت جادة كان عليها أن تسأل:

- هل تملك السبب الكافي للانتحار؟ وليس: هل تملك الإرادة؟

دفعت نفسي للابتسام مرة أخرى راضيًا، وأصبحت مستعدًّا للتغاضي عن تلك الأفكار، وإكمال ما كنت أفعله سابقًا.

لكـن مـا إن حاولت تقريب الشـفرة مـن رقبتي حتـى ارتجفت يدي، فسـرت ذلك بالإرهاق واسـترخيت في موضعي قليلًا، لكن حين رفعت يدي لأتابع ارتجفت من جديد، ليسـت «يُمنى» الحمقاء، بل أنا الأحمق، حين سـألتني إن كنت أملك الإرادة كانت تعني السؤال حرفيًّا، مهما يكن ما أحاول إقناع نفسـي به، تابعت النظر لانعكاسـي وأنا أشـعر أن الرجل خلـف زجاج المـرآة يرمقني بسـخرية، حـاول الكذب لكن يظل سـؤال الفتـاة واضحًا، هل تملـك الإرادة للانتحار يا أحمـد؟ بصرف النظر عن أي معايير دينية أو حياتية، إن سـاءت الظروف، هل تملك الإرادة الكافية للانتحار فعلًا؟

نظرت لانعكاسي بصمتٍ للمرة الأخيرة، ثم تركت الحمام وخرجت مسرعًا وأنا أطرد الأفكار الغبية من عقلي، لكنني أدرك أنني لم أجرؤ على وضع شفرة الحلاقة فوق رقبتي من جديد.

* * *

لـم تكـن العودة مرةً أخرى إلـى مكتب «حمدي» مريحـة، خاصة مع وجود هذا الكم من أفراد الشـرطة المتوجسين، ورائحة البؤس ولفافات

التبغ التي تفعـم الأجـواء، لكنني على الرغـم من هذا مضيت متحاشـيًا الاحتـكاك بأحد، حتى وصلت إلى الردهة التـي تفصل مكتب «حمدي» عـن باقي المبنى، أخبرت رجل الحراسـة عن هويتي، غـاب قليلًا خلف باب المكتب، ثم علا صوت «حمدي» من الداخل، فابتسمت ودخلت.

كالمعتـاد رحب بي الرجل، وأقسـم مع الكثير من السباب واللعاب المتطايـر أن أتنـاول معـه الشـاي؛ لكنني اعتـذرت متعلـلًا بموعدي مع «مريم»، كان سـيبدأ بنوبة من التعليقات المملـة حول علاقتي بخطيبتي؛ لذا بادرت بالحديث كي أغلق الباب أمامه:

- جئت فقط لأشكرك، أنا مدين لك يا صديقي.

خشخش صدره حين ضحك وهو يقول:

- عيب يا «أبو حميد»، لا شكر بيننا، كيف تسير الأمور؟

تصنعـت الابتسـام، وأنـا أتذكر مـا حدث بالمنـزل، كـدت أجيبه بأن الأمور تسير على ما يرام، لكن على ما يبدو كان «حمدي» قد قرأ خَطبًا ما في وجهي، فتساءل بجدية:

- ماذا حدث؟ هل تسبب أحدهم بإزعاجٍ لك؟

حرَّكت رأسي نفيًا بسرعة:

- لا.. لا تقلق نفسك، لا شيء من هذا القبيل.

- إذن ما الأمر؟

في حالته الطبيعية يطلق «حمدي» السباب والمزاح كجزء راسخ في شخصيته، اعتاد ذلك واعتاد الجميع هذا منه، لكن حين يتحول راداره إلى الجدية، يصبح من المستحيل إعادته إلى سابق مرحه، ما إن يلتقط إشارة عن وجود خطب ما، لا يتوقف إلا حين يعلم ماذا حدث، وأين حدث، وكيف حدث؛ لذا كنت أعلم أنه لا مجال للمجادلة، فحولت دفة الحديث قائلًا:

- لا مشكلة فعلًا، أواجه صعوبة في جمع المعلومات عن الفتاة لا أكثر.

أجابني بخشونة، وهو يومئ ملتقطًا سماعه الهاتف:

- ما اسمها مُجددًا؟

هُنا نهضت، وقد ارتديت قناع الجدية أنا أيضًا، وأمسكت بيده:

- بالله عليك يا حمدي، دعك من هذا.

هز رأسه نفيًا:

- أنا لا أمزح بالعمل يا أحمد، عندما أتصل طالبًا السماح لَك بالعمل دون معوقات، فأنا أعني «دون معوقات»، ليس من حقهم اختيار ما يروق لهم ليقدموه ويتغاضوا عن الباقي، هذا ليس طبق طعام!

أسرعت بالرد كي أهدئ من ثورته، وقبضتي لا تزال مُمسكة بسماعة الهاتف فوق يده:

- أعرف، والله أعرف، لكن لا تشغل بالك بالأمر، أنا لست طفلًا يا حمدي، يمكنني تولي المشكلة، هذا عملي.

نظر إليَّ بتوجس، فتابعت:

- سألجأ إليك إن حدث ما يستدعي، أنت كأخي الكبير لا تقلق.

- أحمد!

- يا حمدي، بالله عليك توقف..

قلتها بيأس قبل أن تومض فكرة شاردة بعقلي قليلاً، فسألت:

- حمدي.. لِم هذه الحالة بالذات؟

نظر إليَّ ثم تساءل:

- ماذا تعني؟

- أعني يمنى، لِم هي بالذات؟ ملف الفتاة فارغ، وهم غير راغبين بمنحي أي معلومات، كيف سمحوا لك بتكليفي بهذه الفتاة بالذات؟ إن أرادوا إخفاءها، كان عليهم ببساطة إخفاؤها.

وجم «حمدي» قليلاً ثم تابع :

- وهذا ما حدث.

رفعت حاجبي تعجبًا، فابتسم على مضض قائلًا:

- الحالة كانت مختفيه بالفعل، وسط مئات الملفات الأخرى التي جلبوها إليَّ، أنا لست خبيرًا بمجالك هذا، لكن ظننت أن ملفًا شبه فارغ، يعني حالة مثيرة للاهتمام، أو جديدة، أو صالحة للتقييم، أيًا يكن المصطلح الذي تطلقونه أنتم الأطباء على مثل هذه الأشياء..

- و تركوك تأخذ الملف بهذه البساطة؟

هنا قال «حمدي» باستخفاف:

- ليس الطبيب فقط هو مَنْ يملك القدرة على معالجة المشاكل يا أحمد.. لنا أساليبنا كذلك في علاج الأمور العالقة.

تنهدت:

- لا عجب أن لا أحد يرغب في مساعدتي هناك..

- يمكنني معالجة هذه المشكلة بضغطة زر كما تعلم..

قالها «حمدي» وقد عاد لوجومه السابق، فبادرت بدفع يده التي امتدت إلى الهاتف، وأنا ألح عليه أن يدع الأمور وشأنها.

أنهيت كلامي، ودفعت نفسي للابتسام محاولًا تلطيف الأجواء، ظل «حمدي» متجهمًا قليلًا، لكن أساريره بدأت بالانفراج بعد برهة، وأبعد يده عن الهاتف، وهو يصيح بي أن أقسم على أنني سألجأ إليه لو تعرض لي أحد بالمصحة، أو وقعت في مشكلة، أو خلافه..

أقسمت لإسكاته، ثم حوَّلت مجرى الحديث إليه، أستعلم عن أحواله هو وزوجته وابنه، سمحت له بسؤالي عن أحوالي الشخصية، وأجبت باستفاضة كي أدفعه لإغلاق الرادار بعقله، وحين بدا أنه أفضل حالًا، وأنه استعاد سابق مرحه، نهضت مُعلنًا رغبتي في الذهاب.

لم يكن موعدي مع «مريم» قد حان بعد، لكنني حييت الرجل وانطلقت مبتعدًا عن أجواء المكتب الخانقة إلى الشوارع المزدحمة،

قفزت في أول سيارة أجرة تكرم سائقها بالوقوف، وتحركت إلى حيث تقع الكافتيريا بالزمالك.

لم يكن من المفترض أن تصبح «يمنى» لي، لكنها وُضعت في طريقي سواء كان السبب هو فضول «حمدي» أو القدر، ليست لديَّ فكرة عما سيحدث من الآن فصاعدًا، لكن الأيام القادمة بالتأكيد لن تكون سهلة.

ما فعله «حمدي» لن يمر من دون عواقب.

* * *

استغرق الطريق وقتًا لا بأس به، بقيت غارقًا في أفكاري الخاصة أغلب الوقت؛ اللهم إلا حين ينشب شجار ما خارج السيارة، أو داخلها بين السائق والعربات المجاورة أو زبائنه، راقبت الخلافات والأصوات العالية دون تعليق، ضيق الخلق أصبح سمة عامة هذه الأيام على أي حال، واعتدت رؤية الشجار كجزء لا يتجزأ من طقوس الحياة اليومية.

توقفت السيارة أخيرًا في إحدى الإشارات المرورية القريبة من وجهتي، ولأن التحرك من الإشارة في هذا الوقت قد يستغرق ساعة على الأقل، أعطيت الرجل مستحقاته، وخرجت وقد قررت التمشية لقتل الوقت.

كانت لحظة واحدة، لحظة واحدة فقط أبعدت بها عينيَّ عن الطريق ساهمًا، بعدها انطلق زعيق العجلات الضخمة فوق الأرض الأسفلتية بالقرب مني كالرصاص.

سمعت هدير المحرك، واشتممت رائحة الجلد المحروق قبل أن أرى الشاحنة تنحرف عن الطريق الرئيسي، وتدور حول نفسها بمسافة لا تتعدى العشر خطوات من موقعي، دارت مرتين ثم توقفت بغتة فأدى توقفها المفاجئ إلى انزلاق أبوابها الخلفية مفتوحة على مصاريعها، ومن الداخل انطلقت الأسياخ الحديدية كالطلقات بفعل القصور الذاتي.

لم أكن قد أدركت أن الصدمة شلتني بمكاني إلا حين رأيت المقدمة المدببة للأسياخ المتطايرة تتجه نحوي؛ وكأنني أشاهد عرض فيلم بالتصوير البطيء، التقط عقلي ما حدث، حتى أدنى التفاصيل لا أدري كيف جمعها، العربة التي توقفت، الأبواب، الأسياخ الحديدية التي كانت تتجه نحوي بإصرار، الحقيبة التي سقطت من السيدة فوق الرصيف المقابل، طفل يركض، كلب ينبح على شيء ما.

لوهلة بدا كل ما حولي غير مترابط، وكأنني أراه من موقع آخر خارج حدود جسدي، ثم تحول عقلي من حالة الصدمة إلى الجمود في جزء من الثانية، عجزت عن استيعاب ما يحدث، لكن تلقائيًا شعرت بجسدي ينتفض، يتحرك ثم يتكوم أرضًا.

شعرت بخلخلة الهواء جواري؛ لكنني لم أتحرك، في البداية بدا كل ما حولي صامتًا، وكأنني أصبت بصمم مفاجئ، ثم تدافعت المعلومات داخل بوتقة استيعابي في آن واحد، الصرخات، الألم بذراعي الأيسر، أقدام تركض وأنفاس حارة حولي، يد امتدت لتساعدني على الوقوف، ثم المزيد من الأنفاس والصيحات.

أردت الصراخ بدوري أن اهدءوا، أحتاج إلى استيعاب ما حدث، رجاءً اهدءوا، أغمضت عينيَّ عن الوجوه حولي لثوانٍ، عندها غزا الألم الحارق جسدي بالكامل ابتداءً بذراعي الأيسر، وبالفعل هذه المرة.. صرخت..

* * *

حين تفرَّق الحشد أخيرًا ضاربًا كفًّا بكف، كنت أعتلي السرير النقال بمؤخرة سيارة إسعاف تم استدعاؤها على عجل، راقبت من داخل العربة الشارع بالخارج يعود إلى سابق سيره الطبيعي، كان البعض قد بقي محتشدًا حول المنطقة، بعض الرجال الذين بدا عليهم الفضول لا القلق، إضافة إلى صاحب الشاحنة، وإحدى سيارات الشرطة التي كان الضابط المسؤول عنها يتحدث مع السائق حديثًا عجزت عن سماعه.

تجنبت - بصعوبة - النظر إلى أسياخ الحديد الملقاة على الأرض في كل مكان، ثم أغمضت عيني في محاولة لتخفيف الصداع الذي التهم مؤخرة رأسي بالكامل، كانت الصدمة قد زالت الآن، أدركت ما حدث ابتداءً من الشاحنة التي انحرفت عن الطريق جواري، وتفادت صدامي بصعوبة، ثم أمر الأسياخ الحديدية التي - بأعجوبة - لم يصبني منها سوى جرح بأعلى ذراعي الأيسر حين مرَّ أحدها جواري.

نجوت، جل ما أعلمه أنني كنت على وشك الموت، دون إنذار ودون توقع، كان الموت على قيد أنملة مني؛ لكنه تركني ومضى، لِمَ؟! لأن

قـدري لم يحن بعد، هذا هو كل شـيء، كلما حاولـت التفكير بالتفاصيل يصرخ عقلي مُطالبًا إياي بالتوقف عن التفكير.

زفـرت بعمق، وأعدت فتح عينيَّ متجاهلًا المرأة التي تخيط جرحي، لأعاود النظر إلى الشـارع، عدد لا بأس به من الأشخاص ما زال متجمعًا بالخارج، يتناول معطيات الحادث بلهفة، شعرت بالضيق، لكن شعوري تلاشى ليحل محله انقباض سريع بمعدتي، حين رأيت عينيها المتسعتين ترمقانـي من خلف الأبواب المفتوحة بمؤخـرة العربة، كانت هُناك تقف بوجهٍ متجمد، وأنفاس متسارعة ليتذبذب صوتها عن سؤال مذعور:

- أحمد؟!

بابتسامة مُرهقة كمن تم ضبطه ينهض من قبر أجبتها بضعف:

- مرحبًا مريم.

* * *

- أنت مجنون، أقسم إنك مجنون.

قالتهـا «مريـم» بعصبية مُبالـغ بها، وهي تحدق بكـوب العصير البارد فوق المنضدة، حاولت الابتسام رغم الصداع مكررًا للمرة العاشرة:

- لمـاذا؟! لـم أكن أنا من يقود الشـاحنة، ثم إنني بخيـر، لا تقلقي، ها أنا أجلس أمامك.

حركـت رأسـها وأصابعهـا الطويلـة تعبـث بجانب حجابهـا الأزرق الداكن:

- لست بخير، كان يمكن أن..

ابتلعـت كلماتها عاجزة عن النطق ببقية الجملـة، فأكملت قولها وقد بدأت أشعر بالحنق:

- أموت؟ أجل، أعرف.. لكنني لم أمت، أنا هُنا الآن، هلَّا هدأتِ؟

زمَّـت الفتاة شـفتيها، وضغطـت أناملها فـوق كوب العصيـر متفادية النظر إليَّ، كنت أعلم أنها تُفكر الآن، وأنها على وشك مُهاجمتي بالمزيد من التعليقات حول الموضوع ذاته، قاومت بشدة رغبتي في إسناد رأسي على الطاولـة، وإغلاق عيني لإراحة عقلي المكدود، إن فعلت فسـتجن «مريم»، سـتظن أن بي خطبًا مريعًا، وسـتبدأ بالذعـر وإمطاري بتعليقات وأسئلة لا حاجة لها.. ليس الآن على الأقل.

- أنـت لسـت بخير، يا ألله! كنت أعلم أنك لسـت بخيـر مُنذ أن هاتفتك هذا الصباح.

انطلقـت كلماتها، ففتحت فمي لأطلق تعليقًا سـخيفًا من قبيل: «هل تنبأتِ بأنني سأصاب في حادث؟»، لكن عوضًا عن ذلك كتمت ما أرغب في قوله، وبدأت أندم على أنني رفضت المضي مع سيارة الإسعاف إلى المستشـفى، وعدت مع «مريم» إلى الكافتيريا، كان جُلُّ ما أفكر فيه الآن هـو رغبتـي بالعـودة إلى المنـزل والنوم، كان هـذا حتى باغتتنـي «مريم» بسؤالٍ جديد كان من شأنه جذب انتباهي هذه المرة..

* * *

عندما عدت إلى منزلي لم أكن وحدي للمرةِ الأولى مُنذ فترة طويلة، كانت تُصاحبني العديد من الأفكار.. لا أدري إن كنت أبالغ أو أن أفكاري لم تكن على هذا القدر من الأهمية، لكن زناد عقلي لم يتوقف عن القدح منذ أوصلت «مريم» إلى منزلها وغادرت.

تقدمت إلى داخل شقتي الصغيرة ذات الإضاءة الخافتة، واضعًا مفاتيحي وهاتفي المحمول فوق المنضدة الدائرية، قُرب الباب الخشبي ذي اللون البني الداكن، تحولت عيني تلقائيًا إلى حقيبتي.. كانت مُلقاة على الأرض قُرب المنضدة وقد برز منها عدد من الأوراق لا أذكر فحواها، قفزت صورة الملف الخاص بـ«يُمنى» إلى عقلي في اللحظةِ ذاتها تقريبًا التي تذكرت فيها تعليق «مريم» الذي أدى إلى انتهاء اللقاء.

- هل كنت خائفًا يا أحمد؟

قالتها «مريم» منذ ساعات من خلف كوب العصير الخاص بها وهي ترمقني بقلق، أعلم أنها كانت خائفة، وكانت ترغب في الاطمئنان عليَّ فقط، لكن لسببٍ ما أثار السؤال أعصابي، تشاجرنا وعادت إلى منزلها غاضبة.. لماذا قمت بهذا؟ ليست لديَّ فكرة.

في محاولة مني لتجاهل الموقف بالكامل أبعدت نظري عن الحقيبة وألقيت أفكاري بمؤخرة عقلي مُعتبرًا ما وَقع حلمًا سيئًا، أو أنه لم يحدث من الأساس.

تجولت في الشقة للقيام بطقوسي المُعتادة من استحمام، إلى تبديل ملابس، ثم البحث عن شيء صالح للأكل في الثلاجة الصغيرة، وفي

النهاية الاسترخاء بمقعدي الوثير أمام شاشة التلفزيون، والتي تعرض شيئًا لا مثيل له من «هُراء كل ليلة المُعتاد».

غصت أكثر بالمقعد بحثًا عن الدفء وأنا أتجول - بجهاز التحكم الصغير - بين برامج مختلفة، في مُحاولة مني للانسجام.

هذه قناة تتحدث عن الطقس، وتلك قناة تعرض فيلمًا مُبالغًا في تفاصيله، ثم هذه القناة التي تستضيف شخصًا ما يتحدث عن شيء ما لا أهمية له، يلوح بيديه بتركيز ليعطي المشاهد الانطباع ذاته التي تحاول أغلب برامج الاستضافة إعطاؤه: «أنا أقول شيئًا مهمًا، إن ظننت هذا هُراءً فذلك لأنك أحمق جاهل».

باختصار فشلت تمامًا في إبعاد عقلي عما حدث سابقًا، وبالتالي أطفأت الجهاز وبقيت جالسًا أُحدق في الشاشة السوداء.

ابتدأ اليوم بخلاف مع «حمدي»، حادث، ثم شجار مع «مريم» فقط لأنها أرادت الاطمئنان عليَّ، أغمضت عينيَّ، ووضعت يدي فوق وجهي ببؤس، ما الذي يحدث لي؟ أعرف نفسي على قدر من العصبية وضيق الخُلق لكن لديَّ القُدرة على ضبط نفسي..

لم أكن لأنجح كطبيبٍ نفسيٍّ لو لم تكن لدي القُدرة على ضبط نفسي، لا أنكر أنني متوترٌ، رُبما خائفٌ بعض الشيء مما أنا مُقدم عليه الفترة القادمة، رُبما هذا هو سبب حالتي النفسية المُتدهورة؟ رُبما..

عـزوت ما أنا فيه إلـى ضغوط العمل، وقررت اتخـاذ خطوة إيجابيّة؛ كالاتصال بـ «مريم» لإصلاح الوضع، لكن ما إن قررت النهوض لجلب الهاتـف حتى وقعت عيناي للمرة الثانية علـى الملف البارز فوق منضدة الحجرة.

– هل لديك الإرادة الكافية للانتحار دكتور؟

سـرَت القشعريرة بظهري حين وجد صوت «يُمنى» طريقه بالانبعاث مـن بين خيالاتي مـرة أخرى، نهضت، توجهت ناحيـة الملف، لكنني لم ألتقطـه، نظـرت إليه فقـط كمن يراقـب ثعبانًـا بقفص، وقد تسـمَّرت في مكاني للحظات، ثم تراجعت مُبتعدًا.

أنـا أولـي الموضـوع اهتمامًا أكبـر من الـلازم، هذا واضـح، «يُمنى» مريضتـي، كان عليَّ التعامـل مع الأمور بهذه البسـاطة، الفتاة مريضة، أنا أعالجها، ستطرح أسئلة، سأجيب بلا مبالاة، ثم أنتزع منها الحديث، أملأ التقرير اللعين ثم أقدمه لأحصل على الشـهادة والمنحة التي أرغب فيها، بعدها تخرج «يُمنى» والمصحة بالكامل من حياتي..

تمسـكت بهـذه الفكـرة، وخرجـت لأهاتف «مريـم»، أتانـي صوتها المكتئـب فحاولت معالجة الأمور، حين أغلقـت الهاتف كانت خطيئتي لا تزال شبه مستاءة؛ لكنني نظرت إلى الجانب المُشرق، سينصلح الحال، عاجلًا أم آجلًا سيصبح كل شيء على ما يُرام.

لكـن فـي الواقع لا شـيء كان على مـا يرام؛ لأنني مـا إن ابتعدت عن الهاتـف حتى عاودني صوت «مريم» القلق صباحًا، وهي تسـأل إن كنت

خائفًا من الحـادث، وخلفها أتى صـوت «يُمنى» منتهـزًا الفرصة ليؤرق عقلي من جديد.

هكـذا صـرت مُحاصرًا بيـن امرأتيـن، إحداهما تسـأل إن كانت لديَّ إرادة الموت، والأخرى تستعلم إن كنت خائفًا منه، كانتا تقوداني بإصرار مريـب إلـى هاويـة التفكيـر فـي مصطلح لم يسـبق لـي طـرح الكثير من التسـاؤلات عنه، حاولت تجاهل كليهما، ثـم تحركت من خانة التجاهل إلى العصبيـة، لكن هذا لم يُجدِ، مـا تزال إحداهما تجـذب كلما أرخت الأخرى حبالها..

بإصـرار عـدت إلى الحمـام، كانت الشـفرة الحادة فـي مكانها الذي أودعتهـا به صباحًـا، التقطتها وبإصرار أغلقت قبضتـي حولها رافعًا إياها حيث معصمي.

لِمَ عليَّ التفكير في الموت؟ لِمَ أخشاه؟ إن كانت الحياة تفتح الدائرة فالموت يغلقها، ليس زائرًا عليَّ القلق بشأن ضيافته؛ بل هو المالك الأصليُّ، وسيأتي ليأخذ مستحقاته إن طال الزمن أو اختُزِل، لِمَ عليَّ الخوف مما هو حتمي؟ إن حاولت إنهاء حياتي هُنا والآن، ثم قرر الموت أن أواني لم يحن بعد، فلن أموت، لِمَ أخاف؟!

لكن ما إن شعرت بالنصل الحاد يستعد لحزِّ الجلد فوق عروقي حتى تجمَّدت يدي، وخبت شعلة اليقين التي اتَّقدت في عقلي مُنذ دقائق.

كان بوسـعي فعلها، حركة واحدة وينتهي كل شـيء، بعدها أسـتطيع طلب الإسـعاف، الركض إلـى الجيران، أو حتى الانطلاق إلى الشـوارع

صارخًا، في هذه اللحظة كل ما احتجته هو الشجاعة الكافية لتحريك النصل، لكن أمام هذا القرار وقفتُ عاجزًا.

الموت لا يُرهبني لكنني غير قادر على استدعائه، لن أخشاه حين يباغتني لكن لم يكن بوسعي زيارته في عقر داره، سقط النصل من يدي ورأيت انعكاسي المذهول في المرآة.

كادت حياتي تنتهي هذا الصباح في ثوانٍ معدودة، إما بسيخ حديديٍّ يعبر جسدي، أو مدهوسًا فوق الطريق العام، لم أشعر بالخوف حينها، عقلي ألغى خيار الخوف تلقائيًا واضعًا نفسه بحالة من الصدمة كي يمتص الذُّعر؛ وكأنني أراقب من بعيد.. لم أتوقع موتي لذا لم أخشَه.

كان من الممكن أن أفيق من الصدمة لأجد نفسي أُحتضر، لكنها ستكون عدة ثوانٍ عابرة قبل أن أفقد الإحساس، ومَنْ يعلم، قد لا يأتي الإحساس من الأصل ويبقى عقلي بحالة الصدمة رأفةً بي إلى أن ينتهي كل شيء.

باغتني الموت دون استعداد صباحًا على عكس حالي الآن، لديَّ كل ما أحتاج إليه كي أجلب الموت إلى عتبة داري، خطوة واحدة، كل ما احتجته هو خطوة واحدة، وأهبط إلى الساحة في مواجهته، في انتظار قراره بمرافقتي، أو تحريري.

لكنني خشيت الانتظار، خشيت أن أتكوَّم أرضًا، أصرخ بألم دون أن يسمعني أحد، أو يأتي لنجدتي مُنجد، وخشيت رؤية دمائي التي قد لا

أمهلني بالوقت الكافي لجمع شتاتها، كنتُ خائفًا، بل مُرتعبًا من الفكرة، كنت عاجزًا أمام عقلي.

لن أتمكن من إنهاء حياتي بيدي، حصلت «يُمنى» على إجابتها، ليست لديَّ الإرادة، الانتحار يحتاج إلى إرادة لا أمتلكها. ظل جسدي ثابتًا أمام صورتي في المرآة حتى أتاني الإدراك فجائيًا.

«يُمنى» أعطتني سؤالًا مُفخخًا، الإرادة لا دخل لها بالموت، أيًا يكن السبب سيعجز مَنْ هو بكامل قواه العقلية عن الانتحار، ببساطة لأن إرادة عقله المنفصلة ستصدر أمرًا بالتوقف، تمامًا كما حدث لي.

- لذا تجد مَنْ فضَّل الانتحار ليس أكثر معاناة؛ لكنه أكثر حماقة فقط.

قالتها «يُمنى» ببداية حديثها، لم أُعطِ تعليقًا بالموافقة أو الرفض؛ بل ولم أتذكر قولها أصلًا إلا الآن، سؤالها لم يكن اختبارًا، بل أرادت التأكيد على قولها بطريقة تمحو قدرتي على الشك.

لماذا؟ كي تثبت أن - أيًا كان - ما أقدمت عليه في ماضيها ولم تخبرني به بعد، فقد كانت بكامل قواها العقلية عندما فعلته؛ لذا عجزت عن الانتحار حين استدعى الأمر ذلك، تلك كانت الإجابة الوحيدة، وبدورها عنت شيئًا واحدًا فقط.

ما عانته «يُمنى» كان في قمة البشاعة، أو قمة الخُطورة، أو رُبما كليهما.

لذا وجب عليها تحذيري قبل أن تبدأ بروايته..

* * *

الفصل الرابع

نقرت بأصابعي للمرة العاشرة على التوالي فوق المنضدة الحديدية، وحذائي ينقر الملاط الرمادي بالغرفة، في انتظار عودة الممرض حليق الرأس الذي أبقاني هُنا حتى يذهب ويأتي بالفتاة.

كان عقلي حينها مشحوذًا بقدرٍ هائلٍ من الغضب، جاء كنتيجةٍ حتميةٍ لقلة النوم، وصراع الأفكار الذي دار برأسي ليل البارحة، كنت على وشك الانفجار في أي لحظة إن تجرَّأ أحدهم وحادثني في أي موضوعٍ كان؛ لذا استغللت لحظات الوحدة التي مُنحت إياها للاسترخاء قبل أن تأتي مريضتي كي لا أفسد الأمر.

بعد دقائق فُتح الباب بصرير مُزعج، وتقدمت «يُمنى» بخطواتٍ مُتزنة يتبعها المُمرض الضخم حليق الرأس الذي رأيته سابقًا، أجلسها في الطرف المواجه لي بدفعة لا داعي لها، ثم رمقني باحتقار لا أدري سببه، فبادلته احتقاره بابتسامة لزجة حتى خرج..

زفرت وأنا أحضر المُسجل مُتحاشيًا النظر إلى «يُمنى»، لكنها لم تدع لي الفرصة إذ بدأت الحديث هذه المرة:

- مرحبًا دكتور.

حرَّكت رأسي، ووضعت المُسجل بيننا، هذه المرة أيضًا دون أن أنظر إليها، لكنها تابعت دون اهتمام بتجاهلي:

- أرى أنك لم تنلْ قسطًا كافيًا من النوم.

- أرى أنه لم يتم تقييدكِ في المقعد اليوم.

قلتها بفظاظة، وأنا أرفع نظري نحوها، ابتسمت على عكس ما توقعت، عقدت يديها أمام صدرها لترمقني بعينين حاولت قدر الإمكان تفادي النظر إليهما، طال الصمت عدة ثوانٍ أخرى، إلا من تشويش مذياع بمكان ما خارج الغرفة.

- عجزت!

قلتها متصنعًا عدم الاهتمام، أطبقت شفتيَّ ثم تابعت:

- عجزت عن الانتحار.. وصلت فكرتكِ، الآن يمكنكِ متابعة الحديث.

- هل يُشعرك هذا بالضيق؟

- ماذا؟

ابتسمت بصفاء:

- هل أنت غاضب لأنك غير قادر على إيذاء نفسك؟

كانت الإجابة الصادقة هي نعم، لكنني حركت رأسي نفيًا، ظلت ترمقني دون كلام لكن عينيها وشتا بأن كذبتي فُضحت.

- كانت عيناه مثل عينيكَ تمامًا!

داعب صوتها صمت الغرفة السابق، فرفعت وجهي ناظرًا إليها مباشرة هذه المرة، وقد ظننت أن ما سمعته خطأ، أو شيئًا من هذا القبيل، لم تكن تبتسم، كانت شاردة تمامًا ترمق السطح المصقول للمنضدة أمامنا، بحثت عن التعليق المُناسب للرد، لكنها لم تكن تنتظر تعليقي..

تجرَّعَتْ دفعة من هواء الغرفة، ثم بدأت بإكمال روايتها..

* * *

3 يوليو 2013
من تفريغ لتسجيل الجلسة الثانية

«أدركتُ مُبكرًا للغايةِ أنني أمقت البشر، ليس تعاليًا مني أو إيمانًا باختلافي، لكن المواقف التي تعرضت لها طوال فترة دراستي بالجامعة عززت مقتي الدفين لهذه الكائنات التي خُلقت لتعمر الأرض.

كان لديَّ أصدقاء، أو رُبما زملاء هو التعبير الأدق؛ كوني شخصية اجتماعية ناجحة صنع بؤرة من الاهتمام حولي، احتشد العديدون حول هذه البؤرة لكن أحدهم لم يخطُ إلى داخلها في الواقع حتى وإن ظنوا العكس.

تعاملت مع كثير من المشاكل التي واجهتني في هذه الفترة، سواء في المنزل أو في الجامعة أو مع زملائي، امتلكت قناع القوة وأحسنت استخدامه لفترةٍ طويلةٍ، لكن يومًا بعد يوم كان مقتي للجميع يزداد.

تعرفت على فتاة في إحدى سنوات الجامعة، كانت تكبرني بعامٍ واحدٍ، لم أكن أوليها اهتمامًا خاصًّا، رُبما لأنني لم أسعَ للتقربِ من أحد، كانت هذه الفتاة تثير شهقات الانبهار بين زملاء وزميلات الدراسة على السواء؛ فهي حسنة المظهر، والملبس، والرائحة، عرضت عليَّ

المساعدة في أحد الأبحاث التي كُلفنا بها، وافقت، جمعتنا فترات في المكتبة أو أمام مبنى الجامعة، نُخطط لإنهاء البحث، نسُب إدارة الكُلية العقيم، نتبادل النكات، أو الأخبار العامة، وهكذا.. لا أدري لِمَ اختارتني دونًا عن الجميع كي تتقرب مني، لكنني لم أعترض.

تركتها تأخذ جانبًا من عالمي وسرعان ما اعتدت وجودها إلى جواري، كانت مرحة فانتقلت إليَّ عدوى المرح، وقضينا وقتًا لا بأس به معًا، ما بين الاستذكار والعبث، الهدوء والجنون، صداقتها شجعتني على الاختلاط أكثر بالآخرين، بل ورُبما السماح لنفسي بنقلها من خانة الزميلة إلى خانة الصديقة».

بعد زفير هادئ أطلقته «يُمنى» حين توقفت عن الكلام، طالعتني عيناها اللامعتان فأطلقت سؤالي من بين يدي المعقودتين أسفل فمي:

- لِمَ كرهتِ البشر إذن؟

لم تبتسم كعادتها حين أسأل، تحاشت الإجابة مُباشرةً، وحركت عينيها نحو جهة بعيدة من الحجرة، ظننتها في البداية ساهمة كعادتها، لكنها عاودت الحديث:

- أتدري ما الفرق بيننا وبينهم؟

عجزت عن فهم ما ترمي إليه في البداية، هم؟ التفتُّ ناظرًا بدوري إلى حيث كانت عيناها مثبتتين، طالعتني شجيرة صغيرة نامية على استحياء في أصيص بالٍ جوار النافذة، ظلت «يُمنى» ترمقها بجمود وهي تُكمل:

- على عكس البشر، للنباتات روح حُرة، ليست كافة النباتات جميلة، رائحة الباذنجان ليست فاتنة كالياسمين أو القرنفل، حبات البطاطا ليست حلوة مُبهجة كحبات الكرز، لكنها جميعًا لا تتخفى أو تتصنع، جُل النباتات تنمو دون قناع، «الينسون» ينمو كينسون، الطحالب تنمو كطحالب، لا أكثر ولا أقل، ودون أحقاد أو رغبة في التميز؛ لذا تملك أرواح النباتات شذًا حُرًا لا نمتلكه نحن.

أبعدت «يُمنى» عينيها عن الشجيرة لتعاود النظر إليَّ:

- أتعرف كيف هي رائحة روح البشر؟

حركت رأسي نفيًا، فتابعَت:

- الأحقاد، الغرور، النفاق، الحسد، التظاهر، الكذب، الغضب، التعصب، الكراهية، أقنعة من سعادة زائفة، اهتمام زائف، حُسن زائف، أرواح البشر تفرز الكثير من القيح، حتى وإن بدت أجسادهم نضرة مُتبسمة، وبرز الود على محياهم، خلف ابتساماتهم براكين من الدمامل كلما تفجر أحدها نبت غيره، لدى البشر مرض يُدعى «الزيف»، لا ينشب مخالبه في أجسادهم، بل للأسف في أرواحهم فقط، فيتغاضون عنه، طالما هو غير مؤذٍ ظاهريًا فلا حاجة لعلاجه، وبالتالي يتركونه يلتهم كيانهم بشراهة غير مبالين.. لذا أرواح البشر تنضح برائحة العفن دكتور؛ لذلك أكرههم. ولم تكن صديقتي استثناءً، فبعد عام ونصف تقريبًا من بداية معرفتي بها، توالت عليَّ المشاكل من حيث لا أدري، مرض والدي فجأة وأصبحت مُعلقة بين الأمل بشفاه

والخوف من فقدانه، أدى ذلك بالطبع إلى تدهور مستواي الدراسي، فقدت الرغبة في المواصلة، وتخلفت عن أداء امتحانات العام، هكذا كُتب عليَّ التخلف عن جل مَنْ عرفتهم في سنتي الدراسية.. كنت ضعيفة حينها، لا أُنكر هذا، وكنت مشوشة أيضًا؛ لذلك لجأت إليها كصديقه لتشجيعي، لم أطلب منها المعونة، فقط رغبت في شعور الدعم، لكن حينها كان ودها السابق قد بدأ يخبو.. تركتني أسقط عن الحافة، وتسلقت فوقي كي تسطع، فور أن تنحيت جانبًا بفعل الضغوط بدأت هي في التعالي، في تجنبي، في محاولة جذب كافة الخيوط التي امتلكتها أنا يومًا، سواء على المستوى الدراسي أو الشخصي، بَنَت عالمًا جديدًا خاصًّا بها مُستغلة ابتعادي عن الساحة، وبدا من الواضح أنها تيقنت من نهايتي؛ لذلك تصرفت بحرية تامة. بيد أنني لم أنتهِ، عاودت المحاولة من جديد، لا لشيء سوى لوضع حياتي في نصابها الصحيح مرةً أخرى، انتظمت في الجامعة، استبدلت الدعاء بذعري من فقدان والدي، رأيت مَنْ كانت صديقتي تتشبث ببقايا حياتي السابقة؛ فتركتها لها وحاولت بناء عالم جديد، ليس براقًا كالسابق، ولكنه على الأقل مُضيء، كنت أرغب في تجنب المشاكل، لكن على ما يبدو لم يكن «التجنب» مسموحًا. لا أدري لماذا شعرت أنني أمثل خطرًا أو تهديدًا عليها، حتى هذه اللحظة ما زلت عاجزة عن فهم دوافعها أو لِمَ عزمت على قنصي بأي وسيلة تقع عليها يدها؟ نجحت في بث سمومها بيني وبين معارفي فغادرني الأغلبية دون رجعة، كذلك نجحت في تذكيري بما فقدت مرارًا وتكرارًا، كلما جفَّت جروحي

وتوقفت عن الإدماء، كلما حاولتُ بشتى الطرق إعادة فتحها، كانت تمقتني يا دكتور، لا أدري السبب الذي ولَّد بها هذا القدر من الكراهية تجاهي، لكنها كانت تمقتني كما لو كنت الشيطان ذاته.

شهقت «يُمنى» كمن يكتم رغبته في الصياح، وأبعدت خصلات شعرها الداكن عن وجهها بيد ترتجف، كالعادة التزمت الصمت طوال تلك الفترة مُكتفيًا بإيماءات موجزة، لكنني - والحق يُقال - استغرقت في حديثها حتى الثمالة؛ لذا لم أتعجب حين نطق لساني مُعقبًا:

- لكنها لم تكن السبب يا يُمنى.

أنزلت الفتاة يدها عاقدة إياها أمامي فوق الطاولة، ورمقتني دون تعبير:

- السبب في ماذا؟

- في كراهيتك للبشر.

- لا...

- لا؟

لا أدري إن كانت النظرة التي حدجتني بها حينها استياءً مني أم من أفكارها الخاصة، لوهلة زمَّت شفتيها ولمعت عيناها غضبًا، ثم اختفت اللؤلؤتان الحانقتان أسفل جفنيها ليكشف صوتها عن رجفة حاولَت إخفاءها:

- كانت هي مَنْ حفر الجرح في روحي، لكنه هو مَنْ انتزع قدرته على الاندمال..

صمتت «يُمنى»، عجزت عن فتح عينيها من جديد، لكنني شعرت بما يدور داخل هذا الجسد الواهن أمامي، لم أجرؤ على دفعها للخوض في التفاصيل للمرة الأولى منذ التقيتها، رُبما لأنني استشعرت لوهلة هشاشة نفسية ظننتها غير موجودة حين خطوت إلى هذه الحجرة للمرةِ الأولى.

اعتراني الحرج، ليس من وضعها البائس، بل من وضعي أنا، كانت تُعاني، اختلاج قسمات وجهها وأصابعها التي زال منها اللون فوق سواد الطاولة كشفت معاناتها الصامتة، لكنها كانت تمتلك الحق لتعاني؛ لهذا هي في مصحة، كي تتمكن من إفراغ مُعاناتها وألمها ثم تتماثل للشفاء، هذا حقها. مَنْ أنا لأسلبها هذا الحق؟ لأذكرها، أضعفها، أجبرها على قول ما يعتمل في نفسها من هموم كي أدونه فوق أوراق لعينة ساعيًا وراء تميز مهني؟!

قررت الاكتفاء، لن أعود.. مددت يدي لإغلاق المُسجل والخروج تاركًا «يُمنى» وشأنها، لكنَّ يدها المرمرية كانت أسرع. رمقتني بثباتٍ، كانت تحثني - دون كلام - على البقاء.

- استمع إلى النهاية.

قالتها نظرتها.

- سأفعل.

أجابتها نظرتي بعد تردد.

حين فُتح الباب أخيرًا، وعاد المُمرض حاملًا إعلانًا بانتهاء الوقت، أغلقت «يُمنى» المسجل بهدوء، ونهضت بعد أن منحتني ثلاثة أشياء: ابتسامةً، وسؤالًا جديدًا، واسمًا أطلقته شفتاها مُعلنة أن للحكاية بقية..

كان يُدعى.. «أدهم»..

* * *

الفصل الخامس

تقافز قلبي جزعًا حين لاحت الأضواء الثلجية لمقدمة سيارة عابرة بالقُربِ من الأسوارِ المغلقة حيث مكمني، لم يكن للسائق أن يلمحني في ظلام الليل المهيمن على الشارع الخاوي من أعمدة الإنارة، لكنني انكمشت أكثر حتى عبرت السيارة، ومر الموقف بسلام .

كانت الساعةِ قد تجاوزت الثانية بعد مُنتصف الليل، أي أنه قد مرت ساعة بالتمام مُنذ أن عقدت العزم على مغادرة المنزل، والتسلل إلى المصحة كي أحصل على الأجوبة التي حرمني منها رئيس المؤسسة الغريبة تلك.

دارت الفكرة كثيرًا في رأسي من قبل، منذ المرة الأولى التي قوبل فيها طلبي بالرفض، لكن الفكرة آنذاك لم تكن أكثر من وسوسات تراودني من حينٍ لآخر، دون عزمٍ حقيقيّ على تنفيذها، على الأقل حتى أتت «يُمنى» بسؤالها صباحًا.

نظرت حولي من جديد، ثم تقدمت إلى حيث منخفض سيئ البناء من السور، مطموس بين بقايا كشك قديم، وشجرة عجوز مائلة، لاحظته بالمصادفة فكان بمثابة غنيمة لي.

بقائي هنا يثير الشكوك، سيظن العابرون أنني لص، أو تاجر ممنوعات، لا أدري أي التهمتين أسوأ لكن مَنْ سيجدني لن يفرق، سيكسر عنقي ثم يبدأ في طرح الأسئلة.

بالفعل لم تمضِ ثوانٍ حتى لمحت تلك الأعين التي تحدق بي، عابر ليلي بدأ بالشك، نظرت في ساعتي، «تأخر.. الأحمق تأخر وتركني هنا»، أفلتت نبضتان من ضربات قلبي لكنني أقنعت نفسي أنه عليَّ البقاء هنا قليلًا، قليلًا فقط.

لن أقفز.

نظرت إلى المنخفض الصغير في السور وأنا ألتقط أنفاسي، لا لن أقفز، هذه خطوة تحتاج إلى مجنون أو لاعب أوليمبي محترف، أو ربما «هجامة»، ليس بوسعي القفز؛ لذا كان الخيار الأسهل هو اللجوء مجددًا إلى صديقي المنتفخ بغروره.. «حمدي».

نظرت في ساعتي من جديد، قبل أن آتي إلى هنا كان عليَّ الاختيار، هل أقبل تحدي «يُمنى» الجديد؟ أم أنهي الموضوع بالكامل، اخترت قبول التحدي، وكان هذا يعني أن عليَّ اللجوء إلى «حمدي» مجددًا؛ لأن هذه المرة لم يكن بوسعي تنفيذ خطتي وحدي.

اللجوء إلى «حمدي» كان يعني أن عليَّ إقناعه بالقدوم معي بعد منتصف الليل إلى المصحة، وإقناع حارس البوابات الخارجية بأنه في مهمة رسمية ليسمحوا لنا بالدخول، بعد ذلك «حمدي» سيجذب انتباه الأطباء الساهرين؛ لأتمكن أنا من التسلل إلى حيث أريد.

تبًا لكِ يا «يُمنى»، فسؤالكِ الأبله صباحًا كان بمثابة زناد أطلق شحنة الأدرينالين الجافة في عروقي، وها أنا الآن أدفع ثمن إقدامي على إثبات أنني «أملك الجنون الكافي للحصول على ما أريد».

رفعت رأسي إلى الطريق المظلم برهبة، هذه المرة رأيت «حمدي». لقد أتى أخيرًا.

* * *

- هل تدرك أن ما نُقدم عليه قد يضع كلينا في السجن؟

قالها «حمدي» بضيق واضح وهو يلقي نظرة على البوابات الأمنية والحارس الشاب الساهر جوارها، أومأت دون أن أجد القوة الكافية للإجابة، فعقب:

- هل هذا جزء من.. مشروعك؟

تصنعت ابتسامة:

- أجل، طريقة علاجية متقدمة، لَم تُطبق بعد بصفة علمية لكن..

قاطعني باستهجان:

- أحمد أنا لست طبيبًا، لكنني لست أبلهًا، ما تفعله ليس رسميًّا، أنت فقط فضولي وغبي، وأنا وافقتك لأنني أكثر غباءً..

عاود النظر نحو البوابات ثم تقدمني قائلًا:

- فقط لا تستغرق وقتًا طويلًا بالداخل.

تبعت «حمـدي» بصمت إلى حيث الحارس الـذي نهض فجأة حين رآنا، بدا صغير السـن وأحمق، علمت أن «حمدي» سيتمكن من إقناعه، لم أرَ سواه فأرجعت الأمر لكون المكان شبه جديد، ما زال المالك يفتقر إلى الخبرة، أو على الأقل الخبرة الكافية لردع مخضرم مثل «حمدي».

بالفعل لم يستغرق الأمر أكثر من دقائق وأتاح لنا الحارس الدخول، قبـل أن يغلق البوابات دعاه «حمدي» وانزوى به جانبًا ليخبره بشـيء ما، كذبة ما لا أعلمها لكنها كانت الإشاره المتفق عليها، لم يكن بمرمى بصري سوى الباحة الأمامية شـبه المظلمة للمصحة، لا تعزيـزات أمنية أخرى.

لمحت النظرة الخاطفة بعين «حمدي» الذي كان يقف في مواجهتي، فأطلقـت سـاقيّ للريح بأقصى قدر ممكن من الهـدوء، مبتعدًا عن البوابة والرجلين.

مشطت عيناي جنبات الباحة، بدأت أجمع الاحتمالات وأضربها في رأسـي، ثم اتخذت طريقي راكضًا إلى أقصى اليسـار؛ لأنه كان أكثر عتمةً مـن باقي المبنى، كما أن الهواء الآتي مـن هذه الجهة يحمل رائحة غريبة منفـرة؛ لذا خمّنت أن هذا الجانب إما يحوي مخزنًا قديمًا، أو مراحيض، أو مكبَّ نفاياتٍ من نوعٍ ما..

هـذا من شـأنه نبذه خارج بـؤرة الاهتمـام الأمنية، وكان هـذا «كعب أخيل» بالنسبة لي.

* * *

لم أصطدم بكينونة بشـرية إلا حين عبرت الباحة المشجرة، متجاهلًا خلف المراحيض المغلقة - والتي نظرت لها فخورًا لأنني كنت محقًّا - وصولًا إلى واجهة زجاجية متربة أغلقت بقضبان حديدية سميكة، وباب صغير بائس يحرسه كتلة مفتولة في لباسٍ رسمي أزرق.. ها قد عثرنا على الحارس الموكل بالبناء!

بالطبـع كان هنالـك غيره فـي الجهـات الأخـرى للمبنـي طالمـا أن المصحة خاصة وليسـت حكوميـة، صحيح أن الوضـع الأمني متدنٍّ هنا مقارنة بأماكن عديدة أُخرى تحظى برعاية خمس نجوم، لكن المبنى كبير بالفعل كي يحرسـه رجـل واحد.. لهذا لم أُغير وجهتـي، وقررت اختبار حظي هُنا؛ طالما أنا مُضطر إلى الاحتكاك بحارس ما في كل الأحوال.

كعادة أي رجل أمن مصري، كان الحارس منشـغلًا بحشـو سـيجارة ما، ورائحة الشـاي تفوح من كوب صغيـر إلى جـواره، لتختلط الرائحة بتشـوش صـادر عـن مذياع يبـث أشـياء لا معنى لهـا، لكنه قطع سـكون ووحشة الليل.

قبعت أرضًا مسـتغلًا انثناء جداري يتيـح لي الاختباء، ومراقبة الرجل في الآن ذاته، وانتظرت.

لنقـل إن الحـارس البائس هُنا منذ منتصف الليـل تقريبًا، أي في ذات الوقـت الذي تغلق فيه أبواب المبنى، سـابقًا حاول المسـؤولون إعطائي الانطبـاع العـام عـن أن هـذا المكان علـى درجة عالية من الرُّقـي، كونه

مؤسسة خاصة؛ لذا بكل تأكيد هذا التهاون الذي يُمارس أمامي الآن من شاي، ومذياع، وسجائر – الله وحده يعلم ما بها – غير مسموح به.

الحارس لم يبدأ جلسته «السهاري» تلك إلا مُنذ ساعة أو نصف ساعة على الأرجح، بعد مُغادرة ذوي الشأن، أعد عددًا لا بأس به من أكواب الشاي بالطبع؛ لأن كوبًا واحدًا لا يكفي كي تنتشر الرائحة المركزة في الهواء بهذه الطريقة، لفافة التبغ بين أصابعه هي الأولى لأن لا رائحة تبغ بالجو ولا أعقاب سجائر فوق الملاط الرمادي..

ساعة من الجلوس، مع عدد من أكواب الشاي، ورغبة مُميتة في التدخين، كانت معادلة بسيطة ذات استنتاج واضح: الرجل سينهض إلى الحمام، حيث يمكنه الراحة من عبء الجلوس والشراب، وتدخين لفافته دون إثارة استياء أو شبهات حوله..

هُنا ستأتي فُرصتي الوحيدة..

وفقًا لهذا انتظرت دون كلل مستغلًا الوقت في مُراقبة المُحيط حولي، حتى سمعت أخيرًا احتكاك الكرسي المعدني بالأرض، وخطوات أقدام تلاها جسد يُصفِّر، عبر جواري دون رؤيتي متجهًا إلى المباني الخشبية ذات الرائحة المُقززة.. ربّاه كم أُحب كوني على حق!

ابتسمت برضا، وانتظرت قليلًا حتى اختفى الحارس، ثم انطلقت إلى وجهتي، وأنا أرجو ألا أجد الباب الصغير مُغلقًا، وبالفعل لم يكن مُغلقًا،

فأدرت المقبض، وأخيرًا وجدت نفسي في الداخل، كان الطريق مفتوحًا أمامي للمرةِ الأولى.

* * *

تبعت الطريق المتعرج المكسو بالرخام الرمادي عبر الباب باحثًا عن سلالم تقودني إلى قاعة الاستقبال بالمبنى؛ لأنها كانت الطريقة الوحيدة للعثور على مكتب كبير الأطباء هُنا، والذي بدوره كان منفذي الوحيد إلى السجل الكامل الخاص بالمريضة «يمنى».

خلو هذا الجزء من المبنى كوَّن بعقلي نظرية أن المصحة مبنية على أُسس مستشفى قديم، أو مجمع عيادات ارتأى المسؤولون أنه أكبر مما يجب، فقاموا بإغلاق هذا الجانب لحين استخدامه يومًا ما، وأهملوا كل شيء بخصوصه ماعدا حراسته بالطبع.

كانت الممرات مقبضة، الإضاءة الفلورسنتية ضعيفة ومشتتة بين بقايا الحجر الرمادي الظاهر من بين الرخام المتساقط، سواء على الجدران أو الأرض، الحجرات أيضًا بدت مهجورة، يحوطها العفن وأعشاش العناكب والحشرات مع كمٍّ هائل من التراب.

تفاديت النظر إلى داخل الحجرات ذات الأبواب المفتوحة كي لا ينتابني الذعر، لكن الشعور بأن المكان كان مستشفى قديمًا زرع فيَّ رعشة باردة سرت بطول عمودي الفقري.

هذه الحجرات المهملة شهدت في يوم ما أنينًا، ألمًا، أملًا ويأسًا في آنٍ، ورُبما موتًا كذلك، طالما تساءلت إن كانت المشاعر تبقى محفوظة

داخل حجرات المستشفى بين شراشف الأسرة بعد أن يغادر ساكنوها، أيمكن للقماش الأبيض تخزين الألم؟ هل بوسع حجارة الجدران الصماء الاحتفاظ بصدى صرخة، أو نداء يائس، أو صيحة فرح؟ أظنني حصلت على الجواب في هذه اللحظة.

لم أكن وحدي في هذا الممر، كانت ترافقني روائح ومشاعر ليست ملكًا لي، لم أكن هنا حين اندلعت للمرة الأولى لكن صداها تردد بالممرات الفارغة لوقتٍ طويل حتى أتيت وشعرت به أنا، رُبما بهذه الحجرة إلى جواري بالذات، كان مريض بائس يتأمل السقف منتظرًا الخروج بفارغ الصبر، السرير أصبح كومة من الحطام، لكنه حمل جسدًا يومًا ما، الله وحده يعلم إن كان قد غادر، أم كانت هذه الحجرة محطته الأخيرة.

حين استغرقت في أفكاري تلك، مرَّ بخاطري الهدف الذي التحقت من أجله بسلك الطب النفسي أصلًا، العقل البشري بئر قرارها مغارة من سراديب ودهاليز يعجز أي كائن عن استطلاعها كافة، لوقت طويل أسرتني الكيفية التي يتفاوت بها رد فعل بعض الأشخاص تجاه ذات الموقف، عشقت كون العقل أسطورة مُتغيرة طوال الوقت، وأغرمت بعطر المشاعر التي يطلقها، كونها متنوعة، وغير قابلة للتنبؤ أثار جنوني.

على عكس العديد من زملائي لم يكن الربح المادي هدفي، الطب النفسي منبوذ في مصر على أي حال، كان مكسبي الحقيقي هو كم القصص والعوالم التي يمكن أن يقطعها كل عقل بشري، الخيالات التي

لامسها المشاعر، والواقع الذي تؤمه الانفعالات، أن يتم إشراكي بهذه الخبرة التي مر بها عقل غير عقلي، كان هذا مكسبًا لا يُقدر بمال.

* * *

قطعت حبل خيالاتي عنوة حين وصلت إلى الدرج أخيرًا، كان أعلاه مضيئًا؛ لذا علمت أن الجزء المهجور من المبنى قد انتهى إلى هذا الحد، وعليَّ الآن الوصول إلى المكتب دون الاصطدام بأحد الممرضين أو الأطباء الباقين في المكان.

اعتليت الدرج شاعرًا بأنفاسي تتسارع حتى وصلت إلى الممر بالجانب الآخر، والذي كان - على عكس ما تركت بالأسفل - حيويًّا، وحسن المظهر، ويفوح برائحة المُطهرات.

سمعت أصواتًا مكتومة تأتي من خلف الأبواب، وامتد الممر أمامي لينتهي بواسطة سلم ومنطقه ذات سور يطل على جدار ضخم به عدد لا بأس به من النوافذ، كانت هذه واجهة المبنى، إذن عليَّ اتخاذ طريقي عبر الممر، ثم الالتفات يسارًا على ما أذكر حيث سأجد سلمًا مغطًى بالسجاد الأزرق الداكن يقودني إلى الطابق الخاص بالعاملين، في نهاية الطابق مكتب الطبيب الأعلى حيث وجهتي.

انتظرت دقائق، المصحة ليست مهجورة بالتأكيد، وإن حاولت التسلل الآن، فسأصطدم بأحد ما في طريقي، سواء كان عاملًا، أو طبيبًا، أو ممرضًا، ألقيت نظرة خائفة حولي وانكمشت قليلًا.. حتى أتى الفرج.

سمعت صوت «حمدي» الجهوري يصيح من أسفل، حتى في مكمني هذا كان بوسعي سماع السب المفتعل والغضب بنبرات صوته، ابتسمت رغمًا عني، حين يرغب «حمدي» في الانفعال فلا أحد ممن أعرفهم يملك حسًّا دراماتيكيًّا أكثر منه.

تأكدت أن خطة «حمدي» ناجحة حين عبر من أمامي زوج من ذوي المعاطف البيضاء، تبعه عاملون فضوليون، سمعت أقدامًا أخرى لكنني لم أرَ أصحابها، «حمدي» - بصرخاته - كان يجذب الأحياء من المبنى نحو الأسفل كالذباب، لا أحد يمكنه مقاومة متعة مشاهدة شجار، خاصة لو كان شجارًا بين رجل أمني وطبيب.

شعرت ببوادر راحه تتسلل إلى نفسي، فتقدمت.

بالفعل بدأتُ رحلتي داعيًا الله ألا أصطدم بمشاكل أنا في غنى عنها، لم أرَ أحدًا في طريقي حتى وصلت إلى السلالم، مرَّ مُمرض، ثم اثنان بباقي الطريق، لكنني كنت أنكمش جوار الجدار أو بين الأبواب إذا ما واجهت أحدًا حتى أطمئن إلى أنه عبر، ثم أستكمل طريقي.

بالطبع لم يغب عن ذهني التساؤل عن الحجرة التي تسكنها «يُمنى»، تُرى أي هذه الأبواب تقود إلى الفتاة النائمة؟ انتابني فضول للبحث لكنني لن أفتح بابًا بابًا للبحث عنها؛ لذا ضحكت من الفكرة الطفولية، وقد وصلت أخيرًا إلى وجهتي.

كان المكتب مُغلقًا كما توقعت، وكما توقعت أيضًا كان مفتاحه داخل الخزانة الزجاجية، الباب جوار مكتب آخر خاص بالعاملين، النظام يظل

ذات النظام في كافه المؤسسات المصرية، وكما في الجامعة كان مفتاح الخزينة فوقها، وجدته حين بحثت بيدي وضربات قلبي تتسارع، كانت أصابعي ترتعش حين أدرت المفتاح في الواجهة الزجاجية، وحين أخذت مفتاح المكتب، وحين دخلت إلى المكتب أخيرًا، وأغلقت الباب خلفي، ازداد ارتجاف أطرافي وشحب لونها.

كانت الملفات في الأدراج الحديدية تنتظر مني أن أتقدم فقط وأبحث بينها، بيد أنني لم أتقدم، بل انتظرت إلى جوار الباب غير قادر على الحركة، وللمرة الأولى مُنذ أقدمت على المغامرة أتساءل عن دافعي أصلًا. لا أنكر أن فضولي كان يتعاظم كلما طال حديثي مع «يُمنى»، لا أنكر أيضًا أن رغبتي في معرفة مَنْ تكون هذه الفتاة، وسبب احتجازها هُنا رغم أنها - من الواضح - بتمام قواها العقلية.

كان رفض المسؤول - والذي علمت من اللوحة على مكتبه أنه يُدعى حسن قدري - إمدادي بالمعلومات بمثابة الشعلة الأولى على ما أظن، ألهبتها «يُمنى» بحديثها المتزن، وأسئلتها الغريبة، كان عليَّ أن أعرف مَنْ هي هذه الفتاة، ولماذا كل هذا التستر على كينونتها، أخذت نفسًا عميقًا، وتقدمت نحو الأدراج باحثًا عن ضالتي.

* * *

الساعة تخطت الرابعة فجرًا، بدأت خيوط الشمس الأولى تخدش الظلام عابرة من بين فتحات النوافذ المُغلقة، كان عليَّ أن أكون في سريري الآن، في منزلي الآمن، نائمًا أو أحتسي القهوة، وأبحث بين

أوراقي، لكنني عوضًا عن هذا كنت أركض كالملسوع بين الممرات محاذرًا - على قدر الإمكان - أن يصدر مني صوتٌ يدل على وجودي.

لا أحد مر في طريقي، الممر فارغ، سواء كان هذا بسبب «حمدي» أو لأن الدور فارغ من الأساس، لم أرَ أحدًا، الحجرة - كما علمت من الملف - كانت منعزلة إلى حدٍّ كبير عن باقي المبنى أو باقي الحجرات، كيف ولماذا؟ لا أدري، ليت كل شيء في الحياة يسير بمنطقية، لكن منطق الحياة هو اللا منطقية.. لذا رأيتها فرصة، ومن دون تفكير اغتنمتها.

الغرفة رقم (29)، كان عليَّ إيجاد الغرفة الآن، لم أكن أهتم بما سيحدث لاحقًا، أو كيف سأخرج من هُنا دون اكتشاف أمري، كان عليَّ إيجادها فقط، هذه الحسناء ذات الثلاثة والعشرين ربيعًا المُسماة «يُمنى»، كنت خائفًا لكنني أرغب في إيجادها، كانت الومضات الكهربية المصدومة تصعق خلايا عقلي، وكنت أرغب في الصراخ، لكن بدلًا من أن أركض إلى خارج المكان، كنت أركض باحثًا عن غرفتها، الأمور أصبحت عقلانية بشكلٍ جنوني الآن.

حديثها المُتزن رغم أنها محتجزة بمصحة عقلية، كراهيتها للبشر التي تحدثت عنها ببساطة، تقييدها في المقعد، كل القطع وضعت في نصابها الصحيح مُنذ اطلعت على الملف قبل عشر دقائق لأكتشف أن هذه الملاك ليست قادمة من الفردوس لتعاني بين البشر، بل هي ساقطة من الجحيم لتحط بذنوبها فوق رأسي، لعنة الله عليك يا «حمدي».. فمن بين كافة المرضى لم تجد إلا قاتلة لتكلفني بالحديث معها!

أما عن السبب الذي دفعني إلى الركض إليها وليس منها في هذه اللحظة، فلا أدري ما هو، وكأن عقلي امتلك إرادة مُستقلة، ورغب في البحث عن إجابات لا الهروب، لم يكن بوسعي إنهاء كل شيء بعلامة استفهام كبيرة.

«يُمنى» قاتلة، على عكس الملف شبه الفارغ الذي تم تسليمه لي، كان ملف «يُمنى» في المكتب محشوًّا بقدر مرعب من المعلومات، والصور، والأوراق بخط اليد، وأشياء أخرى لم أجد الوقت الكافي لرؤيتها كلها.

طالبة هي، في الثالثة والعشرين من عمرها، تم تشخيص حالتها على أنها «هوس اكتئابي حاد»، و«شيزوفرينيا»، و«نوبات عنف»، و بعض الإضافات الأخرى التي لم أرها من قبل مجتمعة في ملف لشخص واحد، لم أرَ أيًّا من الأعراض التي كُتبت على أرض الواقع، لكن مَنْ قال إن المجانين يتحركون ويتحدثون دائمًا كالمجانين؟

بجوار صورة «يُمنى» أُلصقت صورة أخرى صغيرة لشاب يقاربها في السن، ليس أحد أفراد عائلتها كما يبدو، لكن لم أحتج لكثير من الخيال لأخمن أن هذا مَنْ كانت تتحدث بشأنه، هذا هو «أدهم».

لِمَ ترافق صورته صورتها في الملف؟ ليست لديَّ فكرة، الملف حمل بعض الخطابات الصغيرة بخط اليد التي كتبتها «يُمنى» بنفسها وتوقيعها يوجد أسفلها، كتبتها لكنها لم ترسلها، بالإضافه إلى ورقتين أو ثلاث من حجم أوراق الطباعة كُتبت عليها بخط مرتجف قصة عن ثلاثة حملانٍ

وامـرأة في الصحراء، قرأتها وعجزت عن اسـتخراج معلومة مفيدة منها، بدت كتدوينات المجانين بالفعل.

صدمـة أخرى وجدتهـا في الملف تدعى «الشـروع فـي القتل»، كان ذلك أحد أسباب احتجازها هنا، «يُمنى» قتلت شخصًا أو عدة أشخاص.. مَـنْ ولماذا؟ بخـل الملف عليَّ بتلك المعلومات، لكـن آخر ما دُوِّن كان مفاجأة أخرى، الفتاة لم تُعتقل وتُرسـل إلى هنا، بل احتجزت نفسـها في هذا المكان بكامل إرادتها، و بناءً على رغبة شخصية منها!

إذن هـي أتت إلى هنا باختيارها، لكن بقاءها كان نتيجة لإقدامها على القتـل، كيـف قتلت وهي محتجزة داخل مصحة؟ علامة اسـتفهام أخرى كبيرة..

علـى الأقل هذا يُفسـر كون باب حجرتها الـذي وصلت إليه من دون أقفـال، لكـن هـذه علامة اسـتفهام وحيـدة زالت مـن بين ركام الأسـئلة الأخرى التي وجب عليَّ طرحها، ولزم عليها أن تجيب.

حيـن دلفـت إلى الداخل وأنـا أغلق الباب خلفـي كان ظلام الحجرة قـد ذاب فـي بدايـات إشـراق اليـوم الجديـد، الضـوء الخافت يسَّـر لي رؤية الجسـد المسـتلقي فوق الشراشـف البيضاء تتوسـد ذراعها البض، وخصلات السـواد تتناثر إلى جوار وجهها صانعة هالة من البراءة خطفت أنفاسي للحظات.

رغمًا عني ارتفع لتران من الدم الحار إلى وجهي بينما انخفض الباقي من الدماء عن عقلي لأتسمَّر غير قادر على التقدم، أو التراجع، أو

إبعاد عيني عنها، مشاعر عديدة تدافعت داخلي لم يكن الغضب السابق أحدها، وودت أن أخرج على الأقل حتى أستعيد أنفاسي، لكن تنهيدة صغيرة ندت عن الفتاة بالفراش ثم انسل الجفنان عن عينيها ببطء لترى الدخيل العاجز عن الحراك المتمثل في شخصي.

ماتـت تعبيـرات وجهها فعجزت عن اسـتخلاص انطباع محدد منها، لكـن لـم يكـن لي أن أذهـب الآن، فـات الأوان علـى الذهـاب، تقدمت بقدميـن مـن عجين لأجلس على الكرسـي المقابل لسـريرها، واعتدلت هي بدورها جالسة دون أن ترفع عينيها الناعستين عني.

كانت ترتدي ذات الرداء الأبيض البسيط الذي رأيتها به للمرة الأولى فبـدت بالفعـل كمـلاكٍ صغيـر هشٍّ اسـتيقظ تـوًّا بين كومة من السـحب القطنيـة متسـائلًا عن الوغد الذي انتزعه عائدًا إلـى أرض الواقع، أبعدت عينيَّ وقد شـعرت باحمـرار وجهي، وتمنيت أن يسـاعد ضـوء الحجرة الخافـت على ألا تلحظ ما ألـمَّ بي،كانت مجنونة، قاتلـة، لكنها لا زالت - للأسف - فتاة.

همسـت «يُمنى» بصوت مسموع، وأزيز السرير إثر حركتها يصل إلى سمعي دون بصري:

- ستقع بالمشاكل بالمناسبة.

كان هـذا أغـرب تعليق توقعته؛ لـذا عاودت النظر إليهـا دون إرادتي، كانـت قد التقطـت معطفًا صغيرًا من مكان ما جوارها واضعـة إياه فوق كتفيها؛ فأصبح النظر إليها أكثر راحة، كانت تبتسم فأجبت:

- أردت الحصول على إجابات.

- ولم تُطق الانتظار حتى بعد غد؟!

- مَن قتلتِ يا يُمنى؟

أفلت لساني السؤال فجأة، فانمحت الابتسامة من فوق شفتيها، وإن لم تتحول إلى غضب أو دهشة، بل ظل وجهها خاويًا، تطلعت إليَّ فنظرت نحوها كي ترى ما بعينيَّ من اتهام، أردتها أن تعرف أنني رأيت الملف دون أن أضطر إلى الحديث والتفسير، على ما يبدو أنني نجحت في هذا؛ لأنها تحدثت بصوتٍ حياديٍّ:

- عجزت عن الانتحار يا أحمد، فقدت الرغبة في مخالطة الناس، في الحديث، في الوجودِ ذاته؛ لكنني ظللت عاجزة عن الانتحار، عاجزة عن إيجاد الإرادة لشرط يدي، أو ابتلاع الدواء.. الرغبة كانت تصرخ داخلي حتى أصمتني، لكن الإرادة ظلّت تأبى المجيء، بكيت وتضرعت إلى الله أن ينهي حياتي، توسلت إلى جسدي ليتوقف عن العمل، كنت أبكي حتى أفقد القدرة على التنفس وأسقط غائبة عن الوعي، لكنني ظللت عاجزة.. إنهاء حياتي كان مهربًا تمنيته.. لكن ظل بعيد المنال.

تسارعت أنفاسها، وانقبضت يداها فوق الملاءات التي اكتست بضوء الفجر، هذه هي المرة الأولى التي تدعوني فيها بـ «أحمد» بدلًا من دكتور، كانت تحدثني لشخصي، وليس بصفة رسمية، لا أدري إن كانت

فعلت هذا لكسب ودي، وحثي على التراجع، أم لا إراديًّا، لكنني لم أرفع نظري عنها في كل الأحوال، وبقيت عيناي المسمرتان فوق وجهها مطالبان بالإجابات.

- حين فشلت في التحمل أو الانتحار، لم يعد أمامي سوى مهرب واحد، طريق واحد انبسط أمامي وكان عليَّ سلوكه.. الاختيار كان رفاهية فقدتها مع كل شيء فقدته آنذاك.

* * *

4 يوليو 2013
من تفريغ لتسجيل الجلسة الثالثة

«قيل إن عالم الأحلام ليس مُجرد تخاريف ينسجها عقلنا الباطن حين يكف عقلنا الحاضر عن العمل، بل هو عالم برزخي آخر، موازٍ لعالمنا، يغادر وعينا إليه فيعيش، ويشعر، ويتحرك، ويُسافر، ويتفاعل مع حياة مُختلفة قُدِّر له أن يحياها ولو لساعات قليلة كل يوم.

كنت هُناك، حييت هُناك حياة لم يكن لي يد في تحركاتها، لكنني شعرت بكل تفاصيلها، هُناك فقط تمكنت من السفر بحرية والاستلقاء أسفل أشعة الشمس، أو بين الأمواج، علقت بخصلات شعري ندفات الثلج، وارتفعت صافرة القطار فوق رأسي بينما أستند إلى زجاج مقصورتي الدافئة التي كانت تنطلق كل مرة إلى مكان مختلف أحيا فيه حياة مُختلفة لا علاقة لها بتلك التي عشتها في ليلة سابقة.

في الأحلام فقط ضحكت وصرخت من قلبي، كان يعتريني الخوف أحيانًا، لكنني كنت قادرة على دحره، امتلكت القوة لسحب ذاتي بعيدًا عن موضع الأذى كلما استشعرت خطرًا ما يتربص بي.

امتلكت كافة المفاتيح، وكنت حرة للمرة الأولى؛ لذا انحسرت حياتي لفترة طويلة بين النوم والاستيقاظ لتأدية عملٍ ما على مضض، ثم العودة إلى النوم من جديد.

في هذه الفترة توقفت عن البكاء أخيرًا، ليس لأنني شعرت بالسعادة، بـل لأنني تمكنت مـن إغلاق جُلّ مشـاعري تجاه الكون بأسـره، لم تعد الآلام تبكيني، كمـا لـم تعـد الأفراح تسـعدني، رائحـة الزهـور والعطر عجـزت عن اسـتثارة أي مشـاعر من أي نـوع داخلي، عندمـا أجلس إلى عائلتي لنطالع فيلمًا ما، أو إلى زميلاتي للحديث عن شخصٍ ما، لم يكن الفضـول يأكلنـي، لـم يعد قلبي يخفق، كنـت أراقب دون إبـداء رد فعل، ليس تعاليًا ولكن لأنني أصبحت خاوية من ردود الأفعال.

ما عـدت مضطرة إلى ارتـداء قناع اجتماعي للتواصـل مع الآخرين، وتحولت أنا ذاتي إلى قناع، قشـره تبتسم، تدرس، تتحدث، تساعد، تقوم بأعمالها الروتينية.. لكنها تظل قشرة.

بمـرور الوقت أدركت أن غاية أمانيَّ قد تحققت، أصبحت ميتة، فقط في العالم الآخر وعلى الجانب الآخر من جدار النوم كُنت أُبعث؛ لأحيا حيـاة نبذتها بعالـم أصبح مجرد دُمى تتحرك فوق مسـرح إلـى أن تنقطع خيوطها أو تبلى.

من حين لآخر كان «أدهم» يزور أحلامي، كان مرحًا كعادته، يحدثني ويجالسـني لنمزح أو نطلق النـكات، أحيانًا كنا ننطلق معًا إلى مغامرة ما، أو نتبادل النظرات فقط دون حديث وكل منا يدور برأسه ما يدور، شعرت بـدفء يده بين أصابعي، تحدثنا دون قيود لدقائق وحتى سـاعات، نهلت من ابتسامته الصافية كثيرًا فارتويت، لم تكن زياراته تطول لكنه كان يترك بداخلي شعلة، حين يقارب لهبها الخمود يعود ليوقده من جديد.

كان ملـكًا لـي في أحلامي على عكس الواقع، لـم يؤلمني، لم يرغب في إيذائي، لم يتخلَّ عني أو ينبذني، كنت فتاته بحق لا بقايا مهمشـة من كائن بشـري اعتاد أن يعرفه حتـى ملّه، وانطلق باحثًا عـن غيره غير مهتم وغير مستعد للاهتمام.

فـي بدايـة الزيارات تلك كنت أسـتيقظ حاملة كمًّا هائلًا من السـعادة التي تذبل شيئًا فشيئًا باكتمال عودتي إلى عالم الواقع، من ثم كنت أبكي، أتذكر كل مساوئ حياتي دفعة واحدة وأبكي حتى أحترق.

صديقتـي القديمـة زلزلـت عالمـي لفتـرة طويلـة، زادتهـا المشـاكل وأعبـاء الحيـاة، لكنـه حين أتى.. أتى مـع وعد غير شـفهي بحياة أخرى، أضـواء تومـض مـن حيـنٍ إلـى آخر، وأسـس تدعمنـي، أعتمد عليـه قلبًا وقالبًا، توجسـت فـي البداية لكننـي تركت له الزمام ليقـود حياتي خارج المستنقع.

بالفعـل سـاعدني، منحني ما أردت دون أن يطلب شـيئًا يصعب عليَّ تقديمـه، لم يتخطَّ الرايات الحمراء، بل اكتفـى بما قالته عيناي وحدثه به لسـاني، ارتويت من عذب حضوره وتجرأت أخيرًا على اسـتقبال ما قيل عنه إنه «الحب» إلى داخل أسوار قلبي.

ثم ذهب، هكذا ببسـاطة ذهـب دون مُقدمـات، دون مبررات، ودون إخطار سابق.

عجزت عن الاستيعاب في بداية الأمر لكنه لم يمنحني حتى حقي في الفهم، في البداية ظننتها وسوسة شيطان رجيم، وظننته سيعود، انتظرت عودته، ألَمَّ بي التعب والألم لكنني انتظرت، خشيت الإلحاح كي لا أخسره إلى الأبد، ورضيت بالانتظار الصامت.

لكن بدا من الواضح أنه لن يعود، وأنه لم يعد لديَّ مكان بعالمه الذي أصر على بنائه من دوني، كنت أرتدي حلة البرود، ثم ارتديت لباس الرضا، لكن عالمي الذي كان قد شارف ركبه على الرسو انهار بالكامل، ودفعة واحدة.

غرق كل شيء أسفل ركام من الألم واليأس، غصت عائدة، ليس إلى الهوة التي وقعت بها سابقًا، بل أعمق، أعمق، حتى لامست يداي لُب النهاية، تفتحت كافة جراحي وسالت منها أنهار الأمل، والحب، والسعادة؛ لتتجلط خارج جسدي دون رجعة.. كرهت العالم، وكرهت أرواح البشر النتنة.

لم أرَ العالم أسود اللون، بل أحمر، أصبحت مُحاصرة بين أنياب الشفق للأبد، غير قادرة على العودة إلى حيث تشرق الشمس، أو الهرب إلى مغربها.

مِن الشفق وُلد طريق البرزخ، وفي برزخ الأحلام حصلت على الشروق، والغروب، والميلاد، والموت، والبعث؛ لذا لم أعد أبكي حين أستيقظ، لم أعد أحترق حين تراودني هموم الزمن الزائل.

عشت بين نوم واستيقاظ فنوم آخر، وددت لو طال حتى يبتلعني فلا أعود إلى تيه الواقع مرة أُخرى، في لحظة ما بدا كل شيء مثاليًا، وفي اللحظة التالية أفلتت الدفة من يدي، سكنت آمنة إلى عالم الأحلام حتى اكتشفت أن الشفق منحني – فقط ورغم تنوع أحلامي – الشروق وملحقاته، لم أكن قد رأيت الوجه الآخر منه بعد، بدأ فجر الغروب الذي تملكني في يوم وليلة السلاح، لإعادة ملء القناع الذي تركته خلفي في أرض الواقع ومضيت..

ففي إحدى الليالي.. بدأت الكوابيس..

* * *

الفصل السادس

توقفت «يُمنى» عن الحديث بغتةً، وتحرَّكت عيناها نحو الباب، تشبَّعت الحجرة بضوء الشمس البارد المميز لبداية النهار، فبدت عيناها المذعورتان أوضح، التفتُّ بدوري نحو الباب، أصخت السمع، ثم نهضت مذعورًا.

لوهلة كنت قد نسيت أين أنا، أو الموقف الذي وضعت نفسي به، لكن الإدراك صفعني فور أن سمعت وقع الأقدام خارج الحجرة، نظرت إلى «يُمنى» الصامتة برعب، واتجهت إلى الباب غير عالم أعليَّ الاختباء أو الخروج هاربًا؟ تبعتني الفتاة بهدوء، وارتكزت بأذنها قرب الباب كي تلتقط صورة أوضح لما يحدث في الخارج.

مرَّ العابر قربنا، لكنه لم يتوقف، بل واصل طريقه متجهًا إلى مكان ما، وسرعان ما اختفت الأصوات ليحل الهدوء في الممر مرة أخرى، كنت على وشك التنفس براحة أكبر لكن يد «يُمنى» أطبقت فوق معصمي لينساب صوتها متوترًا:

- سيأتي بعد دقائق، عليك أن تذهب الآن.

لم تدع لي مجالًا للتساؤل، ففتحت الباب وأطلّت برأسها للخارج، ثم عادت إليّ قائلة:

- اذهب رجاءً.

لم أحصل على إجابات، ما زلت ضائعًا دون إجابة عن سؤالي الذي أتيت هُنا - أصلًا - من أجله، خدعتني «يُمنى» بحديث لا رأس له ولا ذيل، وها قد انتهى الوقت دون أن أستشف ما رغبت في معرفته بعد.

وكأنها قرأت ما يدور برأسي، قالت:

- سنلتقي يا أحمد، لنا لقاء آخر..

تركت معصمي وتراجعت للخلف كي تقطع خط النقاش فلم أجد بدًّا من المغادرة مُسرعًا، استغرق الطريق إلى الخارج ضعف الوقت الذي احتجته للدخول. كان «حمدي» قد ذهب، وعاد العاملون إلى عملهم، لكن من حسن حظي أن هذا الوقت من النهار كان أبكر من أن يهتم الجميع بعملهم كما هو مفترض منهم، الأغلبية كانوا نائمين، أو يتبادلون وردياتهم، فُتح الطريق أمامي من جديد سواء بفعل حظي أو بفعل القدر.. تيسير غريب لم أفهم مغزاه، لكنني خرجت أخيرًا، ووقفت أمام المبنى ألتقط أنفاسي، وبالرغم من أن الأمور جرت على ما يُرام، إلا أنني كنتُ عاجزًا عن الشعور بالراحة.

عبرت الطريق إلى الجهة الأخرى دون أن أجد بداخلي الرغبة في العودة إلى المنزل الآن، كانت الساعة قد تخطّت السادسة صباحًا،

وبدأت الشوارع تمتلئ بالمتثائبين، التفتُّ ناظرًا إلى المبنى، غُرفة «يُمنى» التي في الجهة الأخرى؛ لذا لم أرها، لكن تحديقي استمر.

بِمَ كنت أفكر؟ لا أدري! لا أعلم حتى لِمَ بقيت قرابة نصف ساعة أحملق في المبنى الكامن خلف الأسوار، انتابني شعور ممرض بالرغبة في العودة إلى الداخل، إلى حُجرة «يُمنى»، لكن في الوقت ذاته حثني عقلي على الفرار، ليس خوفًا منها، بل خوفًا من ذاتي.

* * *

- ألن تأكل شيئًا؟ أي شيء؟

قالتها «مريم» بقلق وهي تعقد يديها بشدة أمامها فوق المنضدة، على ما أظن بدَا مظهري بائسًا؛ لأنها كما توقعت من قوة عقدها لأصابعها معًا، كانت تمنع نفسها من تربيت كتفي، واكتفت برجمي بنظرات إشفاق، لم أجبها، بل أسندت ذقني إلى ذراعي وأنا أطلق صوتًا شبيهًا بـ «همممم.. مممممف..مم»، دون أن أصغي بجدية لأيٍّ مما تقول.

كنت قد قضيت الساعات الأربع الماضية أحرق بواقي قطعة من الـ «مورو» اشتريتها كنوع من الإفطار، الشيكولاتة الداكنة أعادت بعض الطاقة إلى خلاياي العصبية، لكن أربع ساعات من الـ «سرمحة» غير الهادفة في الشوارع كانت كفيلة بضياع قدرتي على التركيز مرة أخرى.

اتصلت بـ «مريم» حين دقَّت العاشرة لأخبرها بأنني راغب في لقائها في أي مكان للإفطار، انتابها الذعر كالمعتاد كلما هاتفتها، فبقيت صامتًا

حتى انتهت نوبتها واستفسرت إن كانت قادمة أم لا، أخبرتني أنها ستخبر والدتها أولًا ثم تعيد الاتصال بي.

تثاءبت ثم ابتسمت ببلاهة أفزعتها، فرفعت يدها تدير أصابعها بطرف حجابها، وهي تضغط على جدار فمها بأسنانها، كانت متوترة ولا ألومها، لكنها مَنْ وافقت على الخطبة من غريب أطوار، ليست هذه مشكلتي، مر بنا النادل فألقيت نظرة تائهة نحوه قبل أن تتحدث «مريم» مرة أخرى:

- أحمد.. ما بك؟!

اعتدلت ناظرًا إليها لأجيب بإهمال:

- لا شيء يا مريم، أنا على ما يرام.

لم تعقب هذه المرة، بل أبعدت عينيها عني، وفتحت حقيبتها بعنف لتعبث بمحتوياتها، ظننت أنها تبحث عن مال لتدفع الحساب وتنهض، لكنها أخرجت مرآة نسائية صغيرة، ووضعتها أمام وجهي:

- هل يبدو لك هذا على ما يرام؟!

تجاهلت الوجه الشاحب، والعينين المنتفختين اللتين طالعتاني في المرآة، وفتحت فمي كي أنظر لأسناني، ثم بجدية علّقت:

- كان عليكِ إخباري بأن بقايا بار الشيكولاتة ما زال عالقًا بأسناني يا مريم.

هنا بدت خطيبتي التعيسة على وشك الانفجار، فسارعت بالابتسام:

- أنا أمزح.. هوّني عليكِ.

- هل لي أن أعرف ما بك؟ رجاءً؟

- مُتعب من العمل.

- مُنذ متى لم تنم يا أحمد؟

- منذ يومين على ما أظن.

- حقًّا!

ارتفع صوتها وهي تنطق بكلمتها الأخيرة، وبدت في عينيها نظرة حنق حارقة فقلت:

- اسمعي! أنا أواجه بعض المشاكل في عملي، اعتدت هذا.. لا تقلقي.. سأكون بخير.

- هل لي أن أعرف ما هي تلك المشاكل؟

- لا..

أتى صوتي صائحًا دون قصد، وانتبهت لهذا متأخرًا، كان وجه «مريم» قد امتقع وتراجعت بمقعدها مبتلعة ما ترغب في قوله، وقد أشاحت بنظرها بعيدًا عني، شعرت بالاستياء كوني أهنتها بهذه الطريقة، فاستجديتها بنبرة حاولت جعلها أكثر هدوءًا:

- مريم، أنا آسف.. لم أقصد أن...

قاطعتني دون أن تنظر إليّ:

- لِمَ اتصلت بي؟!

توقف الكلام بحلقي بغتةً، وشعرت بغصة، فالتفتت إليّ مُتابعة:

- أنت لا ترغب في الحديث إليّ، لِمَ اتصلت بي إذن؟!

- لا تهوّلي الأمور يا مريم رجاءً.

- هل يُشعرك إغضابي بالسعادة أو بشيء من هذا القبيل؟

ألقت بجملتها عابثة بأعصابي، ولم ترغب بالتوقف، شعرت بالغضب رغم كوني أعلم أنني المخطئ، وأنني أُعاملها ببرود وسخافة لا تستحقهما، لم يكن لها ذنب، والخطأ خطئي، تابعت الصياح بي:

- أنت غريب الأطوار، طوال الوقت، بارد حتى حين نخرج في لقاء من المفترض أن يكون عاطفيًا يا أحمد، وأنا لا أشتكي، لا تجدني أشتكي صحيح؟

- مريم.. رجاءً..

- لكن حين تتصل بي، وتدفعني إلى الشجار مع والدتي كي أخرج، ثم تجلس أمامي على هذا النحو، وكأنني مَنْ فرضت وجودها عليك...

صمتت دون إكمال جُملتها، كان الصداع برأسي في هذه اللحظة لا يُحتمل، فأخفيت وجهي بين يديّ غير قادر على الشجار، لم أكن أراها، لكنني سمعت أنفاسها تتسارع دون أن تهدأ ثورتها:

- أنا أدرك أن لديك مشاكل، وأن لديك ضغوطًا، لكنك ترفض إشراكي في أي شيء يخصك، أنت دائمًا مُنغلق، دائمًا تُفكر وحدك وكأن عقلًا إضافيًا سيفسد ترتيب أفكارك، ثم تأتي لتصب كل هذا فوق رأسي، وكأنني السبب في المصائب التي تقع بها..

- أنا آسف..

قلتها بضيق دون أن أبعد يديّ عن وجهي مُحاولًا احتواء النبضات التي كانت تمزق رأسي، كنت أعلم أن جل ما تقوله صحيح، كانت تتفوه بالحقيقة المجردة التي لا أرغب في سماعها، لا أدري إن كان هذا كبرياءً، أم عنادًا، أم غباءً، لكنني كنت مستعدًا لأسلمها كافة ما أملك من مالي، ومنزلي، وكُلْيَتي اليُسرى لو أرادت، فقط للتوقف عن رشقي بكلماتها تلك.

- أنا خطيبتك يا أحمد.

قالتها بغضب عارم، فعقبت تلقائيًا:

- أجل.. أعلم.

- أنت مَنْ أتيت لخطبتي بكامل إرادتك.

رغبت في قولها صراحة أن «حمدي» هو المُتسبب بـ«تدبيسي» في هذه العلاقة، لكنني قررت الصمت..

- هل لديك مشاكل صحية تحاول إخفاءها عني مثلًا؟ أم تورطت بمصيبة ولا تعلم كيف تتصرف؟ هل تتعاطى شيئًا ما؟ أهذا سبب تصرفاتك؟

هُنا عجزت عن احتمال المزيد فصحت:

– حبًّا بالله يا يُمنى توقفي عن التفوه بمثل هذا الهراء.

أخيرًا توقفت عن الحديث، صمتت تمامًا، وتركت لي الفرصة لاستنشاق الهدوء الذي حرمتني منه لمدة لا أظنها تقل عن الساعة، اعتقدت أنها أفرغت بوتقة غضبها لذا صمتت، لكن حين رفعت وجهي معاودًا النظر إليها بدت الصدمة التامة على وجهها، وتعبيرات لم أتمكن من فهم سببها إلى أن قالت:

– أنا أُدعى مريم يا أحمد.. ولست يُمنى.

* * *

نادرة هي تلك الأوقات التي أطلب فيها عون أحد، أو ألجأ إلى أحد لمساعدتي في تخطي الأزمات التي تؤرق حياتي الخاصة، ليس كبرًا بل هو أقرب إلى رغبة بعزل حياتي عن عبث الآراء الخارجية المتناقضة.

لكنني في هذا اليوم وبعد أن غادرت «مريم» غاضبة فكرت في أن ألجأ إلى «حمدي»، لا كرفيق يمتلك سلطة، بل كصديق قديم أظنني بت أحتاج إليه الآن، لم أنتبه حين نطقت باسم «يُمنى» أمام «مريم»، لم ألحظ حتى أن هذا قد حدث إلا حين نبهتني هي، قضيت نصف ساعة أحاول نفي الاتهامات التي رمتني بها حتى غادرت لاعنة إياي دون أن تُصدق حرفًا واحدًا مما قلت، وهذا حقها طبعًا..

خطرت لي فكرة الاستعانة بـ«حمدي» بينما كنت أغادر المقهى عائدًا إلى منزلي الهادئ أخيرًا، لكن العودة إلى «حمدي» الآن تعني أن

عليّ استعادة ذكرى كافة ما حدث في المصحة منذ أن تركت الرجل قرب البوابات إلى أن غادرت، «حمدي» سيرغب في معرفة أقل التفاصيل أهمية وأنا ليس بوسعي تقديمها الآن، ليس وأنا في هذه الحالة؛ لذا آثرت منزلي ووحدتي، عُدت إلى الهدوء والظلام داخل جدراني المألوفة، وارتميت على الفراش، وقد نجحت خطتي في استهلاك طاقتي بالكامل كي لا أعاود التفكير، لا في مريم، لا في العمل، ولا في «يُمنى»، بقيت في الشارع طوال هذه المدة لأنني علمت أن وجودي وحدي سيدفعني لضرب احتمالات، وصُنع سيناريوهات أنا في غنى عنها الآن.

رحبت بأيادي النعاس التي سحبتني شيئًا فشيئًا نحو الأسفل، استرخيت وتركت عقلي يعيد ترتيب نفسه دون أن آبه به، أنا في فراشي الوثير، ملاذي الآمن، حيث لا يمكن لغضب أو صراخ أن يعكر صفوي، لا أحد يصرخ في أحلامي؛ لذا أنا في طريقي إلى النعيم.. أخيرًا، بوسعي اعتباره يومًا وانتهى، بإعادة التفكير لا داعي للذهاب إلى «حمدي»، لا داعي للاستعانة بمن يطرح أسئلة أكثر مما يجيب، أحتاج فقط للغوص أعمق الآن، وسيصبح كل شيء على ما يرام.

كنت في طريقي إلى الهرب، الهرب.. الـ...

انتبهت وقد تبخَّر الخمول عن جسدي فجأة، «ما هذا الذي أقول؟ أي هرب ؟!»، اعتدلت جالسًا ثم صفعت جبهتي بباطن يدي، وقد اقشعر جسدي، نهضت ركضًا نحو الحمام لأغرق وجهي بالسائل النقي البارد القادم من الصنبور، عليَّ التوقف عن التفكير بهذه الطريقة، لا ليس عليَّ

التوقف، بل عليَّ فقط منع عقلي من الربط بين ما أفكر فيه وما قيل سابقًا داخل الغرفة البيضاء الصغيرة بالمصحة.

لكن لماذا؟ استندت إلى المغسل مفكرًا، مِمَّ أنا خائف فعلًا؟ من التأثر بكلمات «يُمنى»؟ أم من كونها على حق؟

للمرة الثانية حدَّقت بشفرة الحلاقة الصغيرة في الكوب البلاستيكي، أنا عاجز عن الانتحار، ماذا عن الإيلام إذن؟ الألم غير المميت، الجرعة الأدنى منه، لِمَ أخشاه، هو شعور كأي شعور آخر فلِمَ أخشاه إذن؟

التقطت الشفرة بين أصابعي، رغمًا عني ارتجفت أناملي وأنا أحدق في المعدن، قربتها من باطن يدي، لم أكن أنوي الانتحار لكنني أردت اختبار ذاك الشعور الذي وصفته «يُمنى»، الموت حيًّا، إلغاء كافة المشاعر داخلي، ليس للأبد لكن ماذا لو تمكنت من تجميد مشاعري لحظيًّا حين أصاب بالغضب؟ الإحباط؟ اليأس؟

إن تمكنت من التغلب على مشاعري، توجيهها أو حذفها، سيذهب التفكير الزائد، سيصبح ذهني أكثر صفاءً ربما، سأصبح أقوى.. في تلك اللحظة شعرت أن إيلام نفسي والتغلب على شعوري بالخوف انتصار، ليس جنونًا بل انتصارًا.

تنفَّست بعمق، ثم مررت الشفرة بيد ترتعش فوق الجلد الشاحب، وبَّخت نفسي حين اكتشفت انني غير قادر على ضغط المعدن بالقوة الكافية ليتسبب بجرح، نظرت لانعكاسي شاعرًا بالضعف، ها هو شعور آخر يتملكني، شعور أسوأ من الأول، هم يأتون مجتمعين، لا شعور يأتي فرديًّا.

الشعور التالي سيكون الغضب، يليه الإحباط، ثم محاولة إقناع نفسي بالنسيان.

مددت يدي لألقي بالشفرة بعيدًا لكن لوهلة، ثانية واحدة فقط، كان بوسعي إلغاء شعوري، لا أدري إن كان هذا اندفاعًا أم جنونًا مؤقتًا، لكنني قبضت على المعدن بقوة وضغطته فوق يدي.

الآن أو لا للأبد.. إما أن أفعلها الآن أو أبقى هاربًا من ذاتي للأبد.

وفعلتها، اجتاحتني لسعة من الألم فألقيت بالشفرة المعدنية أرضًا، وأنا أراقب خيط الدماء السائل من باطن يدي، لم يكن الجرح عميقًا لكنه كان موجودًا.. شعرت لحظيًّا بلذة انتصار غريبة عليَّ، فعلتها..

حين سمحت لعقلي بالانغماس في التفكير عجزت، وحين أطلقت له العنان أقدمت على فعلتي دون تردد، ابتسمت لكن ابتسامتي سرعان ما حل محلها الخوف، اشتد الألم بالجرح حين انتبهت له فوضعت يدي بالكامل أسفل تيار ماء بارد آتٍ من الصنبور الصغير أمامي.

زال الألم لكن الخوف بقي، أطلقت العنان لعقلي لحظيًّا فتمكنت من جرح يدي، ماذا لو لم يكن فك القيود هذا لحظيًّا؟ ماذا لو أتت تلك الشرارة في غير وقتها؟ إلى أي مدى سأتمادى؟

تراجعت مبتعدًا شاعرًا بالذنب، تلاشى انتصاري فجأة وبدأ عقلي يضج بأفكار مختلفة.

كنت غبيًّا حين دخلت إلى المكان عنوة باحثًا عن الملفات، لا أعلم حتى لِمَ أقدمت على هذا، لكن المغامرة انتهت، أردت معلومات وحصلت عليها، لديَّ خيط يمكنها إكماله في اللقاءات القادمة، أنا طبيب نفسي، يجب أن أتعامل كطبيب نفسي، هناك حد للفضول من الأفضل أن أتوقف عنده، يكفي أنني أفسدت الأمر مع «مريم»، الله وحده يعلم كيف سأتمكن من إصلاح الوضع بيننا.

ما حدث كان إشارة لي «أن توَقَّف»، تخطيت خطًّا أحمر كان يجب ألا أتخطاه، ما زال بوسعي العودة والانتظار خلف الخط إلى أن أحصل على تذكرتي، وأمضي دون أن أُعرض نفسي لتساؤلات، كان عليَّ الاكتفاء

لكن.. كنت - في الواقع - عاجزًا تمامًا عن إخراجها من عقلي.. أو التوقف عن التفكير بها.

* * *

تجعَّد وجه «حمدي» عن نظرة مُشمئزة للمرة الرابعة، وهو يتجرَّع كوب الشاي البارد مصدرًا أصوات بلع مقززة دفعتني لإبعاد نظري تجاه كومة الأشجار خارج المقهى، حيث ثلاثة أطفال يعبثون بما بدا - من موضعي هذا - كقطٍّ ميت.

- إذن أنت تركتها تذهب دون اعتذار؟

كان «حمدي» يتحدَّث عن «مريم» بالطبع، وضع كوبه ودون اكتراث لكوني على وشك الحديث، استدار صائحًا في صبي المقهى أن يحضر

له كوبًا آخر من الشاي الثقيل ذاك، من مكان ما خلفي داعبت خياشيمي رائحة دخان الشيشة المعبق بشذا التفاح، طالما حملت كراهية دفينة لهذا الاختراع البربري، لكن رائحته تأسرني لسببٍ ما، انتظرت قدوم الصبي حاملًا صينية ارتكز عليها كوب الشاي كي لا تتم مقاطعتي مرةً أخرى، قبل أن يذهب الفتى نظرت إلى ساعتي التي أعلنت أننا تخطينا التاسعة مساءً ببضع دقائق، وأن موعد عودتي إلى المنزل حيث شيطان الأفكار ينتظرني.. ستطول قليلًا بعد.

أجبت حمدي قائلًا:

- أخبرتك أنها لم تدع لي الفرصة، كَذَّبَت كُل ما قلت وذهبت.

- لا ألومها.

رمقت تعبيرات وجهه الممتعضة بضيق لأتابع:

- لكنني شرحت لها، ماذا بوسعي أن أفعل أكثر؟

أطلق «حمدي» صوتًا اعتراضيًّا ليقول:

- رُبما عدم ذكر يُمنى كان ليُساعد!

صحت ملوحًا بيدي:

- الطم؟! يا حمدي لم أقصد.. أقسم برحمة والدتك التي كنت أكرهها أنني لم أذكر اسمها عمدًا، ماذا عليَّ أن أفعل؟! أقوم بتركيب فلتر بين رأسي ولساني؟!

- أنت طبيب نفسي.. وهذا الفلتر يجب أن يوجد أصلًا.

عجزت عن الرد، فأشحت بوجهي من جديد شطر الأطفال العابثين بالجيفة جوار الشجر، صاح الرجل بالطاولة جوارنا وارتطمت أحجار النرد بطاولته الخشبية، صمت رفيقي للحظات، راجعت نفسي حينها وشعرت أنني كنت مخطئًا حين رويت كل شيء بالتفصيل - عدا حديث «يُمنى» - لـ «حمدي».. أخيرًا قال بفمٍ ممتلئ ببقايا الشاي:

- أوقف بحثك ودعِ الأمر لي.

- ماذا تعني بـ «دعِ الأمر لي»؟!

حرَّك كتفيه وهو يترك الكوب متلمِّظًا بالسكر العالق بفكه:

- سأعيد لك حالتك القديمة بطريقة ما، وسنذهب لمصالحة مريم وسأشهد معك أن يُمنى هذه لا شيء سوى حالة كنت تتابعها، ثم ستترك هذه المرأة المجنونة وراء ظهرك للأبد، وتعاود حياتك الطبيعية.

كان هذا حلًّا مثاليًّا فعلًا، لوهلة انحلت العقد، وبدا أن الأمور ستعود لنصابها الصحيح، بوسع «حمدي» تتويج القول بالفعل، كنت على حق حين طلبت مساعدته، لكن وجدت نفسي أجيب:

- لا..

رمقني بنظرة غريبة، فبادلته النظر:

- لا.. سأعتذر إلى مريم وسأحاول إصلاح الأمور.. لكن لن أترك الحالة.. سأكملها.

- لا تكن غبيًّا يا أحمد.

- لست غبيًّا يا حمدي.. اسمع...

قاطعني بصوتٍ أجش:

- أحمد.. اسمع أنت! لقد طلبت مساعدتي، وها أنا أقدمها، يُمنى عقبة في حياتك، وبوسعي مد يد العون لك كي تزيلها، لن يؤرقك الأمر مرة أخرى، وستتمكن من إكمال التقرير على شخص آخر.

- يا حمدي اسمع فقط..

- أحمد! بعد ما حدث البارحة عليك أن تتوقف عن متابعة هذه الحالة، ستصاب بالجنون، بدأت أظن أن على حسن قدري هذا احتجاز كليكما في المصحة لا هي فقط، أنا أمنت لك الدخول والاطلاع على ما ترغب، القليل من الجنون يؤمن لك النجاح، لكن الكثير من الجنون قاتل، وأنت بدأت تتخطى الحد الفاصل.

فتحت فمي للاعتراض لكن عجزت عن الرد، كنت أعلم أن ما يقوله «حمدي» صحيح، من جديد هو على حق، لكنني جلست عاجزًا، عاجزًا عن التفكير أو اتخاذ القرار، عاجزًا عن التقدم أو التراجع، لم يكن بوسعي التفكير بحيادية بعد الآن، شعرت بأنني أنزلق إلى هوة لن تقتلني لكنها ستسحق قدرتي على وزن الأمور بالعقل أو المنطق.

من جديد أتى صوت «حمدي» ناصحًا:

- اتركها يا أحمد.

- لا أستطيع..

صحت بالجملة الأخيرة كي أُنهي النقاش، التفت عدد من الرؤوس نحونا لكن هذا كان غير مهم، ظل «حمدي» يُحدق فيَّ بنظرة خاوية حتى اضطررت لخفض عيني نحو أظافري التي تعبث بخشب الطاولة المُتآكل.

- لماذا؟!

قالها «حمدي» بصوت حاول جعله حياديًا، لكنني استشعرت نبرة الاتهام، أردت الرد والدفاع عن نفسي، لكنني عوضًا عن هذا نهضت، شكرته على الوقت الذي منحني إياه وذهبت قبل أن يعترض.

* * *

تمنيت أن تُمطر السماء، رفعت رأسي نحو الستار الأسود الذي انسدل فوق الكون بكامله، وتمنيت أن أشعر ولو للحظة بزخَّات المطر فوق وجهي المحتقن، سرت مخلفًا ورائي صديقي، والمقهى، والشارع، والطريق إلى منزلي؛ لأخطو في شوارع لا أعلم عنها شيئًا سوى أنها تحوي زحامًا أقل، ومساحات مفتوحة أوسع.

على عكس ما شعرت به طوال اليوم، أدركت أنني لا أحتاج إلى عون بشري، بل إلى الاختلاء بنفسي لبعض الوقت، كانت وتيرة حياتي تمضي بسرعة، دفعتني للهاث كي ألحق بها، ثلاثة أيام فقط هي جُل ما مضى مُنذ بدأت تلك القصة المُتعلقة بـ«يُمنى» والتقرير، بدت الأيام الثلاثة دهرًا ما زلت عاجزًا عن حصره إلى داخل عقلي الفاني.

«يُمنى» ليست مريضة، هذا أثق فيه، هُناك مَنْ يتجرَّع الواقع المرير كاملًا دفعة واحدة، وهنالك مَنْ يتذوقه كأسًا تلو كأس، كلاهما عاقل لكن الفارق الوحيد هو أن الفئة الأولى يعجزها الألم فتلجأ إلى الصراخ عوضًا عن الكتمان.. هكذا كانت «يُمنى»، تصرخ بعد أن ملَّت الكتمان، لتستجدي التفهم من مجتمع كامل تمثل في رجل واحد فقط، ألا وهو.. أنا.

كان بوسعي الهرب مُنذ دقائق فقط، أكاد أتنبأ بما ستؤول إليه حياتي إن فعلت، لست أفضل الأطباء، لكن «حمدي» كان سينتقي لي مريضًا سهل التعامل معه كي أضمن التقرير في جيبي، سأتصالح مع خطيئتي بعد ذلك.. «مريم» حمقاء، سطحية، تمقت عملي لكنها تحبني، «غلبانة» كما يقولون، ستتقبل عذري ولن يمنعها هذا من مراقبتي لبعض الوقت، لكنها ستمل في النهاية وتعود علاقتنا إلى طبيعتها الروتينية.

رُبما في الغد القريب أيضًا - بعد نجاحي في التقرير - سأحصل على الشهادة والمنحة التي أبتغي، أبشر أهلي في القرية قبل أن أغيب فترة، ثم أعود محملًا بما يظنه الأهل كنوز سليمان، ومصباح علاء الدين، وبساط سحري أحمل فوقه عروسي إلى عش الزواج كي أنتقل من حياة العزاب إلى القفص الذهبي الذي سأخرج منه إلى قبري.

سأرزق بأطفال، أحدهم سيكون مختلًّا بما يكفي ليعلن أنه يرى مستقبله في مجال الطب النفسي، ستلطم «مريم» خديها وسأنهره أنا بصرامة زاعمًا أن المجال لا يلقى رواجًا، وأنه بهذه الطريقة يُلقي مجموع الثانوية العامة، وتعب سبع سنوات من الدراسة في المراحيض،

سيأبى ابني طاعتي، وسيغادر المنزل ليستقل بحياته، لكنني سأعجز عن الاستمرار في غضبي منه، وتحت ضغط من زوجتي سأصالحه، وسيحاول إثبات جدارته لي بنجاح منقطع النظير في عمله.

ثم سيأتي القدر المحتوم بعد أن شاب مفرقاي، وفقدت أغلب أسناني ومعها قوتي وولعي بالحياة، سأقضي اللحظات الأخيرة فوق فراش دافئ، وقد اجتمعت عائلتي حولي، فقط لأتذكر حينها فتاة عرفتها منذ زمن طويل، فتاة كان اسمها «يُمنى» وسط عالم نبذها ونعتها بالجنون، كان أملها رجلًا واحدًا لم تطالبه بإنقاذها، بل بالاستماع إليها فقط..

لكنَّ هذا الرجل أدار ظهره لها.. تركها ومضى..

* * *

الفصل السابع

فور أن عبرت الأبواب الزجاجية المنزلقة إلى البهو، ألَمَّ بي شعورٌ ممغصٌ، والتوت معدتي في نزق، تباطأت في المشي حتى تهدأ العاصفة أسفل حجابي الحاجز، ثم توقفت جانبًا سامحًا للعاملين بالمرور من جواري، وقد قررت الاستناد إلى الجدار لعدة ثوانٍ إلى أن تزول الغمة.. لكن قراري تم إحباطه من قِبل طبيب شاب ذي شارب ونظارتين «كعب شفشق» أتى مُسرعًا نحوي بابتسامة لزجة، لم أتعرف الرجل، لكنه على ما يبدو كان يعرف تحديدًا من أنا لأنه ما إن وصل إليَّ حتى قال بصوتٍ مبحوح:

- دكتور أحمد، دكتور حسن يرغب برؤيتك.

أرغمت معدتي على كتمان صيحة اعتراضية لأتساءل دون أن أتحرك عن السبب، فهز الرجل رأسه بمعنى أنه «لا يدري»، وتطوع باصطحابي فمضيت خلفه متوجسًا.

خلال رحلتنا القصيرة بين البهو والمكتب اتضح أن الشاب رفيقي يتميز بمستوى علمي متدنٍّ، شخصية نرجسية فارغة، وكمًّا مهولًا من السماجة، على الرغم من أنه عجز عن إجابة أيٍّ من الأسئلة التي استوقفه

زملاؤه يستفسـرون عنها متسببًا لي في رغبة عارمـة بصفعه، إلا أنني في الواقـع كنت ممتنًّا لـه؛ لأن محطاته اللحظية كانت تسـمح لـي بالوقوف وإعطاء فرصة لمعدتي كي تتوقف عن هضم نفسها.

كنـت مدينًا له باختفاء الرغبـة في التقيؤ عند وصولي إلى مكتب مدير المصحة، أخيرًا غادر الكائن السمج ودخلت المكتب فاستقبلني الطبيب كبير السن بالترحاب الرسمي المعتاد، وأشار إليَّ لأجلس، دعوت ألا يكون اللقاء بخصوص زيارة أول أمس واستُجيبت دعواتي؛ إذ بدأ حديثه قائلًا:

- كيف يسـير الأمر معك يا دكتور أحمد؟ أنت موصى عليك من جهات عُليا..

ضحك بلزوجة، فابتسمت بغباء ليُتابع حديثه مُتجاهلًا إياي:

- سمعت أن يُمنى تتحدث إليك بحُرية، دعني أخبرك أن هذا مُفاجئًا نظرًا لحالتها العقلية.. أنا مُنبهر!

- حالتها العقلية؟!

عجـزت عن البقاء صامتًـا لفترة أطول فنطقت بالجملـة محملًا إياها أكبر قدر ممكن من الاحتقار، لكن ألم معدتي حوَّل صوتي إلى حشـرجة متقطعة، فظن الرجل على - ما يبدو - أنني قلق، واستغل الفرصة:

- آه.. أجـل.. فتاة مسـكينة، لديهـا رغبة غير مبررة في العنف.. مسـكينة كان علينـا اتخاذ إجراءات احتياطية كونها سـتبقى معك بذات الحجرة لفترة طويلة.

- حرّكت رأسـي دون تعبير محدد كي أمنع نفسـي من إطلاق ردٍّ مستفز رائع:

- أعطيناهـا مُهدئـات خفيفة كي نتمكـن من إطلاقها بحريـة في الحجرة اللقاء الماضي.

هذه المرة قاطعته بحدة:

- ليست حيوانًا بريًّا كما تعلم.

- عذرًا؟!

- «أعطيناهـا مهدئـات كـي نتمكن مـن إطلاقهـا؟».. تبدو كمـا لو كنت تتحدث عن كلب مسـعور، وليس فتاة في العشرينيات حجزت مكانها بنفسها في المصحة الخاصة بك يا دكتور.

ضغطت على آخر مقطع من جملتي وأنا أنظر إليه مباشرة، كنت أعلم أنها مُبادرة غبية قد توقعني في مشـاكل أنا في غنى عنها، لكن طريقته في الحديـث أثارت أعصابي فلم أجد بدًّا من حـرق أعصابه بدوري، رمقني بنظـرة نارية، فحدَّقت فيه بهـدوء، أطلقت عيناه اتهامًـا صريحًا لي: «إذن اطلعـت على الملفات أيها الحقير!»، فأجبت بنظرة ذات مغزى: «أجل.. وستظل عاجزًا عن إثبات أنني فعلت»..

اسـتمرت حرب الأعين مستعرة لفترة، ثم أشاح بوجهه أخيرًا ليعبث بأوراق فوق المكتب، وقد تجاهل ما حدث ليعاود متابعة حديثه المسموم وكأن شيئًا لم يكن:

- حدثنا مجلس المسؤولين بشأن يُمنى، اجتمعنا وقررنا أن وجودك معها طوال هذه الفترة يشكل خطرًا عليك وعلى حالتها، لن نتمكن من تحمل مسؤولية إصابة شخص خارجي بمكروه تحت سقفنا.

رفع رأسه ليرمقني بنظرة المنتصر، فتسمرت أنتظر الجملة التالية حتى قال:

- لذا قررنا تخفيض فترة اللقاء إلى نصف ساعة ابتداءً من الجلسة القادمة.

قمت صائحًا:

- قررتم ماذا؟!

ظل يرمقني ببرود فتابعت:

- بأي حق تتخذ مثل هذا القرار؟!

- كما قلت لك.. هذا قرار مجلس الـ...

- «يولع» المجلس!

صحت بها وصدري يعلو ويهبط بعنف، التوت معدتي مُجددًا، لكنني تجاهلتها قابضًا على شفتيّ بأسناني كي أمنع نفسي من استكمال الصياح، جذب الصوت العالي انتباه أحد العاملين في الخارج، فدلف إلى الحجرة متسائلًا عما يحدث، طمأنه الطبيب بذات البرود، قائلًا إنني على وشك المغادرة، اعتدلت وحدجته بنظرة شيطانية، ثم غادرت المكتب متجهًا إلى حجرة اللقاء وأنا اعتزم وضع حدٍّ لهذا الهُراء.

كانت لعبة قدرات إذن؟ حسنًا، هذه اللعبة يُمكن أن يلعبها اثنان.

* * *

6 يوليو 2013
من تفريغ لتسجيل الجلسة الرابعة

«هذه المدينة أعرفها، آلفُ تلك الأبنية العالية ذات الشرفات القديمة، الحجر الأبيض المزخرف والنوافذ الطويلة للغاية حتى لتحسب أنَّ قومًا عمالقة هم مَنْ سكنوا هذه البيوت قبل زمن بعيد وليس إنسًا مثلي ومثلك.

كانت الشوارع هادئة، والحواري القاتمة تمتد بين العمائر كسراديب بين القبور، لا يكسر ظلمتها إلا عمود إنارة صدئ هنا أو هناك، يصنع هالة برتقالية شحيحة الضوء فوق الأرض وواجهات المباني الصامتة، لم يكن هنالك بشر، لا بشر على الإطلاق، لا أصوات، ولا محال مفتوحة، ولا عابرين.

كافة النوافذ كانت مُغلقة، كافة الأبواب كانت مُقفلة، كافة النجوم في السماء المُعتمة كانت منطفئة، وكأن المدينة بالكامل كانت.. ميتة.

فقط أنا كنت هُناك، أعلم هذا المكان، رغم أنني لم أره في حياتي، استأنس عقلي المشاهد المُقبضة لواجهات المباني الحجرية المارة بطريقي، لكن قلبي كان منقبضًا، شعرت بالذعر والألفة في الوقتِ ذاته،

رغبت في إبعاد وجهي عن نافذة السيارة، والتوقف عن مُراقبة المشهد المار بالخارج، لكنني لم أكن أرغب في رؤية مرافقيّ فبقي الحال على ما هو عليه.

كنا ثلاثة داخل العربة الصغيرة التي تقطع الشوارع شبه المظلمة في ثبات، أنا المنكمشة في الأريكة الخلفية الصغيرة، واثنان في المقعدين الأماميين، أضواء الخارج التي تسطع داخل السيارة من حين إلى آخر بينما نعبر جوار عمود إنارة لم تنجح في تبديد الظلمة التي غلفت مرافقَيّ، كانا مثل «سيلويت» بشري جالس في الأمام، لا شيء سوى جسد وسواد شعر، دون صوت، أو وجه، مجرد كتلة، أظنها، لبشر.

لا أدري إلى أين كنا ذاهبين، لم أرَ ملامح للطريق أمامي، بدا كما لو كان يمتد إلى ما لا نهاية، شعرت بالخوف والبرد، أردت سؤال الجالسين عن وجهتنا لكن ثِقل توجس مرعب كان يجثم فوق صدري مانعًا إياي من الحديث.

كنت مستسلمة، خائفة.. لكنني مستسلمة، شعرت بالأبنية العالية تُحاصرني وتمنعني من رؤية ما خلفها، طريقي كان يأخذني أبعد فأبعد عن المنزل، وعن كل ما ألفته سابقًا، مرافقاي كانا يُضمران لي شرًّا لا أعلم ما هو لكنني أستشعره، رغم كل هذا كان عقلي يحدثني أن لا شيء بيدي، ليس لديَّ خيار سوى الاستسلام.

أغلقت عينيَّ عن مراقبة الطريق لثوانٍ، بضع ثوانٍ فقط ثم عاودت فتحهما، هذه المرة لم أرَ أبنية، أو طُرقًا، وهبّت رائحة اليود المالح عبر

النافذة لتصفع أنفي ماحية أي شعور لديَّ سوى الذعر، أدرت عينيَّ نحو مقدمة السيارة، وصرخت ما إن رأيت إلى أين نتجه.

علت صرختي حين انتهت الأرض الصلبة أسفل العجلات، لم يكن هنالك شاطئ نرسو إليه، لا سور يحميني، انتهى الطريق فجأة دون حواجز لتسقط مقدمة السيارة ومعها قلبي بسرعة مهولة نحو الماء البارد.

توقف قلبي عن الخفقان فور أن غصنا نحو الأسفل، ظل الماء خارج السيارة لكن السواد اعتصرني حتى أصبحت غير قادرة على التقاط أنفاسي ناهيك عن الصراخ، كنت أندفع نحو الأسفل محاصرة بقبري المعدني، أغرق دون ماء، دون مجال لطلب الغوث، كنت ببساطة.. أموت.

تحرَّك الجسدان بالأمام للمرة الأولى، وعلى عكسي تمكنا من الصراخ، ضربت أيديهما الأبواب والنوافذ بهستيريا محاولين الهرب، أدركت أنهما لا يرغبان في الهرب فعلًا، وأن كل ضربة توجه إلى الزجاج هي بغرض دفع عقلي لتسليم الروح لا أكثر، إلى أين الهرب؟ لم يعد هنالك سطح نسبح عائدين نحوه، لن يتم انتشالنا من هنا، رحلنا من قبر واسع إلى قبر أكثر إحكامًا فقط.. سنموت.. حتمًا سنموت.

ولم أمت..

لأن اللحظة التي توقفت فيها أنفاسي، وأحكم اليأس قبضته حولي، وجدت وعيي يندفع بعيدًا، يندفع مسحوبًا بقوة ما إلى الخلف، لم أعد

في السيارة، كنت أبتعد، أهرب، سمعت توسلات رفيقيّ، كانا يمدان أيديهما نحوي في محاولة للإمساك بي، وكأن لمسي سيسحبهما معي إلى الخارج، كان بوسعي إخراجهما، داخلي علمت أن بوسعي مد يدي ومساعدتهما، لكنني لم أفعل..

لم أعد داخل السيارة أو خارجها، وجد وعيي القوة الكافية لينسحب بعيدًا عن مصدر الخطر، وكان بوسعي الآن العودة إلى بر الأمان، لكن بقيت قليلًا.. رغبت في مشاهدة ما يحدث، أردت رؤيتهما يصرخان قليلًا، يختنقان ثم يكتنفهما الموت، راقبت لحظات غرقهما بقلب مرتعد لهول المشهد، لكنني لم أفكر ولو للحظة في مد يد العون.

تشفيت لرؤيتهما يلاقيان المصير ذاته الذي رغبا بوضعي فيه، كنت أنظر من الأعلى، أبتسم عالمة أن توسلاتهما كانت موجهة إليّ، إلى تلك التي اقتاداها إلى حيث تلقى حتفها دون تردد، ها قد دارت الدائرة الآن..

رؤية نظرات الاحتضار والشعور بروحهما تتحرران لتتركا جسدين خاويين ميتين أصابتني برعبٍ دام جزءًا من الثانية فقط، تلاه - وعلى عكس ما توقعت - شعور آخر.. ارتجف له بدني أيما ارتجاف.

أدركت أنني لم أعد خائفة، الموت الذي راقبته لم يخنقني بالألم إلا للحظة فقط، بعدها تبخر تاركًا إياي بصحبة شذا غريب عبر أنفي كسرابٍ هاربٍ من حلم.

انفصلت عن العالم، عن الأحداث وعن كل شيء رأيته أو فعلته الدقائق القليلة الماضية رغمًا عني، وغبت داخل دوامة رقيقة من اللذة حبكها حول روحي الشذا الغريب ذاك.

كان حلوًا، منعشًا، كرذاذ النعناع وسط قطرات المطر، دافئًا كمستخلص زهرات الفُل، شذت منه نسمات كندف ثلج في ربيع أخضر فلم تزده إلا حلاوة، عانقني، تغلغل إلى روحي، ثم انبعثت، ذاب واختفى لما ظهر تاركًا إياي في حالة من التذبذب تلاها إحساس عميق بالنشوة.

* * *

استيقظت في فراشي صارخة، جذب صراخي والدتي وأختي من الحجرات المجاورة، فانتهكتا خصوصية مخدعي مذعورتين، ظنّت أمي أن مكروهًا قد أصابني، وركضت أختي إلى الخارج، ثم عادت حاملة كوبًا من الماء البارد.

رأيت قسمات والدتي المذعورة، وأردت طمأنتها أنني بخير، لكنني كنت عاجزة فعلًا عن الحديث أو الحراك، ما زالت أنفاسي تتسارع وضربات قلبي تصنع صدًى بأذنيَّ اللتين ابتلّتا بقطرات عرق انسابت من بين خصلات شعري المبعثر.

بعد قليل هدأت، تناولت كوب الماء وطمأنت أمي أنني رأيت كابوسًا فقط، أنا على ما يُرام، سأكون بخير، لكنها لم تقتنع، صرفت أختي

وأصرَّت على المبيت بجواري هذه الليلة.. كنت أضعف من الاعتراض، لذا تركتها تتوسد الفراش بجواري واستلقيت بالجهة الأخرى ساهمة.

استغرق الكابوس نصف ساعة فقط، اكتشفت هذا حين نظرت إلى مؤشر المنبه فوق المكتب، نصف ساعة عبرت بها إلى مكان أعرفه ولا أعرفه، غرقت، كدت أموت ثم بُعثت..

ارتجف جسدي مرتين، حين تذكرت الذعر الذي انتابني عندما سقطت في الماء، وحين عاودتني ذكرى الرائحة الغريبة التي تلت نجاتي، كانت حقيقية، الكهرباء المشتتة بأعصاب ذراعي، ورأسي، وعمودي الفقري، أخبرتني بأن تلك الرائحة كانت حقيقية.. مثلها مثل الشعور الذي اعتراني فور استنشاقها.

أغمضت عينيَّ، وحاولت استحضارها، لكنني عجزت، تمكنت من جلب اللحظة التي سبقتها، والأخرى التي تلتها لكن لحظة الحدث ذاته ظلت بعيدة عن متناولي، استسلمت بعد عدة محاولات فاشلة، وقررت أخيرًا النوم من جديد..

رُبما.. رُبما فقط، أشتم الشذا الملائكي مرة أخرى.»

* * *

أغمضت «يُمنى» عينيها مفضلة الصمت، كانت أنفاسها مُتسارعة كأنفاسي تمامًا في تلك اللحظة، والأسباب لم تختلف كثيرًا، حاولت إجبار عقلي على تخيل ما روته لكن قدرتي كانت تتوقف عند اللحظات

الأخيرة قبل استيقاظها، وبدأت أشعر أن قصتها ستتخذ منحنًى آخر بعد البال؛

- يُمنى أرجوكِ أخبريني أنكِ لم تحاولي إيذاء نفسك فقط كي تستعيدي ذاك الشعور..

قلتها بقلقٍ، فابتسمت الفتاة:

- كنت سأفعل لكن اتضح أن إيذاء نفسي للأسف ليس أداة الاستحضار الصحيحة.

- يُمنى...

قلتها بقلق فراقبتني صامتة، فتحت فمي ثم أغلقته، فتحته من جديد لكنني عاودت إغلاقه مُستسلمًا وأشرت لها كي تستكمل الحديث:

- بدأت تتأكد أنني مجنونة.. صحيح؟

قالتها ضاحكة بنعومة، فابتسمت بمرارة:

- للأسف.. لا.

انتابها السكون للحظات، ثم استكملت حديثها بوتيرة أبطأ هذه المرة:

«لأنها المرة الأولى كان من الطبيعي أن يظل الكابوس مُسيطرًا على فكري طوال الأيام التالية، في الجامعة، وفي المنزل، حين أكون وحدي وحين أجالس الآخرين، لم يبدُ عليَّ تغير سوى أنني أصبحت ساهمة أكثر، وأقل حديثًا، فلم أُثر العديد من التساؤلات.

لم يبدأ التساؤل عن حالتي العقلية إلا بعد أن زارني الكابوس الثاني عقب أسبوع تقريبًا.

هذه المرة تعرَّفت على المكان فورًا، كنت في شقة جدتي القديمة، لم تكن لديَّ فكرة عن كيف أتيت إلى هنا، أو ماذا أفعل تحديدًا، لكنني كنت خائفة، كنت أرتجف ناظرة حولي دون أن أعلم السبب، كانت الشقة هادئة تمامًا لكن كنت أعلم أن شيئًا سيئًا على وشك الحدوث.

أنت تعرف هذا الشعور الغريب يا أحمد، بأنك على وشك أن تختبر كارثة من نوعٍ ما، تدرك حجمها لكنك في ذات الوقت تعجز عن تفاديها، لديك المعرفة الكافية لتتفاداها لكنك مسيَّر، هكذا كان شعوري، امتدت غرفة المعيشة أمامي مُضيئة ومرتبة كما عهدتها، الكراسي على الجانبين، المكتبة الخشبية وجهاز العرض القديم فوقها في مواجهتي، على اليمين ممر تأكدت أنني لن أدخله لأن حجرة النوم على اليسار كانت وجهتي.

الليل جعل ظلام الحجرة حالكًا، لكن الشرفة المفتوحة كانت تُرسل أضواءً خافتة تحملها الستائر المتحركة إلى الداخل، سرت إلى هناك ينساب الهواء البارد حولي مع كل خطوة تقربني من الشرفة، الهدوء حولي كان قاتلًا، والصرخات داخل عقلي كانت أشد فتكًا، اليقين بأنني أقترب من «شيء ما مُهلك» جعل ساقيَّ ترتجفان، لكنني واصلت التقدم إلى أن وصلت إلى سور الشرفة الحديدي، ولمست المعدن البارد بقبضتي.

في هذه اللحظة فقط تحرر عقلي، ضوضاء غريبة كانت تأتي من الأسفل، من الحارة الصغيرة قرب المبنى، علمت ماهية الضوضاء

طريقه ما دون أن أنظر، وسرعان ما اندفعت عائدة إلى الداخل قاطعة الطريق إلى غرفة المعيشة ركضًا.

ما علمته في هذه اللحظات هو أن المبنى على وشك الانفجار، وقفت في الشرفة لثوانٍ فقط كانت كافية لأستجمع قدرًا هائلًا من المعلومات من كابوسي الخاص، لم أنظر لكنني رأيت الدخان الأسود والشوارع المحطمة، الأسلاك الشائكة والثكنات المحاطة بالدبابات في الأسفل، رأيت أيضًا الجنود بملابسهم الكاكي يستعدون لقصف هذا الجانب من المبنى بالأسلحة الثقيلة، كيف ولماذا؟ ليست لديَّ فكرة، لكن الكوابيس لا تتبع قوانين منطقية على أي حال، وهذا ما أصابني بالذعر أكثر.

أطلقت ساقيَّ للريح عابرة باب الشقة إلى الخارج حيث تعثرت بالممر، واندفعت عبر الدرج هابطة قفزًا نحو الأسفل، أمامي نحو ثلاثة طوابق أقطعها قبل أن ينفجر المبنى وتنتهي حياتي.

على عكس المرة الماضية أدركت مُبكرًا أن بوسعي سحب وعيي مرة أخرى إلى خارج الكابوس، والاستيقاظ قبل أن يصيبني مكروه، توقفت مكاني مُفكرة، يمكنني الهرب قبل أن ينفجر المبنى وسأنجو، سأكون بخير.

شعرت بالأمل لثوانٍ انتابني بعدها التردد، عليَّ ألا أهرب، هنالك خطب ما يمنعني من الهرب، ولأن الكوابيس لا تسير على أهواء النائمين اكتشفت حين وصلت إلى الأسفل أن هذا الخطب كان يتمثل في تلك المرأة الباكية ذات الشعر المعقوف، والعجوز الواقفة جوارها منتظرتين

وسط حشد من السكان المذعورين أن يُسمح لهم بالخروج، لم أكن وحدي في الحلم، بل رافقتني هذه المرة والدتي وجدتي.

سقط قلبي سقوطًا حُرًّا نحو الأسفل حين رأيتهما، اتجهت نحوهما دون إرادة لكن كِياني كان مُزلزلًا، قوانين البرزخ اللعينة لم تخلق فقط كارثة، بل وضعت أهلي داخلها، أدركت أن هذا الكابوس سيكون أسوأ من الفائت حين التفتت إليّ والدتي باكية وهي تقول:

- لا يسمحون لنا بالخروج.. لا نستطيع الخروج.

فتحت فمي لأرد لكن صياح جندي ما بالأمام كان كفيلًا بجعلي أصمت، رفعت رأسي برُعب مُحاولة النظر عبر حشود البشر المتجمهرة أمام البوابة فلم أرَ شيئًا، تراجعت لأعتلي إحدى الدرجات كي أرى أفضل، حينها اتضح لي أن جنديين قد وضعا أسلاكًا تحول دون خروج السكان، وطفقا ينتظران أمام البوابة حاملين بندقيتين أثارتا الذعر بين الواقفين.

قدح عقلي بهستيريا، كان عليَّ إخراج أهلي من هنا قبل أن أهرب لكن كيف؟ مرّت الدقائق ومعها ازدادت خفقات قلبي، وكأن مؤقت الانفجار مزروع بين تلك الضلوع اللعينة داخلي، لوهلة تلاشى يقيني بأنني داخل كابوس، وبدا كل ما حولي واقعيًّا بدرجة أثارت فزعي.. علينا الخروج الآن، هُنا قررت - ولا أعلم كيف - أن التصرف بجنون هو الحل الوحيد، مدفوعة بقوانين كابوسي الخاص تحركت نحو والدتي لأشد على ساعدها صائحة بحدة:

- فور أن يتحرك الحشد اركضي إلى الخارج.

لم أنتظر ردها، بل انطلقت صارخة من بين البشر نحو الأسلاك والجنود، وكأن جنوني كان الإشارة التي انتظروها، ارتفعت الصرخات حولي، وانطلقت الأجساد تدفع البوابات والأسلاك راغبين في التحرر، أصاب الذهول الجنديين على ما أظن لأنهما ركضا مبتعدين سامحين للأفواج البشرية بالاندفاع نحو الشارع.

حدث كل شيء بسرعة لم أتوقعها، لكن لم أنتظر تفسيرات، بل التفتُّ باحثة عن والدتي وجدتي، كانت أمي تركض والدموع فوق وجنتيها متجهة مع الفوج إلى الخارج، لكن لم يكن هنالك أثر لجدتي.

تلفتُّ يمنة ويسرة باحثة دون جدوى، كان المؤقت داخلي يتسارع فركضت إلى أمي مستفسرة بشيء من الصياح، وحين أخبرتني أن جدتي عادت إلى الأعلى بعد أن يئست مفضلة أن تموت داخل منزلها ما دمنا لن نخرج، أدركت أن الكابوس يتجه إلى نهايته المريعة.

تركت والدتي تركض إلى أمان الخارج، وصعدت السلم قفزًا، صرخت، بكيت، ولعنت الكابوس، لكن القوى المهيمنة على الأحداث كانت أعظم من مقدرتي، فعجزت عن الفرار، أدركت أن الأمور لن تنتهي نهاية جيدة، الأسوأ سيحدث، الأسوأ بالتأكيد سيحدث.

وبالفعل حدث الأسوأ..

فات الأوان قبل أن أجد الفُرصة لأراها من جديد، دوى الانفجار فور أن وضعت ساقي على باسطة السلم أمام شقتها، توقف المؤقت

عـن العمل وهـوت القذيفة عبر الشـرفة ملتهمة هذا الجانـب من المبنى بالكامل، ارتجّت الأرض تحتي وبدأ المنزل يتهاوى، فررت قبل أن أرى الدماء، كنت أعلم أن الكابوس سيمنحني مشـهدًا للجسـد الممزق؛ لذا ركضت نحو الأسفل مانعة نفسي من التنفس أو الالتفات.

تهاويت، وبكيت بحرقة واضعة رأسي بين ذراعيّ:

- لماذا؟ لماذا تقوم بتعذيبي؟! كنت ملاذي الوحيد، برزخي الآمن فلماذا؟!

صرخت لائمة دون أن يسمعني أحد، أمام البوابات تهاويت راغبة في المـوت، كانت المعاناة شيئًا، ورؤية أحد أفراد عائلتي ينتهي أمام عينيّ شيئًا آخر، اعتدت الألم، المعاناة، والوحدة في عالم الواقع، ولهذا هربت إلى هنا، كان كل شيء على ما يرام فلِمَ تغير الوضع؟!

قـد يبـدو لك مـا أحكيـه مبالغًا فيه يـا أحمد، لكـن ما شـعرت به في تلـك اللحظات كان أسـوأ مما يمكن وصفه بالكلمـات، ظننت أن دفعي لمواجهة المـوت هو الجانب المظلم للبرزخ الذي هربت إليه، لكن ذلك لم يكن سـوى تحمية فقط، هذا المـكان كان له إرادة، عقلي الباطن لم يكن ما يحركه، بل كان يتشكل بكامل إرادته الحرة».

* * *

تهـدّج صـوت «يُمنى» فتوقفـت عـن الـكلام، أبعدت وجههـا عني فأدركـت أنهـا تُحـاول منع نفسـها مـن الانهيـار، أردت أن أنهـض إليها

أواسـاتها لكننـي بقيت، لا بدافـع الحفاظ على الحـدود بيننا، بل لأنني كنت أحاول استيعاب ما قيل.

سرت رعشة مُخيفة بيديَّ، أدركت أنها نتيجة لفيضان الأفكار بعقلي، لكننـي لـم أكـن مؤهلًا للـكلام بعد، عجزت عـن التعقيب علـى ما قيل، عجزت عن سـحب جسـدي المرتجف خـارج الخيالات التـي صنعها كابوس «يُمنى» بعقلي فظل الصمت ملاذي.

«اعترانـي اليأس، لم أعد أرغب في الانسـحاب خارج الكابوس علّه يقضـي عليَّ ويُنهـي معاناتي للأبـد، ظننته عقاب السـماء إلى أن نهضت سـائرة عبر البوابات إلى الشوارع بحثًا عن والدتي.. حين رأيتها صفعتني الحقيقة، الكابوس لم ينتهِ بعد، بل كشف عن غايته..»

أعادت «يُمنى» نظرها نحوي، وللمرة الأولى تتسع عيناها عن ابتسامة حملت من الشراسة ما دفعني للتراجع بمعقدي غريزيًّا..

* * *

«تسـمَّرت أمام البوابة مُحدقة بالحصى البشـري الـذي افترش أرض الشـارع، رقدت الأجسـاد الخاوية وسـط بركة من الدمـاء لم تجف بعد، قتلـى، كلهم قتلى، الجنود لـم يهربوا بل اقتادوهم إلـى الخارج من أجل التصفية.

لم أرها بينهم، تحركت ذاهلة أراقب الأعين الزجاجية الشاخصة إلى السماء، لكنني لم أرَ عينيها..

– ماما؟!

قلتها بصوتٍ مُتقطِّعٍ ضائعٍ ثم علا صوتي، وبدأت قدماي تحثاني على الركض:

– ماما!

صرخت بألم، هرولت وأنا أحاول تفادي الأجساد فوق الطريق، كنت غير عابئة بالجنود، غير عابئة بالدمار، بحثت عنها فقط.. كانت آخر قشة أمل أتعلق بها هُنا.

انحدرت الدموع فوق وجنتي الجافة، وصرخت بهستيريا باحثة عنها، توسلت ألا أجدها بين الحطام، توسلت ألا أُترك وحدي، ركضت وصحت، تقطعت أنفاسي وانتابني الرعب، لكنني في النهاية وجدتها.

لم تكن ميتة، كانت حية لكنها راكعة أرضًا ويداها فوق رأسها، كانوا يحيطون بها، ثلاثة منهم، مصوبين الأسلحة السوداء إلى جسدها، كانت على وشك اللحاق بمن ذهبوا، سأفقدها ومعها سأفقد آخر ذرة من الأمل أبقتني حية في هذا المكان حتى الآن.

حين أدركت هذا انتهى عهدي تمامًا مع العقلانية، انمحت كافة المشاعر التي سبحت بكينونتي منذ بداية الأحداث، وغرقت في فجوة من فراغ دون قرار، تخدَّر عقلي وتجمدت مكاني، ثم بلا سابق إنذار انشق حلقي صراخًا، ليس يأسًا هذه المرة، بل غضبًا حيوانيًّا صافيًا.

انطلقت كالرصاصة نحوهم، لم أعد أفكر في الخطر أو في احتمالية إصابتي، لم أعد أفكر في أي شيء على الإطلاق سوى بركان الغضب الذي تفجَّر داخل خلاياي.

طنَّت أذناي، واحترقت رئتيَّ بحثًا عن الهواء، لكن هذا لم يعد مهمًّا، لم أعد هنا لإنقاذها أو للهرب، أو حتى للفهم، بل للقتل، للانتقام ممن أذاقوني الألم، ممن أجبروني على مُعاشرة الفقدان، سيدفعون الثمن.. جميعهم سيدفع الثمن.

غُشِّيت عيناي عن رؤية وجهه، فقط شعرت بجسدي يصطدم به وسمعت صيحته المتفاجئة، صرخت أكثر حين جثمت فوق صدره وامتدت يدي ملتقطة أقرب ما وقعت عليه، أكان حجرًا أم سلاحًا لا أدري، لم أكن أرى سوى الدماء حين انهالت ضرباتي فوق جثمانه المستغيث.

تلاه جندي آخر نشبت مخالبي في حلقه كحيوانٍ بري، فسقط غارقًا في حشرجة مُختنقة تلاها وقع لزج لجلد يمزق حين انكببت فوق الجندي الثالث أزهق روحه طعنًا، استغرق الأمر بضع ثوانٍ فقط، بضع ثوانٍ تمددت فيها أجساد القتلى الثلاثة أسفل ذراعيَّ دون أن أقوى على التوقف عن التمثيل بهم.

شعرت بحلقي يُدمى من الصراخ، حرقت ملوحة دموعي وجهي وتسلَّخت يداي عن جروح لم آبه بها، عجزت عن التراجع، عجزت عن السيطرة على قيح الغضب الذي نزف من روحي مغرقًا الكون بالكامل حولي حتى لم أعد أشعر بسواه.

لن أسمح لأحد بإيذائي من جديد، لا أحد يمكنه المساس بعائلتي، التهمت الألم فبصقت الحنق، والكراهية، والاشمئزاز، كان كابوسًا نعم، لكنه دفعني لأفرغ كمًّا من الغضب لم أكن أدري حتى أنه مخلوق بداخلي، حينها أدركت ما كان عليَّ إدراكه مُنذ فترة، البرزخ لم يخذلني، لم تكن إرادته تعمل ضدي رغم سعيها لإيلامي.

الكل يخاف، الكل يرى كوابيس نائمًا كان أو مستيقظًا، قليلون فقط هم مَنْ تأتيهم الفرصة لمواجهة أسوأ مخاوفهم وجهًا لوجه في عالم الأحلام، نقية، عارية، دون زيف أو قيود، مُنِحت القُدرة على رؤية الرعب الخالص كما خُلق في صورته الأولى، رُعبي الخاص، جانبي الأسود، ومعه أُهديت القدرة على المقاومة، قَدَّمت لي الكوابيس كأس السم والترياق، منحتني السواد وسلاحه القاتل، غرقت بالدماء والألم، لم تعد أمي جواري ولا أدري إلى أين ذهبت.. كنت وحدي لكن الخوف لم يأتِ، بل أتى ضيفي من الكابوس الماضي، انفرجت أساريري حين عانقني النسيم الملائكي للمرة الثانية آتيًا من اللا مكان، رفعت رأسي منتشية عندما مرر أنامله فوق روحي مشجعًا، حين أغوص إلى أعماق الانكسار كان يعود، تأكدت من هذا الآن.. علمت أنه سيختفي لكن هذه المرة عرفت كيف لي أن أستعيده.

الآن امتلكت المفتاح لاستحضار الشذا الملائكي الأسود».

* * *

الفصل الثامن

أغلقت المُسجل وتثاءبت ماطًّا ذراعيَّ وظهري بألم، تفحَّصت الأوراق المتناثرة أمامي بنظرة سريعة وابتسمت، كنت قد انتهيت من إفراغ تسجيل الجلسة الأخيرة توًّا، مُستغرقًا ثلاث ساعات وعددًا لا بأس به من الأوراق، دفعني المجهود للنهوض متجهًا نحو المطبخ كي أصنع لنفسي قليلًا من القهوة احتفالًا بانتهاء المرحلة الأولى لسهرتي، واستعدادًا لبدء المرحلة الثانية.

سارت المقابلة مع «يُمنى» صباحًا على ما يرام، وانتهت كالمعتاد عند نقطة تحتم القيام بلقاء جديد لاستكمال القصة، هذه المرة استغرق الخدر وقتًا أطول ليُغادرني، لكن حين استفقت من تأثير حديثها كان عقلي قد أضحى بطريقة ما أكثر ترتيبًا.

كان عليَّ التوقف عن التصرف كصديق فضولي، والبدء بالتصرف كطبيب إن أردت الخروج من المعضلة التي أعلم أن الدكتور «حسن» رئيس المصحة على وشك وضعي بها، لا أدري لِمَ يكرهني أنا بالذات، لكنني لم أكن أنوي إعطاءه فرصة للتغلب عليَّ؛ لذا جلبت قهوتي وعدت إلى المكتب ملتقطًا قلمًا وورقه لأبدأ بصنع جدول لأفكاري.

مبدئيًا لم تكن «يُمنى» مجنونة، هذا لا يمنع كونها مريضة إثر الصدمات التي تعرَّضت لها على مر حياتها كما روت لي، واضح أنها ظلّت تكتم الكثير حتى صعد ضيقها من صدرها إلى عقلها وبدأ بالانبعاث ففسره الآخرون جنونًا.. لكنها - كما كنت متأكدًا - ليست مجنونة على الإطلاق.

ثانيًا، «يُمنى» روت لي الأحداث بأسلوب سردي في البداية، وحتى وصلت إلى نقطة كوابيسها تلك، فسَّرت لي الكثير من المشاعر التي تشعر بها دون حرج، لكنها بخلت عليَّ بمعلومات عن أولئك الذين تسببوا لها فيما هي فيه، أشارت إلى الفتاة التي خانتها بـ«صديقتي»، وذكرت اسم «أدهم»، لكن طبيعة علاقتهما ظلَّت سرًّا رفضت أن تريني سوى نهايتها.

طبيعة مشاكلها العائلية والدراسية، ورُبما مصائب أخرى فضَّلت إخفاءها، كانت تتعامل مع كافة الشخصيات والأحداث التي مرَّت بها كصندوق ألقته في مؤخرة عقلها، بوسعها فتحه حين تشاء واستحضار محتواه لكنه يظل بعيدًا داخل عقلها، ليس منسيًّا، لكنه بعيد.

ثالثًا، الاتفاق الذي عقدناه على أن تسألني سؤالًا في نهاية كل جلسة، اتضح أنه ليس بدافع الفضول على الإطلاق، كانت لها غاية في كل مرة، كل سؤال حملني إلى جزء جديد من قصتها، هذا يؤكد أكثر أن هذه الفتاة ليست مجنونة؛ إذ إن لديها تقنية لا ينسجها سوى عقلٍ واعٍ.

رابعًا، الكوابيس.. حوت كوابيسها فجواتٍ وأحداثًا غير منطقية كثيرة، لكن هذا هو قانون الأحلام أصلًا، لا يُفترض أن تُكوِّن الأحلام

قصة متكاملة؛ لذا لا أتعجب من كون أحلامها غير منطقية، بل ما يثير دهشتي فعلًا هو التسلسل الغريب داخل الحلم ذاته، ناهيك عن قدرتها على تذكُّر كل حركة وشعور قامت بهما هناك، من المفترض أن يُنسى اطلاع من الحلم حين نستيقظ، هذا ما يجعلنا بشرًا، هذا ما يمنح عقلنا القدرة على التفرقة بين الواقع والوهم، «يُمنى» على عكس المتعارف عليه كانت تذكر كل شاردة داخل الحلم، بل والأسوأ كانت تُدرك أن هذا حلمًا، وتدرك أن بوسعها الاستيقاظ..

خامسًا وأخيرًا، موضوع الشذا ذاك، على مدار الجلسات الماضية لم أكن أبدي أي رد فعل منذ أن تبدأ الجلسة إلى أن تنتهي، باستثناء لحظات تقطع بها «يُمنى» حديثها سامحة لي بالتعليق أو خلافه، هذا أعطاني القدرة على متابعة تعبيرات وجهها أثناء المقابلة، صحيح أنها تأثرت بينما تروي ما قالته عن مشاكلها، وماضيها، وكوابيسها.. إلخ..

كانت تعبيرات وجهها تتغير، جسدها يتحرك، يدها تنقبض، لكن تعبيراتها لم تكن ترقى إلى المستوى المطلوب حتى إنها أشعرتني أحيانًا بأنها تروي مقاطع من حياة شخص آخر.

كانت مشاعرها إلى حد ما «باهتة»، إلا حين يأتي ذكر الضيف «العطري/ الشعوري» الغريب الذي زار أحلامها مرتين حتى الآن، حين تأتي على ذكره كانت انفعالات جسدها تزداد بطريقة غريبة، يعلو صوتها عدة طبقات، تلمع عيناها، يزداد خفقان قلبها حتى تتنفس بسرعة تدفعها إلى التهدج أثناء الحديث.

أطلقت عليه لقب «الشذا الملائكي الأسود»، لا أعلم إن كان هذا كناية عن حالة يصنعها عقلها أثناء الكابوس، تلك التي فسرتها هي بـ«النشوة»، أم كان هذا الشذا حقيقيًا فعلًا، وصفها له بهذه الدقة وهذا التأثر وضعني في موضع التيه بالنسبة إلى تحديد معناه.

هذه النقطة الأخيرة كانت الأهم، هذا الـ«شذا» أصبح غاية «يُمنى»، الأحداث بروايتها رغم تشتتها بين واقعٍ وأحلامٍ تجمَّعت خيوطها في النهاية حول رغبتها في استحضار هذا الشيء من جديد، كان يمثل الأمل الجديد بالنسبة إليها، «السلاح للتخلص من آلامها الماضية»، كما قالت.

هنالك نقطة أخرى أغفلتها، موضوع القتل الذي كُتب في ملفها، حين واجهتها به لم تُنكر بل أكدت، لم تذكر لي دوافعها أو ما حدث بالضبط بعد، لكن كنت أعلم أن هذا الجزء من الرواية قادم، هناك رابط ما سيظهر بين «الشذا» وسعيها للقتل؛ لهذا يمكنني أن أعتمد عليه كنقطة ارتكاز.

ألقيت القلم أخيرًا، ونظرت إلى ما كتبت، الآن أعرف أين كنت وأين سأذهب، بدأت الأمور تتوازن في عقلي كطبيب رغم أنني كمستمع ما زلت تائهًا، ما زلت عاجزًا عن فهم سبب تأثري بـ«يمنى» إلى هذه الدرجة، كانت تشغل حيزًا بعالمي وعقلي أكثر مما يجب.. لكن عليَّ ألا أفكر بهذا الآن، الأمور ستؤول إلى نصابها الصحيح وحدها إذا تابعت ترتيب أفكاري على هذا النحو.

ارتشفت القليل من القهوة لأحدق في النقطة الخامسة، مُعاودًا تذكُّر اللحظات الأخيرة من لقائنا صباحًا، حين انتهت المقابلة ونهضت «يُمنى»

في طريقها للخارج سألتها عما تعنيه بأنها «امتلكت المفتاح لاستحضار الشذا»، وقتها ابتسمت فقط وقالت ببساطة:

- يُمكنك اعتبار هذا سؤالك الجديد دكتور.

ثم تركتني ومضت كطوق نجاة سبح بعيدًا.

* * *

في صبيحة اليوم التالي قررت الذهاب إلى «حمدي»، كي أعتذر له عمَّا بدر مني المرة الماضية، وأيضًا كي أطلب عونه بخصوص قرار دكتور «حسن» بشأن مقابلتي مع «يُمنى».

في فترة ما بالماضي حاولت تحليل شخصية «حمدي»، ليس هذا الرجل من النوع شديد الذكاء، ليس بليد العقل، لكنه ليس متأجج العقلية، على الرغم من ذلك فشلت في تحليل شخصيته مرارًا وتكرارًا حتى استسلمت للأمر الواقع وقررت التوقف.

استقبلني «حمدي» - على غير ما توقعت - بالترحاب، كان لقاؤنا بالمنزل لذا ظهر «حمدي» على سجيته أكثر، بدا المنزل فارغًا فسألته عن المدام والأولاد، أخبرني أنهم لدى حماته في زيارة اعتذر عنها؛ لذا شعرت براحة أكبر وانفرجت أساريري، بعد واجبات الضيافة المعتادة حكيت له باختصار ما حدث بالمستشفى بيني وبين الدكتور «حسن».

بدا عليه الاستغراق في التفكير بينما أتحدث لكن حين انتهيت من الكلام قال:

- أحمد.. أرغب في أن تنسى موضوع يُمنى برمته.

- يا ألله! حمدي ظننت أننا تناقشنا في هذا قبلًا.

- أعرف، لكن عليك ترك هذا الموضوع وشأنه يا أحمد ثق بي.

تصاعد الدم إلى رأسي، وكدت أجادل لكن أمام تعبيرات وجهه الجدية تحولت مشاعري إلى الدهشة..

- هل تعرف شيئًا جديدًا لا أعرفه؟

- ليس تمامًا.

- ماذا تعني؟

زفر «حمدي»، وترك كوب العصير الخاص به ليضع ساقًا فوق أخرى عاقدًا يديه أعلاهما (كانت هذه وسيلته ليبدو أكثر جدية)، ثم تابع:

- أنت أخبرتني أن يُمنى هذه محجوزة في المصحة بكامل إرادتها صحيح؟ قرأت في الملف أيضًا مشكلة القتل تلك، لم أشأ لفت انتباهك إلى هذا الأمر المرة الماضية لكن إن كانت يُمنى قاتلة سيتم سجنها تمهيدًا لإعدامها، ولنفترض أن العقوبة خُفِّفت نظرًا لحالتها العقلية، أمثال هؤلاء يتم حجزهم رسميًّا في العباسية تحت الحراسة، كيف إذن في رأيك لا تزال يُمنى حرة؟

اكتنفني الصمت قليلًا وقد اعتراني الحرج كوني لم أفكر بهذه النقطة من قبل، لم يضف «حمدي» جديدًا وانتظر ردي فسألت:

- أتعني أن الملف كاذب؟

- لا أعني شيئًا، أنا لا أضع استنتاجات.. أنا أسألك فقط.

- لكن.. حين سألتها لم تنفِ الاتهام.

- هل أكدت؟!

حركت رأسي نفيًا:

- لم تؤكد لكنها لم تنفِ.

ابتسم «حمدي» على مضض ليتابع:

- وهذا يعيدنا إلى النقطة الأولى، أرغب في أن تترك...

قاطعته مسرعًا:

- هل يمكنك البحث في سجلات الشرطة؟ بشأن اتهامها وخلافه؟ لا أظن أن الأمر سيكون صعبًا عليك!

توقفت عن الحديث متوترًا فرمقني «حمدي» بنظرة فارغة، ثم ضحك، ضحك حتى سال العصير الذي عاود شربه على فمه فمسحه بطرف يده ليعاود الحديث مسيطرًا على ضحكاته:

- أنت تشاهد الكثير من الأفلام يا أحمد، لسنا في أوروبا، في هذا البلد عليك لعق الكثير من الأحذية، وتربيت عدد من الأكتاف لتصل إلى معلومة مثل هذه، خصوصًا أن الأمر يتعلق بجريمة قتل وقعت منذ فترة، وصاحبتها، كما هو مفترض، تنعم بحريتها خارج أسوار السجن.. أنا

لا أهوى التملُّق كثيرًا في الواقع، ولأكن صادقًا.. لا أظن أنني سأجد شيئًا في السجلات حتى لو بحثت.

- ماذا تعني يا حمدي؟

- أعني ما تظن، الفتاة مريضة بجنون الاضطهاد، أو الانفصام، أو السيكولولو، أو أي من تلك المصطلحات الغربية التي تطلقونها على مرضاكم.

- في الواقع يا حمدي.. لا أظن أن يُمنى مريضة على الإطلاق.

توقف «حمدي» عن الحديث بغتةً وهو يراقب تعبيرات وجهي، فتح فمه ثم أغلقه، أعاد فتحه لكنه لم يجد ما يُقال، بدا كسمكةٍ تنتفض على الشاطئ عاجزة عن التنفس و هو يتابع ابتلاع التعليقات التي يرغب في الرد بها، لكنه في النهاية لَم يعلق، آثر الصمت وانتظار تفسير لما قلته للتو؛ لذا تابعت:

- هل لديك أي خلفيه عن مصطلح يُدعى «أتْـمَـا»؟

- عن ماذا؟!

- أتْـمَا يا حمدي.. أتما..

أجابني بالصمت التام وهو يعقد ذراعية في انتظار أن أبدأ بالتفسير، تنفست بعمق وبدأت بالشرح:

- أنت تعرف مدى ولعي بالعقل البشري، قرأت ما استطعت وبحثت بقدر الممكن عن كل ما يتعلَّق بذلك اللغز المحمول فوق رؤوسنا؛

لهذا تخصَّصت في الطب النفسي؛ لأن النفس هي أقرب طريق لفهم العقل، المهم هو أنني في أثناء بحثي اصطدمت بجملة تكرَّرت بأغلب الأبحاث تقريبًا، هذه الجملة تقول: «الإنسان الطبيعي وافر الصحة وبكامل وعيه مهما بلغت قدراته لم يصل إلى استخدام سوى نسبة 10 ٪ من قدرات عقله»، تم إثبات هذا علميًّا، وتم وضعه كخاتمة لأي بحث يتعلَّق بقدرات العقل أو طفراته..

توقفت عن الحديث لثوانٍ لألتقط أنفاسي، بدا على «حمدي» الضياع فتابعت قائلًا:

- بعيدًا عن المجال العلمي، هناك طوائف حول العالم في أماكن و ديانات مختلفة آمنت بأن الطريق الحقيقي إلى فهم العقل أو استيعاب قدراته بنسبة تفوق الـ 10 ٪ تلك هو «النفس الداخلية للإنسان»، أو بمعنى آخر «الروح»، باعتبار أن الروح هي ما خُلق منه الإنسان وما يبقى حين يموت الجسد، وبالتالي هي ما يمتلك القدرة على حل ألغاز العقل، وقد تبنَّت عديد من الفلسفات هذه الفكرة، وكان من أبرزها الهندوسية القديمة..

بعد نظرة طويلة تدل على عدم الفهم، قال «حمدي»:

- ما علاقة ما تقوله بيُمنى؟

قالها بنفاد صبر فعلمت أن جملته بديل ذوقي لكلمة «الخَّص»؛ لذا قلت وأنا أوضح بيدي ما أشرحه:

- في الهندوسية القديمة «النفس الداخلية»، أو «الروح»، تدعى «أتْمَا»، الكيان الحقيقي والأصلي للإنسان بعيدًا عن أي تأثيرات خارجية أو أقنعة مجتمعية، هذا هو ما يؤمنون به، أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى الخلاص هو إيجاد الـ «أتْمَا» هذه..

- لخِّص..

هذه المرة قالها «حمدي» بصراحةٍ فقلت بضيق:

- هذه هي حالة يمنى يا حمدي، هي ليست مريضة، ولكنها كرهت ما رأته من البشر وما فعلوه بها؛ لذا حاولت الوصول إلى داخل نفسها لتتخلّص من الألم، باختصار هي حاولت البحث عن روحها..

- هذا يعني أنها مريضة..

- لا يا حمدي.. هذا يعني أنها تتألم فقط، يمنى ترغب في إيجاد روحها لكنها تتألم جرّاء سعيها لهذا..

- تتألم لأنها مريضة، ربما مريضة مثقفة وتعلم كل هذا الهراء الذي قلته للتوّ لكنها تظل مريضة..

- الهُراء؟!

- يُمنى محتجزة في مؤسسة نفسية.. إذن هي مريضة.. المعادلة بسيطة.

- حمدي.. حين آتي لزيارتك بمقر عملك أجلس في مكتبك رغم أنني لست متهمًا أو لصًّا، لو خرجت من المكتب برفقة أحد العساكر سيراني مَنْ لا يعرفني وكأنني متهم، هل يعني هذا أنني متهم؟

- أحمد بالله عليك لا تتفلسف..

- أنا لا أتفلسف، أنا أحاول الشرح فقط!

- يُمنى مريضة يا أحمد..

- يمنى ليست مريضة، يمنى تحاول البقاء على قيد الحياة فقط..

- بمستشفى مجانين؟

لم أرد هذه المرة أو أجادل، أطرقت برأسي ناظرًا إلى أصابع يدي ألتهم جدار فمي ضيقًا، خلا المنزل إلا من صوت دقات الساعة في الصالة الخارجية، كلام «حمدي» كان سطحيًّا بدرجة تثير الحنق، حكم عليَّ بأن كلامي غير منطقي بطريقة غريبة، لَم يحاول حتى فهم ما شرحته بل تركني أشرح ليُعلن أنه متمسك برأيه في النهاية وأن كلامي لا شيء أكثر من «هُراء»، لَم أعد أعرف كيف عليَّ أن أفكر، صدقًا لم أعد أعرف، حللت أصابعي ونهضت مستعدًّا للذهاب، لكن «حمدي» قال بلهجة جافة:

- اجلس يا أحمد رجاءً، لديَّ ما أرغب في قوله.

- حمدي..

- ليست المشكلة مشكلة يُمنى يا أحمد..

قالها بحدة فصمتُّ، تنهد بعنف ثم احتوى وجهه بكفيه للحظات، وأشار إليَّ بالجلوس بصبر، جلست لأتساءل مندهشًا:

- ليست المشكلة مشكلة يُمنى؟ ماذا تعني؟

حرّك رأسه، واستند إلى ظهر مقعده ليشير لي بباطن يده، وقد عاد صوته للهدوء:

- المشكلة أصبحت بك أنت.

- أنا؟!

- أجل، تمسكك بالحالة بهذه الطريقة رغم كم المشاكل التي أتت وستأتي بسببها..

قاطعته هاتفًا باسمه، فأشار إليّ بأن أدعه يستكمل كلامه وتابع:

- هل نظرت إلى وجهك في المرآة مؤخرًا؟ لم تعد أحمد الذي أعرفه، هنالك شيء خطأ بك، لا تخبرني أنها ضغوط العمل رجاءً، أنا لست مريم يا أحمد، أنا حمدي صديق عمرك، يُمنى تؤثر عليك سلبًا.. عليك أنت، على أحمد وليس على الطبيب.

- حمدي اسمع! أنا فقط مشغول بالجلسات التي أقضيها معها، أنت تعرف فضولي الأزلي تجاه العقل البشري، وعقل هذه الفتاة يحوي الكثير من الــ... لا أدري يمكنك أن تقول المادة الخام التي تروي الفضول، طريقة حديثها، رواياتها، الأحداث التي مرت بها، عليّ دراسة كل هذا؛ لذا طبيعي جدًّا أن يكون عقلي مشغولًا بها..

- جميل، لكن ليس إلى حد الانتفاض غضبًا كلما نبش أحدهم سيرتها، ليس إلى حد التسلل إلى المبنى، والتعرض إلى إمكانية القبض عليك

بتهمة التعدي على منشأة كي تراها فقط، أحمد لا تكذب، قد لا أكون بمثل ذكائك لكنني لست هذا الأحمق الذي تتخيله.

التزمت الصمت فتابع:

- ما الذي يجذبك إلى يُمنى بهذه الطريقة يا أحمد.

- لا أعرف!

- هل تناقشت معها في أمور شخصية لديك؟ الفتيات يملكن القدرة على التأثير فيك إن علمن الكثير عنك.

- لا.. لم أفعل..

- هل أصبح الأمر بمثابة تحدٍّ أو ما شابه؟

نظرت إليه شاردًا، ثم حرّكت رأسي نفيًا، فأكمل بغتةً:

- هل هي جميلة؟

- أجل.

قلتها لا شعوريًّا، ثم استدركت حين رأيت الابتسامة الغريبة تعبث بوجهه، فصحت بغضب:

- لا تكن قذرًا يا حمدي، أنا لا أفكر بمثل هذه الطريقة.

- إذن ماذا؟!

- لا أعرف.. أقسم إنني لا أعرف.

تحولت ابتسامته لضيق حين تابع:

- عليك أن تعرف إذن لأن تلك الفتاة بـدأت تؤثر فيك بطريقة زائدة عن الحد، استمر على هذا المنوال أسبوعًا آخر وسأحجز لك بنفسي غرفة جوارها.

لم أرد، لكنني نهضت مستعدًّا للمغادرة، مددت يدي لمصافحة «حمدي» فرمقني بثبات ثم مد يده باستسلام، دون إضافة كلمة أخرى اتجهت نحو الخارج، لكن صوته القوي أتى من خلفي:

- سأرى ما يمكنني فعله بشأن الزيارات.

حركت رأسي متمتمًا بشكرٍ مُختنق، دون أن ألتفت إليه، وغادرت.

* * *

الوحدة من جديد، الوحدة والذكريات..

أذكر أنني زرت هذا الصالون المذهب مرة واحدة فقط مُنذ أكثر من عام، كان «حمدي» يرافقني يومها وقد ارتدى أفضل حلة لديه ووضع أقوى عطوره، شعرت يومها وكأنه هو العريس لا أنا، والدي أيضًا كان هنا ذلك اليوم، يرتدي بدلته السوداء السميكة التي لم أرها سوى مرة واحدة.. في عزاء جدي.

كان كلاهما سعيدًا ينتظر العروس وأهل العروس، شعرت ببهجتهم دون بهجتي، ما أتيت إلى هذا المكان مكرهًا أو حانقًا، لكن في ذات

الوقت لم أكن مسرورًا يتقافز قلبي فرحًا، بدت «مريم» فتاة جميلة، وطيبة من أصل كريم، لا تجمعني بها معرفة سابقة، لكن لم أشعر بالنفور منها.

في ذلك اليوم لم تكن نظرتي إلى «مريم» كما ينظر نصف الرجال للنساء اللاتي يتقدمون لخطبتهن، شعرت بعدم الإنصاف كوني أمتلك الأحقية لمعاينتها كي أقرر إن كانت صالحة كزوجة لي أم لا، «مريم» لم تكن سلعة معروضة بصالون مذهب أنيق وسط عائلتها؛ لذا أقدمت على فعل جعل مني أضحوكة «حمدي»، ومصدر انزعاج لوالدي ووالدها للأبد.. طلبت فترة تعارف دون خطبة.

هي لم تفهم السبب، ووالدتها المندهشة ظنت بي الظنون، ووالدها - لولا الذوق - لألقى بي إلى الخارج، لا أحد يطرق منزل فتاة ليجلس وسط أهلها طالبًا الإذن بمواعدتها عوضًا عن خطبتها، لاحقًا نلت نقدًا وتقريعًا من والدي، ومن «حمدي» على ضيق أفقي هذا، أي إحراج هذا الذي تسببت لنا به؟! نرافقك إلى منزلها لتطلب مصادقتها أمام والدها؟!

وإنقاذًا للموقف امتلك «حمدي» زمام الحديث، كان بارعًا في قيادة حوار مقنع ناجح كما يشهد له مَنْ يعرفه، حدثهم عني وعن كوني طبيبًا نفسيًّا تحت التمرين، قال إن تفكيري وعقلي لا يعملان كما يعمل باقي البشر، لكنني ابن حلال ورجل محترم.. إلخ.

لم أكن راضيًا عن الطريقة التي برر بها «حمدي» تصرفاتي لكنها لاقت القبول، بالطبع لم يوافق الأب على اقتراحي وتعامل معه كلوثة

عقلية مفاجئة، حاولت قراءة تعبيرات «مريم» الجالسة وسطنا فرأيت عقلًا مساويًا لعقل والدها؛ لذا لم أجد بدًّا من الاستسلام، وتمت الخطبة بعد ذلك الموقف بأسبوع.

كنا معًا – «مريم» وأنا – في إحدى الحدائق قرب جامعتها صباحًا بعد مرور حوالي شهر على الخطبة، حينها أتت على ذكر الموقف الذي كان..

أرادت فهم السبب الذي دفعني إلى اقتراح فترة تعارف ما قبل الخطبة تلك فقلت ببساطة:

– حين أتيت إلى منزلك لم أكن أعرفك، كانت المرة الأولى التي تقابلينني فيها، عندما جلست أستمع إلى حديث الأهل شعرت كمن أتى شاهدًا على إتمام عقد بيع أرض أو عقار، يتناقش الطرفان حول التسعير المناسب للمِلك، البائع يمدح والمشتري يُعاين، ثم نظرت إليكِ فرأيت امرأة من جسد وروح مثلها مثلي، الفارق الوحيد أنها تجلس منتظرة القرار بينما القرار بيدي، أترين في هذا إنصافًا؟ كوني رجلًا لا يعطيني الأفضلية يا «مريم»؛ لديكِ الحق لتختاري، إن كنت قد أتيت إلى منزلكِ لأراكِ فلكِ الحق لترينني بعين الاختيار.. لا الخضوع.

ابتسمت مريم فسألتها إن كنت مخطئًا.. حرّكت رأسها نفيًا، لكن قبل أن يرتاح قلبي قالت:

– أنت طبيب نفسي على أي حال!

تجهّمت وقد فقدت الرابط بين ما قلت وما تقول، فسألتها عن المعنى وبهدوء فسّرت:

– أنت تفكر كثيرًا، عقلك يعمل غيرنا، أتفهّم ذلك يا أحمد.. أتفهم ذلك لا تقلق.

ألقت جُملها بإيقان، ثم عاودت حديثًا لم أنتبه لفحواه، تصنّعت السعادة يومها لكنني عجزت عن السيطرة على شرودي، وحين أعدتها إلى منزلها في ذاك اليوم بدأت أفكر في قولها.

«أنت تفكر كثيرًا، عقلك يعمل غيرنا»، بدا من الواضح أنها تبنت رأي «حمدي» كما تبناه والداها ووالدي، لم تكن بالفعل تهتم إن كان لها الخيار أو لي، خبروها عني فبدأت ببناء أحلام حياتها المقبلة حولي دون تفكير سابق في احتمالية إن كنت أصلح لها أم لا.

كانت «مريم» مقتنعة بتقاليد نشأت عليها، مثلها مثل الجميع، تقاليد لا تهتم إن كانت صحيحة أم خاطئة، هي تكفل لها إمكانية تكوين أسرة في يوم ما، مع رجل محترم، وكفى، أما الكرة في ملعبها أم في ملعبي فهذا لا يهم، مجرد كماليات يطيل خطيبها التفكير فيها؛ لأنه طبيب نفسي؛ لأن عقله لا يعمل كالجميع؛ لأنه طبيب المجانين ويحمل ريحهم.

تذكرت كل هذا الآن في هذه اللحظة بالذات بينما أنا جالس في صالون بيتها الذي لم أتردد عليه إلا قليلًا طوال فترة خطبتي لها، تذكرت كيف شعرت باليأس والإحباط، كيف عدت إلى منزلي ليلتها لأفكر

مـرارًا هل أنا المخطئ أم هم؟ هل يعمل عقلي أكثر مما يجب؟ هل أفكر في أمور عليَّ تركها على سجيتها دون أن أتدخل؟

رغـم أنني أقلعت عن التفكير فـي أمر «مريم»، وموضوع خطبتها، إلا أنني بقيت شاعرًا بتلك الفجوة التي صنعتها حين أجابت عن سؤالي، هي خطيئتـي لكنها لم ولن تفكر مثلي، ليس لأنهـا أقل ذكاءً، بل لأنها وُلدت فـي عالم أقصى حدود تفكيره هي القشـرة الخارجيـة للعقل، مجتمع إن صـادف يومًا مَنْ «فكَّر أكثر مما يجب»، فإنه يسـارع بتغطية الخلل بقناع، قنـاع جميل، ومريح، ومتقـن الصنع، يُتيح لهم التعامـل مع المُختل دون الحاجة إلى النظر إلى عورة التعمق في التفكير..

لا أدري لِمَ عاودتني تلك الذكرى الآن بعد مرور ما يزيد على ستة عشر شهرًا، ربما لأنني حين شردت ناظرًا إلى الحائط تذكرت قولًا أخبرتني به «يُمنى» في إحدى الجلسات، حين قالت: «أرواح البشر مريضة، تنزف قيحًا ودمًا لونه أسوَد خلف أقنعة من السعادة، الاقتناع والرضا، لا أحد يحاول علاج ما ألَمَّ بروحه وعقله من تعفُّن، لا أحد يهتم طالما ظل المرض قيد الخفاء».

كم كنتِ مُحقة يا «يُمنى».. كم كنتِ مُحقة..!

* * *

دارت كل تلـك الذكريـات بعقلي قبل أن أرى «مريـم» اليوم، بعد أن غادرت «حمدي» قـررت الذهاب إلى منزلهـا ومحاولة إصلاح الأمور،

ارتديت أفضـل مـا لـديَّ لأنني علمـت أن الشـكليات مهمـة، لا لأنني اهتممـت، كان عقلـي يلتهم نفسـه طـوال الوقت، فكر بخطيئتـي التي أنا على وشـك ملاقاتها وأفكر بمريضتي التـي بقيت حاضرة في عقلي دون أن أقوى أو أرغب في إبعادها.

دلفـت «مريم» إلـى الصالون بعد حيـن قاطعة حبل أفـكاري بنقرات حذائهـا ذي الكعب العالي، نهضت مُرحبًا بها لكنها اسـتقبلتني بترحاب بارد وجلسـت، بدت عيناهـا منتفختين من قلة النـوم أو البكاء، أزعجني شعوري بأنني السبب في معاناتها؛ لذا بدأت أحادثها مستسمحًا إياها عمَّا بدر مني الفترة الماضية.

عاودَت سؤالي عن «يُمنى» رغم أنني فسرت لها كينونتها في آخر مرة التقينا، كانت متشـككة نزقة فرسـمت تكشـيرة على وجهي بينما أطلقت سـيلًا من الأكاذيب عن كون «يُمنى» هذه مريضـة مختلة عقليًا أعالجها، نطقـت باسـمها لأنـني كنت عائدًا مـن المصحة تـوًّا، وقد أثـارت المرأة غضبـي بعقليتها غير المتزنـة.. اعتذرت، تظاهرت بالنـدم، ارتديت أكثر الأقنعـة إتقانًا عالمًا بأنني سأسـجل نقطه إن تغاضيـت عن ذكر الحقائق، بالفعل صحَّ توقعي حين بدأت «مريم» تلين، ضبطتها مرة أو مرتين تبتسم ابتسـامة صغيرة وهي تنظر إلى الأرض، فقمت باستغلال الموقف مداعبًا إياها بكلمات حنون، حتى انفرجت أساريرها أخيرًا، فقالت مُعاتبة:

- أنت كثير الغضب يا أحمد.. ضغوط عملك تلك تثير أعصابي.

- أعرف، أنا آسف فعلًا، سأحاول الفصل بين عملي وحياتي الخاصة مستقبلًا إن شاء الله.

- هل تحبني؟

ارتجفت:

- أنتِ خطيبتي يا مريم، وغالية عندي.

- أعلم، لكن هل تحبني حقًّا؟

من جديد شعرت بوخزة عصبية في ذراعي، واكتنفني الصمت، نظرت إلى عينيها الشغوفتين فقلت بصوت رغمًا عني خرج متقطعًا:

- أجل.

ابتسمت راضية، نهضت متعللة بإحضار الشاي وانطلقت خارج الحجرة فور أن غابت خلف الجدار تلاشت الابتسامة من على وجهي ولطمني شعور عارم بالحقارة، انزلق القناع عن وجهي فطالعتني حقيقة أنني أصالح الفتاة شفقة بها ورأفة بأعصاب أهلها وأهلي بعد خطبة طالت، كنت هنا الآن في هذا المنزل فوق هذا المقعد أتأسف إلى خطيبتي، وعجزت عن قول «أحبك» لها، الكلمة أبت أن تخرج من جوفي، كان يجب أن يحرك سؤالها شيئًا ما داخلي لكنه لم يحرك سوى عضلات معدتي التي تقلصت معترضة.

«أجل» قيلت لإسكات «مريم»، أنا كاذب أناني حقير، كان عليَّ الخروج من هنا، لم أعد أطيق البقاء رغم أنني أتيت بإرادتي ودون

مشورة من أحد، كان عليَّ مواجهة نفسي وحدي دون وجود «مريم» على الساحة، لكن ذلك كان غير ممكن؛ لأن «مريم» عبرت الباب عائدة وهي تحمل صينية اتزنت فوقها أكواب الشاي بصعوبة.

تخشَّبت في مقعدي وأنا أراها تضع الصينية المعدنية فوق الطاولة وتأتي لتجلس إلى جواري، في موضع أقرب هذه المرة، وابتسامة هائمة تعلو ثغرها الملون بالوردي، تأجلت خطة هربي إلى ما بعد تناول الشاي، كان عليَّ الاستمرار قليلًا بعد كاتم الشعور القميء داخلي؛ لذا عاودت ارتداء القناع وقد عزمت على إنهاء الزيارة والهرب دون التفكير في العودة.

بدأت «مريم» تحدثني عن أخبارها، وكيف كانت بائسة باكية اليومين الماضيين، أشعرتني ببؤس فوق قدرتي على التحمل فاكتفيت بإيماءات نادمة، ثم انطلقت بدفة الحديث إلى مواضيع أكثر بهجة - في رأيها - لتلطيف الأجواء، تمثلت في الثياب الجديدة التي اشترتها:

- رغبت في أخذ رأيك فيها لكننا تشاجرنا قبل أن تُتاح لي الفرصة.

- أنا آسف.

- اشتريتها من مول شهير، كان رأي صديقتي أنها لن تناسبني، ليست لديَّ حقيبة تليق بها، لكنني أصررت على شرائها رغم أنها باهظة الثمن، أتدري لماذا؟

- لماذا؟

- رأيت سمر ترتدي مثلها، يا ألله! كم كانت رائعة!

- سمر مَن؟

- أنت لا تعرف سمر؟! عليك أن تتابع المسلسلات أكثر يا أحمد صدقًا، سمر بطلة مسلسل تركي أتابعه، لو أنك تراه معي، ستتعلم الرومانسية بحق، في إحدى الحلقات كانا يتنزهان معًا و.. يا ربي! كانت تلك لحظة رائعة.. أحمد؟

نظرت إليَّ بعينين لامعتين فبادلتها النظر متسائلًا، لكنني استدركت الأمر مذعورًا قبل فوات الأوان، كانت تقودني إلى فخ حواري رومانسي نسجته ببراعة حتى إنني لم أتنبأ به قادمًا، دق ناقوس الخطر في عقلي فحركت نظري مستغيثًا، حينها وقعت عيناي على ما لم ألحظه قبل الآن، كانت يد «مريم» اليمنى ملتفة برباط طبي، سألتها عن سببه بقلق لأُحوِّل دفة الحديث فرفعت يدها قليلًا مجيبة:

- قطع من سكين المطبخ، ليس عميقًا للغاية لكنه مؤلم.. سيشفى لا تقلق.

تمنيت لها السلامة دون أن تتحول عيناي عن اليد المضمدة، لا أعلم ما الذي دفعني كي أقدم على ما فعلته وقتها، ربما كنت متوترًا أكثر مما يجب أو شاردًا للغاية، أو ربما كانت إرادة القدر لا أكثر، دون أن أعير حديثها انتباهًا مددت يدي لأمسك يدها المصابة، لوهلة ظننت وظنَّت هي أنني اندفعت لا شعوريًّا بفعل الحب، كان هذا ليبدو جميلًا، لحظة

ث مراهق جذابة لولا أنني - دون مقدمات أو سبب - اعتصرت يدها المصابة بين أصابعي.

صرخت «مريم» ملتاعة، لكن صوتها ضاع وسط عاصفة عارمة من الكهرباء التي سرت بين أصابعي مرورًا بجسدي لترتطم بعقلي، وكأن امه انفلت، انطلقت موجة من المشاعر بتيار عكسي عبر عقلي إلى جسدي مغلفة إياي بدفء، وبرد، وغضب، وانتشاء، لم أعهد شيئًا كهذا من قبل، اضطربت كل خلية داخلي، ارتجفت، انقبض قلبي عن ذعر وانفرجت في ذات الوقت شرايين رئتيَّ حاملة شهيقًا أثلج روحي، ثم تجمّع حاملًا معه المشاعر، والكهرباء، والطنين؛ ليغادر على هيئة زفير أطلقته دفعة واحدة، تهاويت بعده في مقعدي ألهث غير قادرٍ على الحديث أو الاستيعاب.

جرت «مريم» إلى الخارج، واندفعت عائلتها إلى داخل الحجرة مستفسرين وقد تناهى إلى سمعهم صراخ ابنتهم الجالسة وحدها مع خطيبها المختل، فور أن رأى والدها ابنته الباكية نظر إليَّ مكشرًا عن أنيابه، صائحًا فيَّ أن أعطي تفسيرًا مُحترمًا لما حدث، أخبرته «مريم» وهي تبكي بما حدث، وهي ترمقني بنظرة حائرة غاضبة في الوقتِ ذاته.

لا أذكر جُلَّ ما قيل، لكنني أعرف أن كرامتي أُهينت بشراسة ولا ألومهم، كنت مسلوب التفكير حين بدأ والدها في السباب، وأشار إلى الخارج وقد فقد رشده آمرًا إياي بالمغادرة، عجزت عن الرد ونهضت مبلبل

الفكر لأغادر المنزل، عالمًا أنني لم أعد مرحبًا بي هنا مرة أخرى، هذا إذا ما سمح لي والد «مريم» بالبقاء على الخطبة أصلًا، صحيح أنني رغبت في الهرب، لكن حين رأيت مشهد ذهابي لم يكن بتلك الطريقة الفظة.

لم أستوعب ما حدث إلا حين صفعني الهواء البارد أسفل المبنى، امتد أمامي الشارع العامر بالمحال والناس فمضيت عبر البوابات المفتوحة أقطع الطريق دون أن أكترث أو أرى سوى أفكاري الخاصة، ابتعدت عن المنزل، عن مسرح جريمتي الأولى، كنت لا أعي إلى أين أمضي، ما هذا الذي حدث بالأعلى؟ لا أعرف، لِمَ أقدمت على إيذاء «مريم»؟ لا أعرف، الشعور الذي صرعني بقوة شاحنة نقل انفلتت مكابحها، ماذا كان ذلك؟ ليست لديَّ فكرة.

أنا لم أحاول إيذاء أحد من قبل، السادية ليست من طبعي، ربما أتحول إلى وغد أحيانًا لكن الإيلام الجسدي كان خطًّا أحمر بالنسبة لي، أرعبني تذكر ما حدث بالأعلى، وكوني لا أعرف سببًا منطقيًّا له، لكن ما أثار ذعري أكثر هو استمتاعي اللحظي به، صحيح أن الشعور زال لكن النشوة الغريبة تلك تركت خيطًا صغيرًا أبى أن يتلاشى، تمامًا كما يهرب العطر تاركًا أثرًا بالكاد محسوسًا من شذاه.

عند هذه الخاطرة تسمَّرت في منتصف الطريق، انفلتت من بين شفتيَّ كلمة واحدة: «يُمنى»!

كان اسمها هو آخر ما قيل قبل أن يعود وعيي ليرتطم بأرض الواقع بغتة، على صوت زعيق إطارات سيارة اندفعت خلفي بتصميم، بالكاد

التفتُّ كي أرى الأضواء الساطعة التي أعمت عينيَّ لمدة لا تزيد على نصف الثانية، من بين الأضواء لمحت عيناي رؤية لحظية لمن يجلس خلف المقود، عجزت عن امتلاك الوقت الكافي لتفسيرها.

قفزت مبتعدًا عن طريق السيارة في حركة بلهاء غريزية، ارتطم جانب قدمي بالرصيف فسقطت أرضًا، بالكاد عبرت السيارة جواري دون أن تصدمني، ابتعدت بضع خطوات ثم توقفت، السائق على ما يبدو ظنَّ أن سقوطي جاء نتيجة للاصطدام، حاولت النهوض مرتعدًا في ذات الوقت تقريبًا الذي فُتح فيه باب السيارة، امتدَّ رأس السائق إلى الخارج متفحصًا فريسته، ورفعت نظري نحوه، لم تلتقِ نظرتانا أكثر من دقيقة، شلتني بها الصدمة واتسعت عيناه جزعًا، اختفى رأسه داخل السيارة من جديد وسمعت المحرك يدور، نهضت بجسد مرتجف، كنت أعلم ما سيأتي، لكنني عوضًا عن الركض تسمَّرت في مكاني.. هل كان بوسعي التوقع؟؟ لا..

زعقت إطارات السيارة وانطلقت كرصاصة تجاهي، هذه المرة كان ما حدث حتميًّا.

شعرت بارتطام جسدي في المقدمة المعدنية الصلبة للسيارة، وشعرت بأحشائي تلتوي للداخل، ارتفع جسدي ثم هوي أرضًا بعنف، شلتني الصدمة فلم أشعر بالألم أو بأي شيء آخر سوى صرخات تفجرت حولي غرقت بعدها في سواد علمت أنه الموت، ورحبت به كرفيق طال انتظاره..

* * *

- ما زلت أحتاج إليك.

سطع الصوت عبر السواد.. لمست عطر «يُمنى» في الظلام دون أن أقوى على فتح عينَي، هل كان ما أشعر به الآن هو هلوسة ما قبل الموت أم هي حقيقة؟ هل كنت أهذي أم أن روح «يُمنى» أتت لزيارتي قبل أن تعود روحي إلى بارئها؟ عجزت عن التفكير، فقط همست:

- أنتِ كنتِ مُحقَّة!

تردَّد صداي في الفراغ فقالت:

- أحمد..

شعرت بروحي تعترض حين حاولت الانتحار، شعرت بها خائفة حين أوشكت على الموت، كانت روحي تصرخ طوال تلك السنين، لم يسمعها أحد سواكِ، ظنوا أنكِ مجنونة لأنكِ تتحدثين عن الأرواح، وحاولوا قتلي حين فهمت كلامكِ، لماذا؟

- بعض الأسئلة لا إجابة لها..

- لم تكن الـ «أتْمَا» هراءً كما قال حمدي، للأرواح وجود وبإمكانها إخضاع العقل، المشكلة أن البشر فقدوا الإحساس بأرواحهم فدفنوها.. أنتِ ترينها وأنا كذلك، الـ «أتْمَا» ليست فلسفة، الروح هي المادة الأولى للخليقة، البشر هم مَن حولوها إلى مجرد كلمات فلسفية كي يبرروا عدم بحث الأغلبية عنها.

- هل كنت تشك؟

- لا، لكن..

توقفت عن الحديث لثوانٍ ثم تابعت:

- حين آلمتها شعرت بالنشوة البغيضة وليدة أحلامكِ، لم تكن تخاريف عقلك الباطن يا يُمنى، شعرت بأنني أنزع عنها القناع، أردت منها أن تفيق وتراني ولو لمرة واحدة، لست قاسيًا لكنني تعبت من الزيف..

- لَم تؤلمها بل آلمت نفسك، الأجساد تُشفى يا أحمد بينما الأرواح هي ما يُعذب، مريم شعرت بجسدها وأنت أحسست بروحك.. أنت مَنْ يتألم.

- ألمها هو ما يُرى كما هي الحال دائمًا، لكن ألمي أنا لا أحد سيراه سواي..

- يمكنك العودة وإصلاح الأمور..

- العودة تعني قناعًا أرتديه فوق جسدي كي أُرضي الآخرين، ستبقى مريم مريم وستطأ فوقي دون أن تشعر مثلها مثل الجميع، لا لأنها قاسية بل لأنني غير مرئي.

أجابت بصوت متألم:

- أحمد..

- ألا تخشيني؟

- لا

- لماذا؟

- لأنني أرى روحك.

- يمنى، أنتِ ترين حطامًا لمن كان إنسانًا يومًا ما، ترين روحًا مكسورة ضاعت شظاياها بعيدًا عن أي أمل في الإصلاح.

- الأرواح المكسورة لا تسمع يا أحمد ولا ترى، الميت لا يبتسم أو يبكي، والمحطم لا يشعر، ألا تبتسم أو تبكي؟ ألا تشعر؟

قالتها فتجمّدت أفكاري للحظة، ثم ابتسمت دامعًا، مع «حمدي» ضحكت، في حجرتي بكيت، ومعها.. لا أدري، فرحت، تعجبت، ارتجفت، غضبت، تلهفت، ارتحت وتعبت.. لَم أكن مجردًا من الشعور، ربما لَم أكن مكسورًا بعد، لكنني أصبحت خائفًا من احتمالية كوني حيًّا، أو صالحًا، ما خشيته لم يكن إنكساري، بل كان بقائي؛ لذا وجدتني أناجيها:

- مريم لم يكن لها شذا..

ساد الصمت.. لم يكن لها شذا، لم أشم شيئًا، لم يأتِ الشذا الذي خبرتني عنه.. لماذا؟!

لم تُجب «يُمنى»، أردت الالتفات بحثًا عنها، لكن جسدي ظلّ ثابتًا كالطود، سمعت أنفاسها دون صوتها فعاودت القول:

- لماذا لم يرافق الشذا النشوة يا يُمنى؟ لماذا عجزت عن استحضاره؟ أهو واقع أم من وحي عقلك؟

- واقع..

قالتها بصوتٍ مُضطرب، فأسرعت خشية أن أفقدها من جديد:

- ما سبب عجزي إذن؟!

قطعتُ كلماتي بغتةً، ثم أضفتُ بألمٍ خافتٍ:

- هل تظنين أنني لا أمتلك روحًا في النهاية؟

مرت الدقائق تباعًا دون أن أجرؤ على الحديث من جديد، لكن حين بدأت أستسلم لغيبوبة الخواء أتى صوتها ناعمًا، باردًا، بعيدًا:

- لو لم تمتلك روحًا لما كنت رأيتني أو رأيتك.

- لماذا لم يأتِ الشذا إذن؟

- لا تبحث عنه يا أحمد، نعمته لعنة..

- لم لَم يأتِ؟

- ستفقد نفسك إن بحثت..

- ليس لديَّ خيار آخر.

- بل لديك..

صمتت «يُمنى» وطال صمتها، حاولت تحذيري لكنني رغبت في الإجابة فقط، دون تحذير أو حذر، إن عجزت عن الوصول للـ«أتْمَا» فسأدفع نفسي كي أصل، عجزت عن تخيل الطريق الآخر الذي تتحدث عنه ولَم أرغب بترك الفرصة لها كي تشرح للمرة الأولى، تعودت الفقدان فخشيت أن تعطيني أملًا آخر أفقده في نهاية المطاف، شعرت بذعرها

حين أدرَكت أنني سأخطو في طريقٍ خطت فيه قبلي، حين تأكدت أنني لن أرى سوى طريقٍ واحدٍ، لَم يكن الأمل هو ما أبحث عنه، بل كان مبررًا للانكسار، «يمنى» رأت هذا لكنها لم تجد بدًّا من الإجابة.

عندما هَلَّ صوتها كان مختنقًا لكنه ظل ثابتًا، بكت لكنها قالت:

- لَم يأتِ الشذا لأنك لَم تكن قاسيًا بما يكفي..

ثم غاب صوتها ومعه تسرَّب وعيي تاركًا السواد، عودة إلى أرض الواقع المؤلم من جديد.

* * *

سمعت كثيرًا أن مَنْ يمر بتجربة موتٍ وشيكٍ يرى شريط حياته مارًّا أمام عينيه، يبدأ بالهذيان ثم يبتسم مغمضًا عينيه ليلحق بالوجوه المبتسمة إلى دائرة الضوء، الآن فقط علمت أن مَن اخترع هذه المقولة مُصاب بالخبال، الموشكون على الموت لا يسيرون نحو الضوء، المخطوفون مِن قِبل كائنات فضائية في الأفلام الرخيصة فقط هم مَنْ يفعلون.

لا أدري كم من الوقت غبت عن العالم، ولم يكن شريط حياتي هو ما مر أمام عينيَّ، بل الأضواء الفلوريسينتية القوية لمصابيح في سقف أبيض هو ليس بالتأكيد سقف الجنة، لا أظن أن الجنة تحتوي على مصابيح، أو تفوح برائحة المُطهر.

لم أمت إذن، كنت أرقد عاجزًا عن الحراك فوق فراش ما كما استشعرت يدي، هنالك طعم مالح مثير للغثيان في فمي حاولت طرده

لكنني عجزت عن الفصل بين شفتي الملتصقتين بالقشور، آلم الضوء عينيَّ فأشحت بوجهي حتى أستفيق دون أن أصاب بالعمى.

لوهلة لم أتبين أين أنا بالضبط، وتاه عن ذاكرتي ما حدث، أذكر لمامًا شيئًا بخصوص سيارة، صوت، رجفة، حديث لا أدري هل دار في خيالي فقط أم أنه اختلط بانعدام وعيي فبدا وهميًّا، احتجت إلى بعض الوقت حتى تجمعت الصورة مرة أخرى في عقلي، كنت قد استفقت حينها وبدأت أدرك الموجودات حولي.

بدت حجرة المستشفى فخمة؛ لأن المصباح فوق رأسي لم يتذبذب ولو لمرة واحدة، كما أنني - والحمد لله - لم أرَ صرصورًا واحدًا فوق الجدار، هذا كان يعني شيئًا واحدًا، التفتُّ إلى جواري باحثًا عنه، وبالفعل تبينت الجسد الغافي على أريكة داكنة بمؤخرة الحجرة.. «حمدي».

ابتسمت ممتنًّا، وشعرت بالراحة كونه هُنا، تحركت بحذر خشية الألم لكن المخدر كان يعمل جيدًا على ما يبدو؛ لأنني لم أشعر سوى بالدوار، استرخيت بالفراش قليلًا حتى تتزن أنفاسي، وفكرت بالنداء على «حمدي» طالما استيقظت بالفعل، كان هنالك الكثير ليُحكى، ورغبت في الربط بين الفجوات بعقلي، كنت مستعدًّا لاستدعائه لو لا أن أتت بعقلي فكرة أخرى.

ابتسمت بخبث، وبدأت أعتدل جالسًا مقاومًا الدوار، ثم انحنيت نحو منضدة مجاورة للفراش ترقد فوقها منفضة سجائر بلاستيكية صغيرة من

شأنها أن تحدث ضجة مُحترمة تكفي لإيقاظ «حمدي» مذعورًا.

بدأ شيطان نفسي يقهقه عندما تخيلت تعبيرات الرجل عندما ألقي بالمنفضة نحوه، انتابني الألم قليلًا جرَّاء حركتي فاحتملت محاذرًا ألا تنفصل إبرة المحلول عن ذراعي التي تحاشيت تحريكها رغم أنها كانت الأقرب إلى المنضدة، انحنيت أكثر، حينها صرعني ألم حارق التهم نصف جسدي الأيسر بالكامل.

ضغطت على أسناني وأغلقت عينيَّ عائدًا إلى موضعي الأصلي وأنا ألهث منتظرًا أن يزول الألم، كانت فكرة المنفضة غبية على أي حال، تخليت عنها، وفضَّلت انتظار زوال الألم كي أتمكن من مناداة «حمدي»، وبعد ثوانٍ زال الألم، لكنني حين فتحت عينيَّ ورأيت ما كان شرشف السرير الأبيض يخفيه قبل دقائق، فقدت قدرتي على نداء «حمدي» أو أي شخص آخر.

علمت لِمَ تم حقني بهذه الكمية من المخدر، علمت لِمَ لم أشعر بالألم إلا حين تأهبت للحراك، وعلِمت في تلك اللحظة أيضًا أن الحادث لم يمضِ دون ثمن، بل مضى حاملًا معه قطعة من جسدي ترقد بقيتها الآن مشوهة أمام ناظري.

كان نصفي الأيسر مضمدًا بالكامل، لكن الضمادات انتهت عند ركبتي، ولم يكن هناك شيء أسفلها، لا ضمادات ولا ساق من الأساس.. فقدت ساقي، لقد فقدت ساقي!

تسمَّرت مشدوهًا أنظر إلى الخواء الذي كان يومًا ساقًا أرتكز إليها، لم يكن هذا كابوسًا، تمنيت أن يكون كابوسًا، لكنني كنت أعرف أن هذا ليس كابوسًا، بل هو ببساطة المرحلة الجديدة من لعبتهم القذرة.

ودون إنذار انطلقت صرخاتي تمزق صمت الحجرة.

* * *

- استهدى بالله يا أحمد، لا تكفر، هذه مشيئة الله.. ما زلت سليمًا والحمد لله، غمة وتزول ثم ستخرج أفضل مما كنت.

حاول «حمدي» الابتسام لتشجيعي، فلم يجد القبول بل أجبته بسخرية هستيرية:

- ما زلت سليمًا! تعني بها فقداني لساقي صحيح؟! هل من المفترض أن أضحك الآن؟!

بدا الألم على وجهه فأشاح بنظره عني، لكنه عاود الابتسام بسرعة وقد أدرك أن من واجبه مؤازرتي لا الغضب مني:

- أنت أقوى من هذا، كلانا يعلم أنك ستخرج من هُنا..

قاطعته صائحًا:

- هلا توقفت عن هذا الهُراء رجاءً!

- كان من الممكن أن يحدث ما هو أسوأ، «جت سليمة»، الحمد لله.

انتفضت صارخًا:

– أسوأ! أسوأ من ماذا؟! أصبحت معاقًا لعينًا يا حمدي، انظر! هيا لا تبعد وجهك وانظر، هل يبدو لك هذا خيرًا؟! هل أبدو لك بخير؟! فقدت ساقًا لعينة أيها الـ...

ضغطت بيديّ حول رأسي، وأجبرت نفسي على الصمت، عالمًا أنني أهينه رغم أنه لا ذنب له فيما حدث، لكن لم يعد بوسعي الهدوء، رغم أنهم حقنوني بالمزيد من المخدر لتهدئة ثورتي بعد أن اندفع الجميع إلى حجرتي مذعورًا من الصراخ، لكن المخدر عجز عن إسكات الألم الذي يعتمل في صدري.

رغبت في الصياح، والسب، وتكسير أي شيء جواري، وخنق أي شخص تسوّل له نفسه بتوجيه الحديث إليّ، تسارعت ضربات قلبي إلى حد أنني كتمت أنفاسي أكثر من مرة في انتظار أن تتوقف العضلة اللعينة عن ضخ الدم إلى وعيي؛ لكنها أبت أن تفعل، كنت هُنا، حيًّا، ناجيًا، ومعاقًا.. تنحنح «حمدي» من جديد ووضع يده الثقيلة فوق كتفي، بالكاد أرغمت نفسي على عدم الإطاحة بها:

– وحد الله يا أحمد! لا تُفكر بهذه الطريقة، أنا لن أدعي أنني أعرف ما تشعر به، لكنك لست وحدك في هذا، تحلَّى بالصبر والإيمان يا صديقي، فكر بإيجابية أو.. لا أدري، ألا تظن أنك نجوت لسببٍ؟ الله نجاك من الحادث لسببٍ ما يا أحمد..

قاطعته قبل أن يسترسل بصوتٍ جاء مكتومًا من بين كفيّ:

– لم يكن حادثًا.

ساد الصمت، توقف «حمدي» عن الحديث، وشعرت بيده تنزاح عن كتفي، لكنني لم أرفع وجهي من بين يديَّ إلا حين قال أخيرًا:

– ماذا تعني؟ عمَّ تتحدث؟!

– لم يكن حادثًا، السيارة كانت تنتظرني عندما خرجت من بيت مريم وصدمتني عن عمد.

بقي «حمدي» مشدوهًا، فأضفت بسخرية مريرة:

– لا أظنه سيكون سعيدًا للغاية بخبر نجاتي، ابن الـ «...» هذا.

– أنت رأيت من صدمك؟!

تجهَّم وجه «حمدي» أكثر حين أومأت، وحين استفسر عن هوية المجرم أجبته ببساطة تامة:

– رأيته.

صرخ «حمدي» بنفاد صبر:

– أجل رأيته ثم ماذا؟ مَن هو؟

– لا علم لي باسمه لكنني رأيته من قبل، مرتان على أقل تقدير.

– و...؟

- هـذا أحـد المكلفيـن بحراسـة «يمنـى»، أحـد رجـال الأمـن التابعين للمصحة.

عجـز «حمدي» عـن الـرد وإن بقي يرمقنـي بنظرات جمعـت ما بين البلاهة و الدهشة، فعقبت:

- لا تسأل هل أنت متأكد لأنني متأكد أجل، بوسعي تقديم وصف لأحد الرسامين أو ما شابه إن أردت، لكنني أعرف الرجل، لست مخطئًا.

- أحمـد.. نحن نتحدث عن محاولة قتل، أنـت تعلم جيدًا أبعاد ما تتفوه به الآن صحيح؟

صحت بنفاد صبر:

- باللـه عليـك يا حمدي.. لـو كان مجرد حادث لِمَ سـيتوقف ليتأكد من كوني أصبت أم لا ثم يعاود الكرة بدلًا من الهرب؟

عجز «حمدي» عن الرد، ظل صامتًا كعادته حين يسـتغرق في أفكاره الخاصة ثم نهض، قبل أن أتسـاءل عن وجهته كانت سماعة الهاتف فوق أذنه، وبلهجه رسمية استدعى الرسام الجنائي.

* * *

اسـتلقيت أُحدق في السـقف الأبيض بلا مبالاة، حاولت حصر عدد الساعات التي قضيتها بين الوعي واللا وعي هنا، قرابة اثنتي عشرة ساعة، نصف يوم تقريبًا.

كان «حمدي» قد انتهى من استجوابي للمرة السابعة عما حدث - بعد نقاشنا الأخير - قبل أن يصل الرسام، أعطيته أدق وصف تمكّنت ذاكرتي من اسـتدعائه، ثم غادر الرسـام ومعه لوحة لا بأس بها لوجه المشـتبه به، غادر «حمدي» أيضًا، لم يعد إلا بعد سـاعات قضيتها مستسـلمًا لمفعول المسكنات التي حقنوني بها.

كان «حمـدي» مكفهر الوجـه حين أتى، وعندما حاولت الاستفسـار عمّا يحدث سـبَّني وغـادر من جديد ليغيب عدة سـاعات أخرى، لَم يعد إلى المستشـفى إلا منذ ما يقرب من ربع الساعة فقط، ولم يتحدث معي، عرفـت أنه عاد من صيحاته التي انطلقـت أمام باب حجرتي لا أدري إلى مَنْ يوجهها، اسـتمرت سـيمفونية «حمدي» بالخارج متقلبة بين سيل من الشـتائم أو الأوامر التي لم أتبين معظمها، لكنني علمت أن الحوار يدور في أغلبه عني، بدأت أشعر بالخدر بعد فترة وانزلق صوت «حمدي» إلى مؤخرة عقلي لأغمض عيني سامحًا لعدد لا بأس به من الأفكار باغتصاب عقلي، تنوعت لكن جميعها صُبت في قالب واحد..

حسـن قـدري كان خلـف ما يحـدث، «حمدي» سيكتشـف هـذا أو اكتشفه بالفعل لا أدري، لكن التفسير الوحيد لتواجد رجل أمن المصحة لمحاولة قتلي كان «حسـن»، رجل الأمـن بالتأكيد ليس معجبًا بـ «يمنى» مثـلًا، أولئك لا يفقدون عملهم لمجـرد وقوعهم في الإعجاب فما بالك بارتكاب جناية!

لا، ليس الأمر مصادفة، «حسن» خلف ما يحدث بشكل أو بآخر.

زفرت بضيق وأنا أحاول تصفية ذهني، شعرت بالهدوء التام بعد الهستيريا التي انتابتني سابقًا، ليس الأمل أو الرضا، بل الهدوء فقط، توقعت أن يحاول الرجل إبعادي عن الساحة أو إيقاف عملي داخل المصحة، لكن أن يقدم على قتلي! ما زال ما حدث غير مفهوم، لكنه وإن عني شيئًا، فهو يعني أن الأمور أكبر مما كنت أتوقع.

لا يتعلق الأمر بانزعاج كوني اطلعت على ملفات «يُمنى»، أو كوني تخطيت بضع مراحل بيروقراطية من أجل الوصول إلى تصريح بإجراء جلسات، الرجل حاول قتلي وهذا يعني شيئين لا ثالث لهما: أن موضوع «يُمنى» كان أكبر مما توقعت كي يحاول باستماتة إقصائي، لا يتعلق الأمر بمريضة غريبة الأطوار قَتَلت، إلا إذا كانت ابنته ويحاول الدفاع عنها مثلًا، لا.. هناك خيط خفي لا أفهمه أو أغفلته في حديث «يُمنى» هو على قدر من الخطورة تكفي ليحاول رئيس المصحة التابعة له قتلي.

يبدو أيضًا أن «يُمنى» قد منحتني خلال حديثها القدرة على اكتشاف شيء ما، أو ربما أخبرتني به دون أن أنتبه كفاية؛ لذا بتُّ أُشكّل تهديدًا.. هذه كانت النقطة الثانية والأهم، كيف أشكل تهديدًا ولماذا؟ ما الذي أعرفه ولا يتعين عليَّ معرفته؟ لِمَ وُضِعت جائزة على رأسي؟

في هذه اللحظة فقط انتبهت إلى نقطة كنت قد أغفلتها دون علم مني.

اعتدلت في فراشي متجاهلًا الألم وإن شعرت بالذعر، صحت مناديًا «حمدي» بأقصى ما استطعت من قوة وتمنيت أن يسمعني، هيا

يا «حمدي»، هيا يا زفت، استمرت الضوضاء قادمة من الخارج فصحت من جديد وانحنيت ألتقط منفضة السجائر من جوار الفراش لأقذف بها نحو الباب، ارتطمت بالعارضة الخشبية بقوة تلاها صمت قادم من الخارج، خبا صوت «حمدي» ثم صفع الباب متجهًا إلى داخل الحجرة ظنًّا منه أن سوءًا قد وقع لي، كان وجهه ذو العروق النافرة ينظر إليَّ برعب فصحت به:

- ماذا قلت لرجالك؟

بقي في مكانه لحظة غير قادر على استيعاب غضبي، فعاودت الصياح:

- ماذا قلت؟

وقبل أن ينطق صرخت غير قادر على السيطرة على أعصابي:

- هل أمسكتم بالرجل؟

أومأ «حمدي» فتابعت:

- هل استدعيتم حسن قدري؟

بدت الدهشه جلية على وجه «حمدي»:

- لماذا..؟

- حمدي بالله عليك أجبني!

- أصدرت أمرًا بالقبض على رجل الأمن ذاك من أجلك، لكننا لم نصل إلى أي شيء، الرجل تبخّر، اختفى أو خبأه حسن، ليست لدينا فكرة إلى أين ذهب.. لكن البحث عنه ما زال جاريًا..

- ما الذي قلته بالهاتف؟ ما الذي أخبرتهم به؟

- أمرتهـم باسـتجواب كل مَـنْ لـه علاقـة بالرجـل، عائلتـه، أصدقاؤه، جيرانه.. كل مَنْ له علاقة به سيتم سؤاله، سننقّب الأرض بحثًا عنه إن استدعى الأمر، وفور أن يقع تحت أيدينا سيسـقط حسن أيضًا، أحمد ما الذي..؟

صرخت بقوة مقاطعًا إياه:

- أعطهم الأمر بالتراجع، أرجوك يا حمدي.. مُرهم بالتراجع.

- لكن..

- سيعلم أنني على قيـد الحياة يا حمدي، لو عـرف أننا نبحث عن رجل الأمـن سـيعرف أنني مَـنْ أخبركم، وسـيدرك أن خطته فشـلت، كانت فكرة غبية، مُر رجالك بالتراجع.

- غبيـة! الرجـل حـاول قتلك، هل تظننـي أتيت بالرسّـام للحصول على صـورة لوجـه الجاني كي أعلقها علـى حائط منزلي؟ مـا أدراني أنه لن يكرر محاولة قتلك لإسـكاتك نهائيًا؟ أنت ما زلت في خطر يا أحمد.. ما دام هذا المجرم طليقًا فأنت في خطر.

- أنت قلت إنه اختفى يا حمدي!

- لا أحد يختفي إلى الأبد..

- بإمكانك أن تبحث عنه دون إحداث ضجة تصل إلى أذني حسن..

- كيف أبحث دون استجواب! أنا لست دجالًا..

ظل يرمقنـي ببلاهة، فكررت رجائي وقلبي يخفـق بعنف، حينها قال بحشرجة:

- أحمد.. لقد انتهى الأمر بالفعل.

سـرت بجسـدي رجفة إثر كلماتـه، ثم ارتميت للخلـف وقد أخفيت وجهي بيـديَّ في محاولة للسـيطرة على نفسـي، بينما بقـي «حمدي» المشدوه ينتظر جوار الباب حتى قال:

- هل أنت بخير؟

أفلتت مني ضحكة ساخرة، فتابع بقلق:

- أحمد.. هل أحضر الطبيب؟

- ما الذي تعنيه بـ« انتهى الأمر بالفعل»؟

قلتها فجأة، وأنا أبعد يديَّ عن وجهي، وقد أدركت الكلام توًا، لم يبدُ على «حمدي» أنه فهم فأوضحت وأنا أعاود الجلوس:

- أنت أخبرتهم أن يعتقلوا الرجل، ثم اكتشفت أنه فر فطلبت منهم البحث عنه، لِمَ تشاجرت معهم بعد أن نفذوا أوامرك إذن؟!

- أمرتهم باستجواب كل مَنْ له علاقة برجل الأمن الهارب..

ضاع اللون من وجه «حمدي»، وأخفى يديه بجيبيه كعادته حين يشعر بالتوتـر، شـعرت بالانقباض حين قـرأت تعبيرات وجهـه لأقول بصوت مبحوح:

- أنت وضعت حسن أيضًا ضمن دائرة التحقيق، أليس كذلك؟

أومأ حمدي بقلق، فتابعت:

– واستجوبه رجالك بالفعل؟ لكنهم لم يجدوا ما يدينه!

– سبق وأخبرتك.. الحارس اختفى، كان علينا استجواب حسن بصفته رئيسه بالعمل، حين قلت «كل مَنْ له علاقة بالحارس» كنت أعني ما قلته حرفيًا.. ثم إننا، أنا وأنت، نعلم أن لحسن يدًا فيما حدث، مَنْ سيُخفيه سواه؟

– لكن حسن أنكر..

– نعم، واضطررنا لتركه لكنه وُضع تحت المراقبة مثله مثل الجميع..

– لعبها صح ابن الـ «...»

– أحمد..

– وهو الآن يعلم أنني على قيد الحياة، وأنني ربطت بينه وبين الحادث؟

لم يستطع «حمدي» الرد، ولم أكن أنتظر رده من الأساس، أشحت بوجهي تجاه النافذة المظلمة بجانب الحجرة، وأطلقت سبابًا غرقت بعده في مزيج من اليأس والقلق.

* * *

الفصل التاسع

مضت الأيام التالية بطيئة؛ لكنها حملت الكثير من الأحداث التي كان أساسها إعادة تأهيلي جسديًا بعد فقدان ساقي، وإعادة تأهيلي نفسيًا بعد أن علمت أنني قد أصبحت مستهدفًا الآن.

لحسن الحظ غفل «حمدي» عن إبلاغ أهلي أو مريم بما حدث لي، فلم يأتِ أحد لزيارتي أو إمطاري بعلب الشيكولاتة التقليدية متمنيًا لي الشفاء وهو يرمقني بشفقة لا حبًا فيَّ، بل سعادة بأن ما حدث لي لم يصبه هو.

صباحًا انشغلت ببرنامج نظمه المستشفى لتدريبي على استخدام ساق اصطناعية والسير بواسطة العكاز أو الاعتياد على الكرسي المتحرك، كان عليَّ ابتلاع – إلى جانب المسكنات – كمٍّ رهيبٍ من الغضب، والبؤس، واليأس، وكراهية أنني أصبحت عاجزًا، شيء واحد فقط أعطاني القوة لأكمل.. الرغبة في الانتقام.

لذا تحليت بالصبر حين سقطت للمرة الأولى، وحين أصاب الساق الصناعية خلل فعجزت عن المشي، علمت أن «حمدي» بطريقة ما غفل عن إخباري بمدى سوء إصابتي؛ فالأمر لا يقتصر إذن على بتر ساقي، بل هناك أضرار أخرى تجاهل إخباري بها؛ إذ لم يذكر لي شيئًا عن كُليتي التي

أتلفتها الصدمة، ويبدو أنه ترك هذه المهمة للأطباء، لكنني في النهاية «لم أعلق حين اقتادوني إلى إحدى الحجرات لإجراء غسيل لدمي بواسطة كلى صناعية بدلًا من تلك التي فقدتها»، بقيت صامتًا طوال الوقت، وانفصلت بعقلي عن واقعي كي أتوقَّف عن المعاناة نفسيًا.

لم يعد «حمدي» يفارقني إلا بضع ساعات نهارًا، ثم يعود جالبًا لي غداءً محترمًا ليجلس جواري يحدثني ويستمع إليَّ.

على عكس الآخرين لم يكن «حمدي» يشفق عليَّ، كان يعلم أنني أحتاج إلى العون لا الشفقة؛ لذا تخلَّى عن التعليقات الساذجة حول سعادته بتحسُّني أو سؤالي كيف أشعر وكل هذا الهراء، واكتفى بنبذة مختصرة عن مدى تقدمي في استخدام الأجهزة الجديدة التي اكتفيت دائمًا بكلمة «أفضل» كرد على سؤاله.

في اليوم التالي لاستفاقتي أخبرته بكل ما حدث مُنذ أن غادرت مكتبه أول مرة حاملًا ملف «يُمنى» إلى أن وجدني راقدًا فوق الأسفلت بين الحياة والموت، لم أغفل تفصيلة واحدة هذه المرة، بل وسلَّمته مفاتيح شقتي، وطلبت منه جلب المسجل الذي لم يعد يفارقني بالإضافة إلى كل الأوراق التي فرَّغت عليها تسجيلات الجلسات حتى الآن.

سلَّمته الأوراق بعد أن رتبناها معًا، وطلبت منه أن يقرأها، قلت إنها ستساعده على فهم كل شيء، لم يعد هنالك داعٍ للاحتفاظ بأسرار طالما ينوي مساعدتي، تسلم الأوراق مني دون تعليق، وانزوى جانبًا يقرأ

تركيز، تركته يطلع على ما كنت أعرفه بالفعل واكتفيت بالنوم لإراحة عقلي قليلًا.

تقلَّبت قلقًا فوق الفراش كثيرًا، ونهضت من نومي مفزوعًا شاعرًا بالخطر، لكنني كلما تلفَّت حولي كنت أجد نورًا مضاءً جانبي بالحجرة، حيث يجلس «حمدي» الذي لا يرفع وجهه عن الأوراق، أتعجب ثم أعود إلى نومي؛ لأستيقظ فزعًا من جديد وأرى ما رأيت سابقًا مرة أخرى.

***

مضت خمسة أيام الآن، أصبح «حمدي» بمثابة ظلي وعقلي الثاني، صرف زوجته إلى أهلها بعد أن شرح لها الوضع، وقام بتفريغ شقتي من أي أثر تابع لعملي يمكن أن يسبب لي خطرًا ما إن قرر أحدهم اقتحامها، وحين اعتدت استعمال الساق الجديدة وأصبحت قادرًا على الحراك بحرية أكبر، قررت إدارة المستشفى أن موعد خروجي قد اقترب، وصارحني «حمدي» بقرار وجوب انتقالي إلى شقته حتى تُحل الأزمة، حاولت الاعتراض لكنه كان مصرًّا كالكابوس فوافقت مستسلمًا.

ما زلت أستيقظ قلقًا بين الفينة والأخرى حين ينتصف الليل، وأتذكر كوني مُعرضًا للقتل في أي وقت. لكن رجال «حمدي» - كما أخبرني - لم يتوقفوا عن مُراقبة حسن قدري ولو للحظة، الرجل كان يُمارس حياته بشكلٍ طبيعيٍّ تمامًا، كان هذا مثيرًا للغيظ، عجز فريق الأمن التابع لـ«حمدي» عن إيجاد الحارس، أو التوصل إلى معلومة مفيدة بشأنه، لو كانت الأشباح تقتل لاقتنعت - فعلًا - بأن الرجل الذي صدمني لم يكن

سوى عفريت وليس بشرًا، أجاد «حسن» لعبته، وأجاد التظاهر بالبراءة لم يعد الحارس بالنسبة له سوى بيدق منتهي الصلاحية، «حسن» عرف أن سجنه يعني سجن كل مَنْ له علاقة بالهارب، هذا يتضمن عائلة وأصدقاء، وزملاء عمل الرجل، لا تستطيع الشرطة القبض على العشرات من أجل مجرمٍ واحدٍ فارٍّ دون دليل إدانة لهم؛ لذا سيبقى الجميع تحت ملاحظة مؤقتة خارج أسوار السجن، حيث يستطيع استكمال مخططاته بعيدًا عن الأضواء..

كنت في أمانٍ مؤقتًا، ولم أعد أحمل همًّا سوى اكتشاف الحلقة المفقودة التي أدت إلى كل ما حدث؛ لهذا السبب استمعت إلى التسجيلات عشرات المرات باحثًا عن شيء أغفلته في المرات السابقة، كلمة، أو تلميح قالته «يُمنى» وسط حديثها من شأنه إنارة طريقي.

في كل مرة كنت أنتهي عند الطريق ذاته، لا شيء غامض في حديث «يُمنى» سوى أمر هذا الشذا الذي علمت كيفية استحضاره، في البداية كنت أغفل هذه النقطة ظنًّا مني أنها محض استفاضة في تفسير أحلامها، لا تمثل أكثر من وصف شعوري لحالة مرت بها أثناء كابوس لديها، رُبما هي مهمة بالنسبة إليها أو إلى إلمامي بشأن حالتها عمومًا، لكنها بالتأكيد لا شأن لها بما أنا فيه الآن.

لكن تفكيري بدأ يتغير شيئًا فشيئًا كلما أسهبت في الاستماع إلى روايتها، تذكرت زيارتي السرية لها حين صارحتها بأمر القتل، هذه الليلة

أثارت لي أمر الكوابيس والشذا، المرة التالية أيضًا ذكرت نفس الشيء، لكنها أنهت حديثها بـ«هذه المرة علمت كيفية استحضاره».

حاولت تفادي التفكير فيما حدث بيني وبين «مريم» لكن إنكاري الوقائع ما كان سيفيدني؛ لذا تركت العنان لأفكاري متذكرًا – بالتفصيل – ما أقدمت عليه في منزل خطيبتي البائسة، «يُمنى» لم تحظَ بالوقت الكافي لتخبرني بطريقة الاستحضار، من ناحية أخرى كان ما اختبرته مشابهًا إلى حدٍّ كبيرٍ لما وصفته هي، مع اختلاف واحد هو أنني لم أشم شيئًا، شعرت لكن من دون شذا.

إذن يمكنني بقليل من الخيال ربط الاستحضار بالرغبة في الإيذاء، لكن هل توصلها رغبتها في إعادة ذلك الـ«شذا» إلى الإقدام على القتل؟ إن كان الأمرُ هكذا؛ فهذا يعني أنني بدأت أقترب من الخيط الخفيِّ، لم أصل له بعد؛ لكنني كنتُ قريبًا.

كان هذا أبعد مدى يمكنني الوصول إليه، أي استنتاجات أُخرى ستصبح محض تخمينات؛ لذا لم يكن هنالك خيار آخر، في هذه المرحلة كان عليَّ سؤال «يُمنى» نفسها، هي الوحيدة القادرة على حل العقد عن حبل أفكاري.

* * *

- هل أنت مجنون؟!

صاح «حمدي» متسببًا – وقد انتفض من مكانه – في سقوط نصف كوب الشاي فوق سرواله، احترقت ساقاه فصرخ ألمًا محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، انتظرت أن يعود إلى هدوئه قبل أن أرد:

– هل ترى خيارًا آخر مُتاحًا أمامنا؟

– الهرب؟ مثلًا؟

قالها حانقًا فبدأت عروق جبهته تنبض، حرّكت يدي مشيرًا له أن يهدأ، وتابعت بأقصى قدر ممكن من الثبات كي أخفف من روعه:

– ليس هذا أمرًا يمكننا الهرب منه، اسمع يا حمدي.. لا تُقاطعني أرجوك، انتظر واسمع فقط، حتى لو انسحبت الآن، هؤلاء القوم أصبحوا واثقين أنني أعلم أكثر مما يجب، أتظن أنهم سيتركونني وشأني لمُجرد أنني اعتذرت وتراجعت هاربًا؟

فتح فمه ليجيب لكنه أعاد إغلاقه، وقد تجهّم حتى ظننت أن حاجبيه على وشك السقوط، أسرعت لاستغلال هذه الفرصة فتابعت:

– أنت جواري يا حمدي، وأنا شاكرٌ لك هذا، لكن في لحظةٍ ما ستتركني، لديك عمل وعائلة وأنت لن تتخلى عن كل هذا من أجلي لأنني لن أسمح لك، سترافقني إلى متى؟ أسبوعًا آخر؟ أسبوعين؟ شهرًا؟، أنت رأيت كيف يتصرف حسن قدري منذ الآن، الرجل ليس غبيًا، في المرة القادمة سيكون أكثر حذرًا، وعندها...

توقفت عن الكلام وأشرت إلى رقبتي بعلامة الذبح فرد «حمدي» دون تفكير:

– يمكننا تلفيق تهمة ما له وسجنه...

– لا تكن أبلهًا، سيفلت كما أفلت من قبل.

– لا تستطيع العودة إلى هناك يا أحمد، سيقتلونك.

– لا، لن يتمكنوا من إيذائي إن هاجمتهم في عقر دارهم، ولن يخاطروا بجلب الأنظار إليهم، إذا أرادوا قتلي فسينتظرون إلى أن أبتعد حتى تتم تصفيتي بهدوء.

صمت حمدي يقلب الحديث برأسه؛ فانتظرت كي لا أضغط عليه، بعد وقت لا بأس به قال:

– إذن نعود؟

– إذن نعود.

* * *

عبرنا الأبواب الزجاجية المزدحمة معًا، أنا فوق الكرسي المتحرك أتلفت حولي مصطنعًا اللا مبالاة، و«حمدي» خلفي يدفع المقعد راسمًا ابتسامة واثقة فوق شفتيه الغليظتين، رمقنا البعض بفضول والآخرون بدهشة، لكن التعبيرات التي كانت لا تُقدَّر بثمن تلك التي ارتسمت على وجه الدكتور حسن قدري حين فوجئ بنا نصعد إلى أعلى عبر الممر المُخصص لذوي الاحتياجات الخاصة، هل رأيت فأرًا يتسلل إلى صندوق قط من قبل؟ لا ؟ الآن ترى!

حيـن اسـتفاق من الصدمـة تقدم نحونـا فتوقفنا في اسـتقباله، صافح «حمدي» مبتلعًا دهشته، ورمقني بنظرة خاوية فابتسمت بتشفٍّ.

- مرحبًا د. حسن.

حرَّك رأسه تحيةً لي ليقول:

- آسف لما حدث لك، من الجيد رؤيتك معافى دكتور أحمد.

ضحكت بوقار:

- أمثالي بسبعة أرواح دكتور.. لا تقلق!

اضطـر للابتسـام، وتابـع بلهجـة مسـمومة وهـو يعقـد ذراعيه خلف ظهره:

- أتمنى لك الشفاء، أستاذ حمدي هل يمكننا الحديث رجاءً؟

قالهـا طالبًا بعـض الخصوصية، فأجـاب «حمدي» بذات الابتسـامة المسمومة:

- إن كان هذا بشـأن قرار مجلس إدارة المصحة بحد الزيارات فلا تقلق، لديَّ تصريح رسمي بإجراء المقابلة.

بـدت الصدمـة على وجهه، فحاولت منع نفسـي مـن الضحك حين أخرج «حمدي» الأوراق المختومة داسًّـا إياها أسـفل أنفـه تقريبًا، التقط الطبيب المستندات بيدٍ ثابتة لكنه لم ينظر إليها، بل قال ببرود:

- أظنني تناقشت مع السلطات بهذا الأمر، يُمنى غير مؤهلة عقليًا للدراسة من قِبل طبيب متمرن أستاذ حمدي.

- أعلم، هذا ليس تصريح دراسة؛ بل هو تصريح رسمي من جهة أمنية لي بالتحقيق مع يُمنى باعتبارها شريكًا مُحتملًا في التحريض على جريمة قتل.

هربـت الدمـاء مـن وجـه الطبيـب، وعجز هـذه المـرة عـن التظاهر بالتماسك، بل جاء صوته على غير العادة يحمل توترًا ملحوظًا:

- جريمة قتل؟ مَن؟

- أنا..

هـذه المـرة أتـت الإجابة منـي، وأنا أرمـق د. «قدري» بنظـرة إصرار وتشفٍّ.

* * *

كانـت تلك الخطـة من ابتكار «حمـدي»، ظلَّت تختمر فـي عقله من اللحظة التي تركنا فيها المستشفى حتى صباح اليوم التالي، حينها فاجأني بما كان يفكر فيه طوال تلك الفترة:

- إن كنا سـنلعب تلك اللعبة فعلينا اللعب بقواعدهم، كان بوسـع قدري الاكتفاء بإقصائك عن طريق مجلس إدارة المصحة؛ لكنه فضل الطريقة القذرة، الآن بوسعي استخراج تصريح لك بمتابعة الجلسات مع يُمنى في وجود طرف أمني مُراقب على أن أقدم تقريرًا أسبوعيًا إلى الجهات المعنية بما يدور بينك وبين الفتاة أثناء تلك المقابلة.

- رائع..

أشار لي بالصمت بجدية ليُتابع:

- يمكنني القيام بهذا، لكن هذا تحديدًا ما لن أفعله.

لم أرد، فاعتدل وبدأ الشرح:

- سأستخرج تصريحًا، لكنه لن يكون لك، بل لي أنا، كي أضمن ألا يحاول قدري إقصاءك أو تلفيق تهمة ما لك، وكي أضمن أيضًا أحقية مرافقتك بنفسي هناك، سأصطحبك إلى مكتبي صباحًا كي نفتح محضرًا بشأن الحادث، يمكنني إثبات الواقعة لأنني مَنْ أدخلك إلى المستشفى، ستروي ما حدث بالتفصيل لكنك لن تذكر شيئًا عن رؤيتك لرجل الأمن بالسيارة؛ لأننا سنضع مكانه شخصًا آخر.

- مَن؟

- أدهم.

اتسعت عيناي دهشة فتابع:

- اسمعني جيدًا الآن يا أحمد، فهذه الخطة ستكون خطرة، خطأ واحد نقع فيه وسيذهب كلانا في رحلة طويلة لما خلف المجرة، أنت تحتفظ بتسجيلات جلساتك مع يُمنى صحيح؟ جيد.. الآن الخطة كالتالي، أنت ستذكر في المحضر أنك رأيت أدهم في السيارة التي حاولت قتلك عمدًا، وأنا سأستغل التسجيل في تلفيق مكالمة بصوتها من هاتف مجهول، يمكنني قص جزء لا بأس به من أجزاء مختلفة بحديثها لصنع مكالمة محترمة تحوي لغة عنف، لا يهم إن كانت قد ذكرت اسمك

في المكالمة لكن ولكونك الوحيد الذي اختلط بها الفترة الماضية ستسجل المكالمة على أنها تحريض ضدك بنسبة 90 ٪.

قاطعته قائلًا:

- لكن كيف ستثبت أن المكالمة كانت لأدهم هذا؟ نحن لا نعلم حتى مَنْ هو أدهم!

- وهذا تحديدًا ما أعتمد عليه، ستخبر كاتب المحضر أنك لم ترَ أدهم سوى مرة واحدة حين حدثتك يُمنى عنه، وطلبت صورته فسلَّموك إياها من ملف يُمنى، ما الذي أتى بها إلى الملف؟ ليست لديك فكرة، رُبما جمعها المختصون كإحدى الوسائل العلاجية للفتاة كون الرجل مقرب منها. المهم أنك رأيته، يُمنى دست كراهيتها لك في المكالمة، وحرَّضت الرجل على قتلك، الفتاة مجنونة لذا ليس بالضرورة أن يأتي كلامها مستقيمًا، التشفي بالقتل والإيذاء الذي روته بكوابيسها سيكون كافيًا جدًّا لتلفيق المكالمة. حاول الرجل قتلك ثم اختفى، بعد أن استفقت ذهبت أنا للبحث عن الرجل لكن لم أجد خيطًا يقودني إليه؛ لذا فعلت الشيء الوحيد الممكن، قمت باستدعاء مدير المصحة الذي تُحتجز فيها يُمنى للتحقيق معه، ولأن الرجل أُطلق سراحه دون أن نستفيد شيئًا علينا العودة والتحقيق مع صاحبة الشأن نفسها، أنا كموكل رسمي من جهة أمنية، وأنت كطبيب وطرف في الواقعة.

صمت حمدي لالتقاط أنفاسه، فقلت وأنا اضرب أخماسًا بأسداس داخل عقلي:

- لن يسمح لك حسن بالمضي في هذا.

ابتسم بخبث، وهو يهرش مؤخرة رأسه:

- إن رغب حسن قدري بالتنقيب خلفي سيضطر إلى عرض ملف يُمنى على السلطات كي يثبت أن أدهم لا وجود له، حينها أرغب برؤية وجهه وهو يحاول تفسير كون يُمنى قاتلة تنعم بحريتها خارج أسوار السجن، أو على أقل تقدير العباسية.

ابتسمت رغمًا عني، لكن ابتسامتي سرعان ما تلاشت وغرقت في قلق عميق، استغرقت في التفكير، فقال «حمدي» بتردد:

- ألا تعجبك الخطة؟!

- بالعكس، أنت عبقري!

- إذن ما المشكلة؟

- لا أدري يا حمدي أنا قلق، خطتك تحوي الكثير من الفجوات وأخشى ألا تنطلي الخدعة على المسؤولين، حينها ستكون المصيبة أكبر.

ضحك «حمدي» ونهض ليربت كتفي قبل أن يمضي:

- دع ملء الفجوات لي فهذه وظيفتي، تذكر دورك فقط وخطط جيدًا لمقابلتك مع يُمنى؛ فخطتنا ستبدأ بعدَّ تنازلي سريع علينا مجاراته وإلا...

- أعلم، سيكون رأسانا في المقصلة.

* * *

حين دلفت «يُمنى» إلى الحجرة خفق قلبي للمرة الأولى منذ أيام، كانت قد تحولت مؤخرًا إلى زائر دائم لأحلامي وكوابيسي على السواء، كافة مخاوفي في الفترة الماضية، وكافة أفكاري كانت يُمنى جزءًا منها، لكنها ظلت كروح تطاردني أسمع لها صوتًا دون أن أراها.

والآن رأيتها بعد غياب طال، بدت مشرقة ومتعبة في آنٍ، شحب جلدها المرمري أكثر لكن عينيها ومضتا بتلك اللمعة الآسرة.. ابتسمت فابتسمت لها، جلست فارتجفت، وحين بدأت الحديث توقفت عن التنفس في انتظار التشبع بصوتها الذي لم أسمع سوى صداه لفترة:

- أنت على ما يرام؟

أومأت، فنظرت للكرسي المدولب بكآبة:

- آسفة على ما حدث لك.

- اشتقت إليكِ.

انفلتت الكلمة من فمي قبل أن أتمكن من كبحها، فتسمَّرت متفاجئًا، رفعت «يُمنى» عينيها إليَّ متفاجئة بدورها، وتنحنح «حمدي» جوار الباب وقد بدت على وجهه نظرات لو وُجهت لـ«الأوزون» لثقبته، رمقته بسماجة فرمقني بكراهية أبعدت إثرها نظري عنه، وأنا أحاول سحب نفسي خارج مستنقع الإحراج، على غير المتوقع قالت «يُمنى»:

- ظننتك لن تعود.

لم تكن تبتسم، أو تضحك، ولم تكن غاضبة، حتى إنني شككت في أنها لم تسمع جملتي السابقة رغم أن المفاجأة بدت جلية عليها، كان وجهها خاويًا تمامًا حين سألت:

- ولِمَ؟

لم تجبني، بل نظرت إلى الكرسي المدولب، فقلت مازحًا:

- لا تقلقي! يحتاجون إلى أكثر من هذا لإبعادي!

لم تتقبل المزحة، بل أشاحت بوجهها ناظرة إلى الخواء من جديد، نظرت إلى «حمدي» فأومأ إليَّ مشجعًا، حدجته بنظرة ذات مغزى طالبًا منه الرحيل لكنني تذكرت صفته هُنا فحاولت تجاهل وجوده، وساعدني بأن تحرك إلى زاوية بعيدة وانزوى جوار الجدار مستندًا إلى إطار النافذة كي يرمق الشارع مانحًا إيانا بعض الخصوصية.

تنهدت قليلًا، ثم قررت قطع الصمت بنفسي هذه المرة:

- يُمنى.. لم تكن كوابيسك مُجرد كوابيس صحيح؟

أعادت نظرها إليَّ فأكملت:

- الليلة التي أصبت بها، كنت عند مريم خطيبتي قبلها، وآذيتها رغمًا عني.

ابتسمت يُمنى بمرارة فتابعت:

- شعرت بذاك الشعور من كوابيسك، النشوة كانت مفاجئة وعارمة، أتت فجأة وتركتني حائرًا، لِمَ وكيف شعرت بها، لكن..

قاطعتني بذات الابتسامة:

- لم يزرك الشذا.

- لا لم يفعل.

- طبيعي، أخبرتك أن تلك ليست الطريقة الصحيحة لاستحضاره.

- أنتِ أخبرتني ماذا؟

حدَّقت بها مشدوهًا حتى اتسعت عيناي أخيرًا لأهمس بصوت كالفحيح:

- ألم يكن هذا حلمًا؟

- لا..

- ولا هلوسات الموت؟

- لا..

- إذن كيف؟

اتسعت ابتسامتها، عقدت يديها فوق الطاولة، أخذت نفسًا عميقًا وأخيرًا بدأت تحكي..

* * *

17 يوليو 2013
من تفريغ لتسجيل الجلسة الخامسة

«للأسف ما اكتشفته أنت في ليلة لم يسعني اكتشافه إلا بعد حين، ظننت أن الشـذا وليد الضغط النفسي الذي يقع على عاتقي داخل كوابيسي؛ لذا سعيت أكثر من الماضي لإقصاء العالم الواقعي عن حياتي، والاستغراق لمدة أطول في عالم عقلي الباطن باحثة عن رفيقي الغريب ذاك.

المشـكلة أن بعد تلك الليلة جفاني النـوم، وكأنه اكتفى مني أو اكتفى عقلـي منه، وإن حدث وزارني يظـل نومي خاويًا من الأحلام، والأفكار، والشـعور، لم أعد أذكر ما يدور حين أسـقط نحو البرزخ، هذا إن سقطت أصلًا.

أصبـت بأرق دائم، كلمـا ألححت في طلب النوم كلمـا أبى أن يأتي، أرهقت نفسـي طوال النهار حتى أوشـكت على الموت، لكن التعب كان يصيب عقلي دقائق فقط، أظل بعدها متيقظة الحواس داخل فراشـي إلى اليوم التالي.

كـدت أجن، مـا الذي حدث؟ لِمَ أغلقت الأبـواب في وجهي فور أن ملكت طرف الخيط، ما الخطأ الذي ارتكبته؟ لم أجد إجابة وظل الوضع على ما هو عليه فترة طويلة.

تحول الشذا من واقع أحسسته إلى حلم، بدأ العطر الذي حاولت جمعه داخل خلايا ذاكرتي بالزوال ببطء تاركًا إياي على حافة الجنون، وسرعان ما غاب كما يغيب كل ماضٍ تاركًا إياي وحيدة عاجزة عن استدعائه من جديد.

الاختلاف الوحيد هو أنني هذه المرة لم أستسلم لليأس والخنوع، حاولت خلق بيئة مُحيطة بي أشبه بتلك التي كانت تزورني بالكوابيس، عرَّضت نفسي للخطر، عبرت الطريق السريع وسط السيارات ركضًا دون النظر إلى أيٍّ منها، اعتليت سور الشرفة وأغمضت عينيَّ مستسلمة للرياح، كتمت أنفاسي أسفل ماء المغطس، لكن لا شيء، لا نشوة، ولا شذا.

بدأت والدتي بملاحظة ما يحدث لي وظنت بعقلي الظنون، أجبرتني على مرافقتها إلى الأطباء لكن أحدًا لم يجد علة ظاهرة لا بعقلي ولا بجسدي، من الأطباء انتقلت إلى الشيوخ، أولئك اتخذوني مصدر رزق، بعضهم قال ممسوسة، وبعضهم قال مخاوية، طلب أحدهم زيارة منزلنا فرفض أبي بإصرار، طلب آخر الانفراد بي كي يحادثني، لكنني خرجت من عنده حانقة دون السماح له بلمسي حتى.

بعد وقت استسلمت أمي وسلمت أمورها إلى الله كي يتولاني هو بشفائه، كان هذا ما احتجت إليه بالضبط، الخصوصية الكافية للتفكير بحرية فيما عليَّ فعله، المشكلة أنني بقيت على الحال ذاته دون حل لفترة تقرب من الشهرين، فقدت فيهما وزني، وعقلي، ورغبتي في التفاعل مع أي مظهر من مظاهر الحياة.

ثم أخيرًا أتى الوحي على هيئة حادث تافه وقع في منزلنا حين أجبرني والدي على معاونة أختي في ترتيب حجرتها الجديدة بعد أن قام بتحديث الطلاء والأثاث داخلها، أعتقد أنه ظنَّ أن تفاعلي داخل المنزل من شأنه تحسين حالتي قليلًا.

كان محقًّا لكن بطريقة لم يتوقعها لا هو ولا أنا..

كنا ليلتها قد انتهينا أنا و«أريج» - أختي - من نقل بعض قطع الأثاث إلى داخل الحجرة الصغيرة، أصبحت مستعدة للمغادرة بعد أن غرقت في التراب والعرق واختنقت برائحة الخشب المطلي والجدران حتى أصبحت على أتم استعداد للإصابة بسرطان الرئة، فور أن هممت بالذهاب طلبت مني أختي معاونة أخيرة.

خدمة صغيرة تتمثل بمساعدتها في تعليق أحد الأرفف الخشبية الخاصة بمكتبتها فوق السرير، تأففت لكنها توسَّلت، فحملت المسامير والمطرقة وتحركت بتثاقل إلى حيث حملت الرف، قمت بتثبيت أحد الأطراف بسهولة، لكن الطرف الآخر أبى أن يستقر في مكانه.

حينها ضحكت «أريج» قائلة:

- دعيني أساعدك.

أسندت الرف الخشبي بيدٍ، وثبتت المسمار باليد الأخرى لتظل يدها محيطة به فوق الثقب كي لا يتحرك، دون مبالاة هويت فوق المسمار مرة، اثنتين، ثم تحركت يد «أريج»..

لا أذكر لِمَ أو كيف تحرَّكت يدها، لكن مع الضربة الثالثة هوت قبضتي بالمطرقة فوق المسمار المعدني لينغرس حتى الرأس لا في الحائط، بل في كف أختي.

تعالت صرخات «أريج» وانفجر خيط من الدماء ليغرق ذراعها وملابسها، أتى والدي مذعورًا ليرى الحادث واقتاد أختي تاركًا إياي ككيان شفاف يقف جوار الفراش حاملًا مطرقة تناثرت عليها بعض قطرات الدم الداكن.

بالكاد أحسست بأبي حين اندفع إلى الحجرة، وبشق الأنفس تمكنت من استيعاب أن أختي خرجت مرافقة له تاركة إياي هنا، لوهلة ضرب أذني طنينٌ عزلني عن كافة الموجودات حولي، الطنين لم يأتِ وحده بل صاحبه الشعور ذاته الذي قضيت أكثر من شهر ونصف الشهر أبحث عنه، سقطت المطرقة أرضًا والتف جسدي بنشوة عارمة فقدت إثرها توازني، وانهرت جوار الفراش المبعثر.

طوال هذا الوقت كنت أبحث في الجانب الخطأ، لم يكن الشعور وليد الخطر، تعريض نفسي للسوء لم يكن مفتاح الاستحضار، بل كان العنصر الفارق هو القدرة على الإيلام، كان عليَّ إيذاء الآخرين وليس إيذاء نفسي.

انتابتني حالة هستيرية من السعادة، نهضت وركضت إلى الخارج، بعيدًا عن الحجرة وعائلتي إلى الشرفة الخاوية، أردت الصراخ، أجل.. يمكنني استحضاره، أنا لم أفشل، لن أفشل، وجدتها!!!!! لا يسعني

وصف كيف شعرت حينها يا أحمد، لم تكن سعادتي باستنتاج الطريقة قدر ما كانت بالتأكد من أنني لم أفشل، لست فتاة بائسة ذات لوثة عقلية، كان الشذا حقيقيًا وليس مجرد هلوسة كابوس مرَّ بي، كان موجودًا ولا أحتاج إلا إلى استخلاصه فقط.

عند هذه النقطة تلاشت نشوتي دفعة واحدة وحل محلها الذعر، كيف فاتني الانتباه إلى ذلك قبلًا؟ حين آلمت «أريج» ما شعرت به كان الانتشاء، الانتشاء وحده دون الشذا، العطر السماوي كان غائبًا، ما زال هناك عنصر ناقصًا، الوصفة لم تكتمل بعد، الإيلام كان يجذب الشعور دون الرائحة، لكنه كان نقطة بداية على الأقل، ما الذي أحتاجه بعد؟ أهو الشعور بالخطر المرافق للإيذاء؟ أم المزيد من الإضرار بالآخرين فحسب؟

تسمَّرت شاعرة بأن الإجابة قريبة مني للغاية، رغم ذلك ما زلت عاجزة عن رؤيتها، أي الطريقين أصح؟ الخطر أم الإيذاء؟ عندها خطرت لي فكرة صغيرة، جنونية حمقاء لكن من شأنها إيضاح الأمور لي أكثر.

و دون تردد قررت وضع خطتي قيد التنفيذ..»

توقفت «يُمنى» عن الكلام كي تستريح قليلًا، بصعوبة انتزعت نفسي - كالمعتاد - من خدر حديثها لأعتدل بمجلسي سامحًا لرئتيَّ بمعاودة التنفس، نظرت إلى «حمدي» الذي لم يعد يقف بجوار النافذة، بل أمام الباب بالقرب منا، وقد حملت ملامح وجهه مزيجًا من تعبيرات غريبة، إن لم أكن مخطئًا أظن أن الخوف أحد عناصرها.

طقطقت أصابعي متحاشيًا الرد على نظرة «حمدي»، لكنني عجزت عن منع نفسي من السؤال:

- ألم تشعري بالتردد؟

- التردد؟

- كونك مقدمة على إيذاء شخص آخر من أجل تنفيذ خطتك؟ أعني، ألم تشعري بتأنيب الضمير؟

- لا..

قالتها بفخر، بدا عليَّ الذهول فتابعت مفسِّرة:

- نظـرت للأمر من ناحية علمية بحتة في البداية، كنت أمتلك شـيئًا غريبًا لا أظن غيري قد شعر به قبلًا، شيئًا من شأنه إنهاء كوابيس البشر، تصوَّر معي يا أحمد، تخيَّل امتلاك سـلاح قوي لمجابهة كافة كوابيسـك؟ لن يتمكَّـن أحـد من قهرك أو إيذائك طالما الشـذا حليفـك، كل ما تحتاج إليه هو الشعور به مرة واحدة فقط، تشمه لمرة واحدة فقط لتظل مدمنًا على حضوره طوال حياتك. تخيَّل يا أحمد أن لديك سـلاحًا من شأنه أن يعطيـك القـوة لمقاومة أي خطر يتعرض لك، سـلاحًا لا تحمله بل تسـعى إليه، كأسًـا مقدسـة تحمل معنى الدافع، والهـدف، والأمل، ثم تصوَّر معي ولو للحظة، إمكانية انتشـال هذا السلاح من عالم الأحلام

وجلبه إلى هُنا، إلى واقعنا البائس.. أتدرك حجم القوة التي سـتمتلكها حينها؟ ألا تظن أن كنزًا كهذا يسـتحق بعض التعب؟ بعض المُخاطرة؟ وبعض القتل؟

حوَّلـت نظـري تلقائيًا إلى «حمـدي» الذي لم تتغيـر تعبيرات وجهه، فأعدت نظري إلى «يُمنى» التي اشتعل وجهها حماسًا:

- كيف؟

تنحنـح «حمدي» بجـوار الباب فتجاهلته ضاغطًـا على كلماتي، وقد تسارعت أنفاسي:

- كيف تمكَّنتِ من استحضاره؟

اتسعت ابتسامة «يُمنى» لتجيب بهدوء:

- قتلت القط!

* * *

«أنـت تذكر لقاءنا الأول يا أحمد، أخبرتك فيه عن رفيقي الصغير ذي الشـعر الأبيض، لم يعد هذا القط يحتل أي جانب ولو طفيف من عالمي منـذ أن التحقت بالجامعة، لكـن أختي احتفظت به، رُبمـا لأنها ظنت أن إلقاءه في الشارع عمل غير آدمي، لا أعلم تحديدًا.

كانـت «أريج» تُبقي القط الصغير في حجرتها طوال الوقت تقريبًا في سـلة صغيرة بجوار خزانة الملابس، صحيح أنه يخرج ليمرح في الشـقة

ناثرًا الأوساخ والشعيرات الدقيقة هُنا وهُناك، لكنه إلى حجرتها كان يعود دائمًا وأبدًا..

كانت فرصتي الوحيدة لتنفيذ خطتي هي ليلة الخميس، خرجت العائلة لحضور مناسبة تافهة أظنها خطبة أحد ما، وبقيت أنا و«أريج» في المنزل معتذرتين عن عدم الذهاب، أختي فوّتت المناسبة بسبب الامتحانات المقبلة، وأنا فوّتها لأسباب مفهومة رغم أن امتحاناتي كانت على الأبواب كذلك..

المهم أنني انتظرت خروج الجميع من المنزل، وتوجهت إلى حجرة أختي مصارحة إياها برغبتي في استعارة القط قليلًا، تعجبت لكونها تعلم أنني لا أطيق كتلة الجراثيم تلك، لكنها تركتني آخذه وواصلت الاستذكار في هدوء.

حملت القط مبتعدة فبدأ اللعين يموء ويضرب الهواء بقدميه الأماميتين، بدا لي وكأنه يعلم ما هو مقبل عليه بطريقة ما، كان يثير جلبة لكن لم أحاول إسكاته، أردت أن تسمع «أريج» مواء القط الهستيري كي يظل عامل «خطر اكتشاف خطتي» قائمًا، وبهذا أكون قد غطيت الاحتمالية الأولى للاستحضار.

الاحتمالية الثانية نُفِّذت حين حملت القط إلى الحمام مطبقة على جسده المنتفض بيد واحدة كي أحكم غلق الباب، تردد صدى موائه فعلا صوت أختي سائلة عمّا يحدث؛ لذا علمت أن الوقت ينفد مني، أسرعت

بالقط إلى مسرح الجريمة المُعد مسبقًا، تنفست عميقًا.. ثم بدأت بإغراق الكائن المذعور داخل مغطس الحمام..

* * *

- هل أنتِ جادة!

صاح بها «حمدي» من جوار الباب، وقد أنسته الصدمة اتفاقنا، فحدجته بنظرة نارية، لكنه كان يُحملق في «يُمنى» بعينين يتطاير منهما الشرار، ظلَّ يراقبها ثم فتح الباب مغمغمًا بشيء ما وخرج.

تفاجأت من رد فعله، لكن «حمدي» كان آخر اهتماماتي في تلك اللحظة، عقدت يديَّ بقوة وأنا أحث «يُمنى» على المتابعة.

- هل نجحت الخطة؟

- أجل.

- وزاركِ الشذا؟

أومأت وقد بدت مستثارة للحظات، ثم تابعت:

- شعرت بجسدي ينتفض تمامًا كجسد القط أسفل الماء، بدأت الكهرباء بالسريان من جسده المحتضر إلى يدي، وسرعان ما غلفتني نوبة المشاعر الجنونية بالكامل، وحين استلقى الكائن الميت أسفل الماء انبعثت الرائحة الأخاذة من فضاء الحجرة تذهب بعقلي. ليس بوسعك تصور كم كنت مشتاقة إليها، تنفَّست بعمق حتى أوشكت رئتاي على

الانفجار كي أتمكن من اقتناص أكبر قدر ممكن من العبير الصارخ حولي، كان ضعيفًا، أكثر ضعفًا مما أحسسته في أحلامي، لكنه كان هنا على الأقل؛ لذا أغمضت عينيَّ وتركت نفسي لأذوب حتى أتلاشى.

لم أدرك أنني فقدت الوعي إلا حين شعرت بذراع والدتي تحركني بعنف، فتحت عينيَّ فرأيت الوجوه الثلاثة تحدق بي، اثنان مرعوبان ووجه باكٍ، بدأت باستيعاب أن أختي هي مَن اكتشفتني ملقاة فوق بلاط الحمَّام غائبة عن العالم، وجواري في الحوض الممتلئ ترقد الجثة المنتفشة.

صرخت أريج وبكت، ثم هاتفت والديَّ فقدما يلهثان، ظنًّا أن سقوطي كان نتيجة للصدمة من المشهد، كيف وصل القط إلى المغسل الممتلئ؟ لم يتساءل أحد، وفضَّلوا أن ينسبوا الأمر لتصرفات القطط غير المتوقعة، لينصبَّ تركيزهم أكثر على ابنتهم المسكينة المصدومة.

احتضنتني أمي مهدئة من روعي، واقتادتني إلى الخارج بينما قام أبي بالتخلص من الجثة مشمئزًّا، لم يكن الدوار الذي خلَّفه الشذا قد ذهب بعد، فساعد هذا على إضفاء مظهر الصدمة عليَّ، ولم أمانع.. ما كنت أرغب في الكثير من الأسئلة، أردت فقط الاستمتاع باللحظة قبل التفكير في الخطوة القادمة. المُشكلة الوحيدة تمثلت في وجه أختي الباكي الذي طالعني حين خرجت برفقة والدتي، ذاك الوجه الذي قال لي بوضوح: «أنتِ كاذبة»..

* * *

الفصل العاشر

قبل أن تنتهي «يُمنى» من الحديث، انفتح باب الحجرة بقوةٍ، وعاد «حمدي» إلى الداخل، توقعت أن يكون غاضبًا، لكن التعبيرات التي علت وجهه لم تكن تعبر عن الغضب، بل عن القلق:

- إنه قادم..

قالها بصوت خشن، ثم تقدَّم ليسحب الكرسي الذي اعتدت الجلوس عليه سابقًا قبل الإعاقة، وجلس بيني وبين «يمنى» التي ظل عدم الفهم يبدو جليًّا عليها، حتى وجَّه «حمدي» حديثه إليها للمرة الأولى.

- اسمعي يا يُمنى، حين يأتي د. حسن إلى هُنا تظاهري بأنكِ كنتِ تتحدثين معي أنا لا أحمد.

أدارت نظرها بيني وبين «حمدي» بدهشة فعقبت:

- أنا لست هنا بصفة رسمية بعد الآن، من المفترض أن حمدي هو مَنْ يقوم بالتحقيق معك.

- التحقيق معي!

قالتها مقطبة، فكتمت أنفاسي ملقيًا نظرة جانبية إلى «حمدي» لأقول:

- حمدي حصل على تصريح وهمي للتحقيق معكِ كنائب عن الشرطة بدلًا مني، اسمعي يا يُمنى.. أعلم أنكِ لا تعين ما يحدث الآن، لكن سأشرح كل شيء أقسم لكِ فقط افعلي كما أقول، اتفقنا؟

- لا..

- يُمنى!

- لا، لن أقدم على فعل ما لا أفهمه، عن أي تحقيق تتحدث؟ تحقيق بشأن ماذا؟

- محاولة قتل أحمد.

ألقى «حمدي» الكلمة بطريقة استفزازية فرمقته بغضب.. أكاد أصرخ في وجهه، لكن «يُمنى» قامت بهذا الدور إذ صاحت:

- أتمزح؟

- يُمنى أرجوكِ اهدئي.

- لن أهدأ قبل أن أعرف ما الذي يجري هُنا!

- حاولوا قتلي يا يُمنى.

قلتها صائحًا بدوري وقد تسارعت أنفاسي، شعرت بالدوار للحظة دون أن أعرف السبب فخفضت رأسي مستندًا بها إلى ذراعي، الأمر الذي أثار انتباه «حمدي» إذ قال بقلق وهو يقترب من مقعدي:

- أحمد هل أنت على ما يرام؟

حركت رأسي دون إشارة محددة، ثم رفعت وجهي من جديد ساحبًا ملء صدري من هواء الحجرة كي أستفيق، رأيت وجه «يُمنى» - القلقة بدورها - في مواجهتي، كانت قد فتحت فمها لتتحدث، لكن باب الحجرة انزلق مرة أخرى بصوته المميز، وأصبح لدينا رفيق رابع في الداخل، فآثرت الصمت، نقل الدكتور «قدري» عينيه مرورًا بمؤخرة رأس «يُمنى» إلى «حمدي» الذي كان قد اعتدل في مقعده في جزء من الثانية عاقدًا ذراعيه بنظرة صارمة، ثم توقفت عيناه عليَّ مطولًا، كان يبحث عن هفوة لم أمنحه شرف إيجادها، أخيرًا قال بصوتٍ حاول جعله مرحًا:

- كيف تسير الأمور هنا؟

آثرت الصمت، لكن «حمدي» قال بجدية:

- هل لديك سبب محدد للمقاطعة دكتور؟

بدا الارتباك على الرجل لثوانٍ استعاد رباطة جأشه بعدها متابعًا ببرود:

- أردت الاطمئنان على أنه لا يوجد تهديد أمني تحت سقف مؤسستي يا حمدي بك، أمن حضرتك وأمن د. أحمد مسؤوليتي حتى تخرجا من هنا.

حدجني بنظرة كراهية فابتسمت محاولًا استفزازه، قال «حمدي» بالصوت الواثق ذاته:

- شكرًا دكتور.. إذا سمحت.

حملت فظاظته إشعارًا بطرد الدكتور، فعجز هذا الأخير عن الرد، وإنما انسحب من جديد وقد أغلق الباب خلفه، تنفس كلانا براحة حين عادت الأوضاع إلى سابقها، وربَّت كتف «حمدي» ضاحكًا:

- أنت عظيم يا رجل.

لكن «حمدي» لم يجبني، بل ظل ينظر إلى «يُمنى» بثبات، شعرت بتوتر الأجواء بينهما، كلاهما كان يكره الآخر، أو على أقل تقدير لا يستلطفه، انتظرت «يُمنى» تفسيرًا لما حدث توًّا، لكن «حمدي» حينها قال:

- كيف جئتِ إلى هنا؟ مَنْ قتلتِ تحديدًا؟ ولِمَ يحاولون حمايتكِ بهذه الطريقة؟

لم تُجب «يُمنى»، فاحتدَّ «حمدي» وأصبح من الواضح أنه على وشك فقدان أعصابه؛ لذا - تداركًا للموقف - أمسكت ذراعه طالبًا منه الخروج..

- لا..

- حمدي دعنا وحدنا قليلًا.. رجاءً.

- ليس لدينا وقت كافٍ لهذا الهراء، تذكَّر ما قلته لك.

أطبقت كفيَّ على ذراعه أكثر وأنا أنطق الكلمات بحدة أكبر كي يفهم:

- اخرج يا حمدي رجاءً ودعنا قليلًا، وإن صادفك أحدهم في الخارج أخبره أنني أقوم بتقييمها نفسيًّا قبل المتابعة، رجاءً يا حمدي.

لم يُجبني، بل ظلَّ يرمق الفتاة الصامتة بضيق.. فصحت بغضب:

- حمدي!

التفت تجاهي، وقام بسحب ذراعه من بين قبضتيَّ لينهض بهدوء مريب متجهًا نحو الخارج، تاركًا إياي و«يمنى» وحدنا في الحجرة أخيرًا، كنت أعلم أنه متوتر وخائف، وظيفته وحياتي على المحك، عرفت أنه بمجرد خروجي من هُنا سأتلقى تقريعًا من الحجم الأسطوري، لكن كان على هذا أن ينتظر..

ظلت «يُمنى» تراقبني بصمت، فقلت محاولًا سحب التوتر الذي خلفه «حمدي»:

- أعتذر عمَّا بدر منه..

ابتسمت قليلًا لكن «يُمنى» لم تبتسم، بل قالت بوجوم:

- لِمَ حاولوا قتلك؟

- لأنهم ظنوا أنني أعلم أكثر مما يجب.

ضاقت عيناها، ففسَّرت بابتسامة واهنة وأنا أشير إلى جسدي:

- هم مَنْ تسببوا لي بهذا.

- حاولوا التخلص منك؟!

- أجل..

- لم يكن عليك العودة إلى هنا.

- أعرف..

- إذن لماذا عدت؟!

- من أجلك.

قلتها بهدوءٍ تامٍّ ناظرًا إلى عينيها مباشرة، لم تبد مصدومة، بل بدت مرتعبة، انفرجت شفتاها قليلًا هامسة:

- من أجلي!

تنفَّست بعمق وأنا أمد يدي عبر الطاولة ممسكًا بيدها، ارتجفت وحاولت سحبها لكنني أطبقت عليها مُحاولًا ألا تنكسر الكف اللؤلؤية بين أصابعي:

- لِمَ أنتِ هنا يا يُمنى؟ لِمَ يحاولون إبقاءكِ؟

- عليك أن تذهب يا أحمد.

- أجيبي عن سؤالي.

- أحمد!

- يُمنى.. أجيبي عن سؤالي رجاءً، ما الذي يربطهم بكِ إلى حد محاولة القتل؟

- لماذا عدت؟!

هذه المرة أتى صوتها مختنقًا، رأيت عينيها تلمعان بدموع سرعان ما انحدرت فوق وجنتيها الشاحبتين، فسحبت يدي مذعورًا:

- يُمنى.. أنا آسف.

علا صدرها وهبط بعنف، بدت عاجزة عن التنفس، وتحوَّلت القطرات المالحة بجانب وجهها إلى خيط رفيع متواصل، تسمَّرت في مكاني هنيهة أمام وجهٍ لم أره باكيًا قبلًا، عجزت عن ربط التعبيرات التي أردت قولها.. صحت:

- يُمنى.. أقسم إنني لم أقصد أن أتعدى حدودي، أنا آسف.

- لِمَ عدت؟! لماذا رجعت إلى هنا؟!

- من أجلكِ يا يُمنى.

- ما كان عليك أن تعود، عليك الذهاب أرجوك.

- أنا لن أذهب.

- أحمد أرجوك.

- لا.

قلتها بإصرار، فصاحت وقد تقطَّع صوتها بفعل البكاء:

- ستموت، أنا لا أستحق الإنقاذ، ولم تكن عليك العودة، خذ صديقك واذهب يا أحمد أتوسل إليك، لن يطاردك أي منهم بعد الآن، أقسم لك.

- يُمنى أنا أحبك.

قاطعتهـا دون تفكير أو حسـاب، أفلتت ضربات قلبي فتنفسـت بقوة أكبر كي أستعيد السـيطرة، أمامي تسمَّرت «يُمنى» بوجه أبيض كالغرقى، شـردت نظراتهـا لثـوانٍ وانغلقت شـفتاها بقوة، صمتت وظلـت صامتة، كنـت أعلم أنني تعديت حدًّا كان عليَّ البقاء خلفه، لكن الكلمة خرجت قبل أن أتمكن من كبح جماحها، وفي الواقع لم أكن نادمًا كثيرًا..

- لا يا أحمد.

قالتها بخواء، فأجبت بإصرار:

- بل نعم يا يُمنى.

- لا يا أحمد، لا يستطيع الطبيب الوقوع في حب مريضته.

- أنتِ لستِ مريضة.

- أنت لا تعرفني.

- أعرف ما يكفي.

- لا، أنت لا تعرف أي شيء على الإطلاق.

قالتهـا وقد توقفت عيناهـا عن الإدماع، وتحوَّل الخـط إلى وادٍ مالح ظـل لامعًـا فـوق وجنتها الخالية مـن أي لون مـن ألوان الحيـاة، لم تكن مصدومة، أو غاضبة، أو محبطة، أو حاملة لأي تعبير بشريٍّ، حين أكملت بدَا صوتها خاليًا من الحياة بطريقة أثارت الذعر في نفسي..

- ابتعد عني يا أحمد قبل أن يصيبك مكروه.

- لا..

- ابتعد عني يا أحمد قبل أن تُقتل.

- توقفي عن الإشـفاق علـيَّ يا يُمنى، أنا أحبكِ، سأسـاعدكِ ولن يتمكن هؤلاء الحثالة من إيذائي.

ببرودٍ تامٍّ أجابت:

- لَم أكن أتحدث عنهم، بل عني!

❊ ❊ ❊

ألقيت نظرة ساهمة على المبنى الزجاجي الشامخ، وأنا أستند برأسي علـى زجاج السـيارة فـي انتظار أن يقـود «حمدي» مبتعدًا، كل شـيء بدا ضبابيًّا آنذاك، رغم شـمس النهار الساطعة، شعرت بالوهن وعجزت عن التفكير بوضـوح، لم أعد أدرك إن كان اعترافي المفاجئ صحيحًا أم خطأ، لكنه تسبَّب في فقداني لكل شيء.

«يمنى» ذهبت، حين استعدت نظراتها الأخيرة بذاكرتي، أدركت أنها ذهبـت وقت أن أشـارت إلـيَّ كـي أبتعد، ذهبت عندمـا طردتني ورفضت الحديـث إلـيَّ من جديـد، وحين اهتاجت ونهضت صائحة حتى تسـببت فـي عودة «حمدي» إلى داخل الحجـرة يرافقه عدد من الممرضين الذين اقتادوها بعيدًا للمرة الأخيرة.

قالـت إنهـا لا ترغب في رؤيتي من جديد، أقـرت أنها لن تتحدث مع الشـرطة، أو الأطبـاء، أو أيٍّ كان، إن كان لـدى أحدهم تهمـة فليعدموها وليتهِ الأمر، لكنها لن تُقابل، أوتتحدث، أو تحكي لأحد، أنهت كل شيء مُقابل كلمة واحدة ما كان عليَّ قولها.

جلـس «حمدي» إلـى جواري وانطلـق بالسـيارة دون أن ينبس ببنت شـفة، بدأت المصحـة تغيب عن ناظـري فأغلقت عينيَّ مفكـرًا، أكان ما قلت يسـتحق ردة الفعل تلـك؟ أعلم جيدًا أنني تخطيـت حدودي، لكن أكان اعترافي حقًّا بهذا السوء! أكانت تكرهني إلى هذه الدرجة؟ لماذا؟

- هل نذهب إلى المستشفى؟

قالها «حمدي» بحيادية، فحرَّكت رأسي نفيًا دون أن أنظر إليه..

- لا تبدو على ما يرام.

ضحكت استهزاءً، فتابع:

- أترغب في الحديث عمَّا حدث حين خرجت؟

- لا..

قلتهـا بحـدة، فصمت «حمدي»، ظننـت أن النقاش قـد انتهى إلى أن شـعرت بالسـيارة تنحرف بقوة متعمدة إلى جانب الطريـق، فتحت عينيَّ مفزوعًـا وأنا أحاول موازنة نفسـي فوق الكرسـي، حتى توقف «حمدي» بجانـب أحـد الأرصفة الخاويـة من المحـال والجائليـن، أوقف محرك السيارة ونظر نحوي بغضب ليصيح:

- أريد أن أعرف ما الذي حدث تحديدًا.

- حمدي.. دعك من الأمر، القصة انتهت.

- آااه فعلًا؟ هذا واضح.

اعتدلت في المقعد صارخًا به، وقد فقدت زمام أعصابي أخيرًا:

- القصـة اللعينة انتهت، تـم طردنا، لن يقوم أحـد بمطاردتنا لأن صاحبة الشـأن هي مَنْ ألقى بنا إلى الخارج رافضة الحديث، أصبحنا أحرارًا.. أسـعيد الآن؟ هلَّا قدت السـيارة اللعينة إلى المنـزل وتوقَّفت عن نبش الموضوع رجاءً؟

- أتكذب على نفسك أم عليَّ؟

- ماذا تعني؟!

نظر إليَّ شزرًا ليتابع صائحًا بدوره:

- ما الذي حدث في الحجرة يا أحمد؟ ولِمَ طردتك يُمنى؟ ورجاءً لا تقُل الأمر انتهى لأنك لم ترَ كيف يبدو وجهك الآن.

- هددتني بالقتل.

- ماذا؟!

- لأنني أخبرتها أنني أحبها.

- ...

– هل يُمكنك القيادة الآن؟!

بدا «حمدي» على وشك الإصابة بنوبة قلبية، ونبضت العروق النافرة في جبهته بعنف، حاول إطلاق السباب لكنه تراجع وأشاح بوجهه عني، وهو يقضم شفته من الداخل مفضلًا الصمت، قلت بلا مبالاة وأنا أراقبه:

– تحرَّك يا حمدي.

– هل أنت متخلِّف عقليًّا؟!

صمتُّ فأدار وجهه نحوي، وهو يضغط على كلماته:

– أخبرتها أنك تحبها؟ يا لفرحتي! آذيت مريم خطيبتك، ثم جلست أمام امرأة مجنونة سادية تُغرق القطط في الحمَّام من أجل أحلام غبية لتخبرها أنك تحبها! هل طار عقلك مع ساقك؟! أم أنت بهذا التخلف منذ البداية دون أن ألحظ؟!

– حاذر يا حمدي..

هُنا فقد «حمدي» ما تبقى من أعصابه لينشب مخالبه في مقدمة ملابسي، وقد بدأ بإطلاق سيل من الشتائم انتهى بصراخ أدار رؤوس المارة تجاهنا.

– أحاذر ماذا؟! استفق يا...، كدت تفقد حياتك من أجل قضية غبية لا رأس لها ولا ذيل، أنت لا تعرف عن الفتاة أكثر من هذا الهراء الذي استمرت ببثه داخل عقلك طوال الفترة الماضية.. أتحبها؟ هل أنت

حاد؟! هل تعاني حرمانًا جسديًّا أو نزعة ماسوشية أو شيئًا من هذا القبيل؟!

عجز «حمدي» عن إكمال باقي الحديث أمام قبضتي التي لطمت أنفه مخلفة صوت كسر تعالى قبل أن يدفعني بعيدًا دافنًا وجهه بين يديه، وهو يطلق صيحة ألم اختلطت بسباب مكتوم..

صرخت فيه بأنفاس متسارعة غير عابئ بما حدث توًّا:

– توقف عن الحديث عني أو عنها بمثل هذه الطريقة، أنت لا تعلم شيئًا، لا أتوقع من عقل سطحي مثلك الفهم أصلًا، أنت لا ترى فيها سوى جسد؟ لم تسمع منها سوى كلمات كمجرم بقفص الاتهام؟ أنت لم ترها يا حمدي، كنت معنا في الحجرة لكنك لم ترها. أترغب في معرفة مَنْ هي يُمنى؟ إذن انظر إلى نفسك، انظر إليَّ وانظر إلى حسن وزوجتك، ومريم وأي شخص آخر عاشرته طوال الأعوام الماضية من حياتك، فكر في كم الادعاءات التي تعيش بينها يا حمدي، انظر إلى المبررات التي تضعها، والأكاذيب التي تطلقها فقط كي تقنع نفسك بأنك سعيد، أتظن مريم مثالية؟ أتظن والديها كذلك؟ أتذكر اليوم الذي رافقتني فيه لخطبتها يا حمدي؟ حين رغبت في معرفتها أكثر، عاملتموني أنا وهي كسلعة تُثمن بجلسة وهمية يطلقون عليها خطبة. حين تخبر زوجتك أنك تحبها، ثم تخرج من المنزل شاعرًا بالخلاص، تترك في البيت قناعًا لترتدي قناعًا آخر في العمل، ثم قناعًا ثالثًا في الشارع، وقناعًا رابعًا وخامسًا وسادسًا، هل ترى في هذا حياة؟!

دفعت باب السيارة لأندفع إلى الخارج، سقطت على الأرض بعنف، وارتطم وجهي بالحجر المترب، دفعت نفسي لأجلس أمام صيحات «حمدي» الذي ركض خارج السيارة قادمًا نحوي والدماء تلوث وجهي، مدَّ يده ليسندني كي أقف لكنني دفعتها بعيدًا أمام أعين المارة لأتابع:

- انظر إليهم يا حمدي، انظر إلى نفسك، أنا مُعاق، تنظرون إليَّ جميعًا كمعاقٍ عاجزٍ عن الاعتماد على نفسه، أترى الشفقة على وجوههم؟ أتراها على وجهك؟ أتظن أن تلك الشفقة حقيقية؟ لا يا حمدي، هي ليست حقيقية، أنت تمد لي يد العون الآن وبقرارة نفسك حتى وإن لم تعترف تشعر بالراحة لأن الوضع ليس معكوسًا؛ لأنك لست الممدد فوق التراب. أتظن أنني معاق يا حمدي؟ جميعكم معاقون، جميعكم تحملون علة الادعاء، لم يرَ أي منكم روحه؛ لذا ترفضون رؤية أرواح الآخرين، أنتم عاجزون عن الاعتراف بما هو أكبر من فهمكم، أنتم عاجزون عن اختراق الدائرة المتعارف عليها، والنظر خارج الصندوق أتريد أن تعرف مَنْ هي يُمنى يا حمدي؟ يُمنى وليدة قبح هذا العالم، رأت ما يعجز الجميع عن رؤيته، تكلّمت فلم يصدقها أحد، تركوها حين اعترفت وعلا صوت روحها، أتعرف لِمَ أحبها؟ لأنني انعكاس لها يا حمدي، أنا الانعكاس الصامت ليُمنى.

* * *

تجمهر الناس حول الممشى حيث أجلس، لم أرَ وجوههم، لم أكن أنظر سوى إلى وجه «حمدي» الدامي، لم أرغب في الالتفات، كنت

عاجزًا عن التنفس، شعرت بكراهية تتفجر مع كل كلمة خرجت من فمي في تلك اللحظة، كنت متعبًا وتمنيت فقدان الوعي حينها، فقط عليَّ أن أبقى فاقدًا الوعي هذه المرة.

لا أدري لِمَ صحت في وجه «حمدي»، لم أعد أذكر لِمَ بدأت مثل هذا الحديث من الأساس، لكنني عجزت عن احتمال ما يعتمل في داخلي أكثر من ذلك، كان عليَّ الصراخ وإلا سأموت كمدًا، عنيت ما قلت ولم أتوقع أن يفهم، لم يكن يعنيني أصلًا إن كان سيفهم.

ظلَّ وجه «حمدي» خاويًا من التعبيرات، وبقيت عيناه الداكنتين تصوبان نظراتهما نحوي دون أن أتمكن من سبر أفكارهما، مد يده إليَّ من جديد ولم يتكلم، هذه المرة أمسكت بيده سامحًا لنفسي بالاستناد إليه حتى أعادني إلى السيارة، أغلق الباب وتحرك دون مبالاة بمن يحاول الحديث إليه من الغرباء الذين تجمَّعوا حولنا، أسندت رأسي على النافذة، فشعرت بمدى برودة الزجاج، ومدى احتراق الدماء داخل شرايين وجهي، جلس «حمدي» إلى جواري، لكنه لم يُدر السيارة ولم يتحرك، بقي صامتًا، أدركت أنني جرحت كرامته، وأن وقع كلماتي كان أقوى مما أردت، رغبت في الاعتذار، لكنني عجزت عن الحديث.

- ما الذي تنوي فعله؟

أتى صوته الجاف، فالتفتُّ نحوه، لكنه كان ينظر مباشرة عبر الزجاج إلى الخارج.. أجبته بصوتٍ مبحوح:

- لا أدري.

- أليست لديك خطة للخطوة القادمة؟

- لن تكون هناك خطوة قادمة يا حمدي.

لـم يرد، بل أدار مُحرك السـيارة وانطلق في طريقه، شـعرت بنبضات ألـم في مؤخرة رأسـي، فأغمضت عينـيَّ لبعض الوقـت، انتابني النعاس لكنني لم أستسـلم للنوم، الثقل فوق صدري منعني من الراحة، فعاودت فتح عينيَّ ملتفتًا إلى مرافقي الصامت.

- أنا آسف يا حمدي.

حـرَّك رأسـه إيجابًا متحاشـيًا النظر تجاهـي، بعد مرور مـا يقرب من نصف الساعة كنا قد وصلنا أخيرًا إلى البناية التي تقع فيها شقة «حمدي»، توقف أمامها وظل في السـيارة مفكرًا، أردت الاستفسـار لكن لم تواتني الشجاعة الكافية، في النهاية حسم قراره قائلًا:

- عليك التفكير في الخطوة القادمة؛ لأن القصة لم تنتهِ بعد.

* * *

الفصل الحادي عشر

لمدة ثلاثـة أيام بلياليها اعتكفت داخل إحـدى الحجرات الهادئة في منزل «حمدي»، كنت أفكـر، وأكتب، وأنزوي بأحد الأركان لأنام قليلًا، ثم أستيقظ لأفكر وأكتب مرة أخرى.

أغلقـت نوافذ الحجرة تـاركًا العالم الخارجي خلفـي، أغلقت الباب فانحصر العالم الداخلي بين عشـرات الأوراق والكتب التي غرقت بينها أحدثهـا، أصيح بها ثم أطلع على غيرها بهدوء، لـم أعد أعلم كيف يبدو وجهـي في المرآة، رأيت انعكاس قبحه كثيرًا في نظرات «حمدي» حين يقطع خلوتي ليمدني بالطعام، لكنني كنت أجبن من أن أرى ذاتي الحائرة تُطالعني عبر الزجاج.

كان علـيَّ إيجـاد إجابة، لم يعد الأمـر يقتصر على إشـباع فضولي أو إنقاذ «يُمنى»، بل تحول إلى بحث عن ذاتي، كنت أفكر مثلها، أرى العالم مثلهـا، الفارق أنها اعترفـت بما تراه بينما كذبت أنا نفسـي، ما صحت به في وجه «حمدي» لم يكن محض كلمات فارغة، الآن أدرك أنه كان دقيقًا إلى درجة مفزعة.

بين سطور الكتب رأيت شرحًا لحالات نفسية بعضها مُعقد، والآخر تافه، قرأت هذه الكتب عدة مرات أثناء الدراسة، لكنني الآن كنت أقرأها بعين جديدة، شعرت بخواء السطور، للمرة الأولى كنت أرى الحبر دون الكلمات، شعرت بالغضب في البداية لكن غضبي تحول إلى ذعر ومنه إلى صمت تام.

في مرحلة ما أدركت أنني خائف، كنت أنهي كتابًا شاعرًا بالحنق لأنني لم أجد ضالتي، لكن ما إن ألتقط كتابًا آخر حتى ترتجف يداي خوفًا مما قد أجده فيه.. أردت إيجاد تفسير، لكنني شعرت بالخوف في الآنِ ذاته، أن تتحول حياتك من البحث عن قضية لإشباع حاجتك العلمية، إلى البحث عن تفكير لنفسك، كان هذا كأن تقف عاريًا أمام مرآة باحثًا عن عيوب جسدك، ستراها وانعكاسك سيراها معك.

يمكننا تقبل ندوبنا، لكن من الصعب أن نتقبل أن يراها سوانا، «يُمنى» مثَّلت تشوهاتي التي لم يرها غيري، كان عليَّ إيجاد حل لحالتها بصعوبة إيجاد حل لتحسن عيوب انعكاسي دون إحداث تغيير لجسدي ذاته.

كنت مطالبًا باستئصال انعكاس عقلي، فقط لأنني أقف على الجهة الأخرى من المرآة؛ لأنني أمتلك القدرة على إطلاق الأمر؛ لأنني مخيَّر بينما هي حبيسة.

كان ذلك غير عادل أو سوي؛ لذا بعد ثلاثة أيام أضناني فيها البحث قررت سلوك طريق آخر بعيدًا عما هو متوقع مني، بعيدًا عن الخطة الأصلية التي اعتمدتها مع «حمدي».

تركني صديقي لأقود بحثي الخاص دون تدخُّل منه، اكتفى بالاطمئنان عليَّ أو اصطحابي إلى المستشفى جبرًا حين يأتي موعد غسيل الكُلى، لكنه ظل على الأرض غير راغب في الخوض بمستنقع أفكاري كي لا يغرقني أكثر بتساؤلات أو هموم، انتظر مني إيجاد موطئ لقدمي كي أتمكن من الخروج، لكنه بقي مستعدًّا لجذبي عنوة إلى الخارج إن ظل الخطر قائمًا.

وهكذا ظلت الأوضاع هادئة إلى أن أتى لي «حمدي» بخبر إنذار الجامعة.

كان قد مضى أحد عشر يومًا مُنذ حجزي لنفسي داخل الحبس الاختياري بحجرة حمدي، ليلتها أتى لي برسالة مفادها أنني تأخرت في تقديم تقريري إلى الجامعة، وبالتالي قرروا إخطاري بموعد نهائي للتسليم وإلا ستضيع مني فرصة النجاح في نيل المنحة، وسأضطر إلى انتظار دور قادم، حين سلَّمني «حمدي» الأوراق قرأتها وكوَّمتها لألقي بها داخل سلة المهملات بجواري دون تعليق، وبدأت أستعد للانغماس فيما كنت أفعله مرة أخرى، لكن «حمدي» لم يترك الحجرة، لم أجد بدًّا من سؤاله، فأجاب بصوت ضحل:

- ألن تجيب؟

حركت رأسي نفيًا، فتابع:

- ألم تكن هذه أمنيتك التي بدأت من أجلها كل هذا؟ أتتركها بسهولة هكذا؟!

- لديَّ أولويات أخرى.

قلتها ببرود، فحرَّك رأسه ليسأل من جديد بعد وقت:

- هل توصلت لشيء مهم؟

- تقريبًا..

- هل ترغب في المساعدة؟

- لا شكرًا..

- أحمد!

قالهـا بنبـرة حادة بعض الشـيء، فرفعـت نظري تجاهه، كان جسـده متصلبًـا جـوار الباب فظننت أنه غاضبٌ لوهلة، لكنـه لم يكن غاضبًا، بل قال بهدوء تام:

- لن أتركك تدمر حياتك.

لـم ينتظـر ردًّا مني، بل قـال الكلمة وخرج.. لحظات وسـمعت باب الشـقة يُغلق خلفه، لكنني لم أعد إلى عملي، بل بقيت ناظرًا إلى الخواء، أردت التفكير فيما قال، لكن تفكيري كان منصبًّا في اتجاه واحد عجزت عن تشـتيت نفسـي بسـواه، كان عليَّ تقدير «حمـدي» لا معاملته بجفاء، لكنني عجزت عن إيجاد مشاعر كافية لتوظيفها بتقديره، أو بالقلق.

نسـيت ما دار في لحظة، وعدت لأنكب فوق أوراقي، حتى سـمعت طرقًا على الباب الخارجي على غير العادة، تأففت وقررت تجاهله، لكن

الطارق ألحَّ، لم يكن أحد سـواي فـي المنزل، وبالتالي نهضت والتقطت العـكاز مـن جـواري وتحرَّكت خارج مكمنـي للمرة الأولـى مُنذ زمن.. ظننـت أن «حمدي» قد عاد، لكن حين فتحت الباب لم يكن الوجه الذي طالعني هو وجه «حمدي»..

- مريم!

ابتسـمت الفتـاة على اسـتحياء وهي تقدم سـاقًا وتؤخـر الأخرى، ثم التفتـت ناظـرة حولها بقلـق، لـم أبادلها الابتسـام أو حييتهـا بل وجمت قائلًا:

- كيف علمتِ بمكاني؟!

- من حمدي.

- حمدي؟!

صحت بها عاجزًا عن إخفاء دهشتي، لكن حين انتفضت الفتاة ناظرة خلفها من جديد خفَّضت صوتي، حتى أصبح شبيهًا بالفحيح حين صدر من بين أسناني بعنف:

- حمدي أخبركِ أن تأتي إلى هنا؟ ألهذا خرج؟

ارتجفت «مريم» أكثر، وقالت وهي تحرك رأسـها نفيًا عاقدة ذراعيها أمام صدرها:

- هاتفتـه حين عجزت عن الوصول إليـك فأخبرني عن الحادث، وبَّخته وبكيت كثيرًا لكنه رفض طلبي لزيارتك.

- لِمَ أنتِ هنا إذن؟

- عجزت عن الاحتمال.

قالتهـا وقد تـورَّد وجهها بحمرة لا أدري إن كانـت خجلًا أو قلقًا، لم تتغير تعبيرات وجهي ولم أرد، لكنها قالت بتوتر:

- هل يمكنني الدخول يا أحمد؟

- حمدي ليس هنا.

- أعلم، هل يمكنني الدخول؟ إن رآني الجيران...

- من حقهم الحديث لأنه خطؤك أصلًا!

بـدت الصدمة جليَّة على وجههـا، وتجمَّعت بعض الدموع في عينيها فأطرقت برأسـها، تحركت شـظية من الندم داخلـي فاعتذرت عمَّا قلت، ظلت واقفة دون حراك، فلم أجد بدًّا من إفسـاح الطريق لها، وسـرعان ما كانت بالداخل.

* * *

وجَّهت الفتاة للجلوس في حجرة المعيشة، وعرضت واجب الضيافة على مضض، «شـاي أم عصير» إلى آخر هذا الهراء، هزَّت رأسـها بمعنى أي شـيء، فذهبت إلـى المطبخ وقد تنبَّه جانبي الشـعوري الذي طمسـه عقلي لأسبوع، فظلَّ يبث حممًا من الضيق، والشـفقة، والغضب، وقليل من القلق، لم أرغب في إهانة «مريم» أكثر فاستغللت انعزالي في المطبخ

لمحاولـة السـيطرة علـى عقلي، ثم عـدت إليها أخيـرًا بزجاجـة من مياه غازية لم أزعج نفسـي بفتحها حتى، تركتها أمامها على الطاولة وجلست أنتظر حديثها، ظلَّت ترمقني للحظات محاولة ألا تطيل النظر إلى سـاقي المبتورة، ابيضَّت أصابعها حول حقيبتها ثم قالت أخيرًا:

- آسفة على ما حدث لك.

ضحكت، فتجهمت.. وسألتني:

- ما المضحك؟

- لا شيء، اعذريني، شكرًا على الاهتمام.

ظلت متجهمة وفتحت فمها لتجيب، لكنها أغلقته ناظرة إلى حقيبتها لتلتقط أنفاسها قبل أن تعاود الحديث:

- فـور علمـي بما حـدث أردت المجـيء، صرخت في حمـدي ووبخته كثيرًا، كيف له أن يخفي عني شـيئًا كهـذا؟! لكن صديقك رفض قطعيًّا السماح لي بزيارتك.

- أعلم، هذا بِناءً على طلبي.

تجاهلتني متابعة:

- كدت أجن، حاولت الاتصال بك لكن هاتفك مغلق، حاولت الاتصال بحمدي وإقناعه بأن أراك ولو قليلًا لكنه ظل رافضًا، كان عليَّ أن أراك وأعتذر لك، كان ما حدث خطئي و...

- لحظة واحدة.. خطأ مَنْ؟

امتلأت عيناها بالدموع من جديد، وبدأ صوتها يتقطع حين تابعت:

- أنا آسفة يا أحمد لأنني صرخت في وجهك، لو لم يطردك أبي لما كان حدث لك شيء، لم يكن عليَّ إغضابك، كان ما حدث لك خطئي، أرجوك لا تغضب مني.

- هل أنتِ بلهاء إلى هذه الدرجة؟!

صحت بها قبل أن أتمكن من المقاومة، نظرت إليَّ باكية لكنني تابعت بغضب:

- عن أي خطأ تتحدثين! ما شأنك أنت وما حدث لي؟ لو لم يطردني والدك لما كنت أصبت؟ هل أنتِ جادة؟

- لو كنت بقيت لـــ...

- لـ «ماذا»؟ كان سيحدث في كل الأحوال، توقفي عن إشعار نفسك بالذنب يا مريم، أنتِ تتفوهين بكلام غير عقلاني.

ناحت أكثر وهي تعتصر حقيبتها وقد سال الكحل مع الدموع فوق وجهها:

- لكنني أغضبتك، أنت تغضب مني كثيرًا، لا أستطيع التفكير في أنه لو كان قد حدث لك مكروه لا قدر الله، كان آخر شيء بيننا هو الشجار، لو لم يطردك أبي من المنزل تلك الليلة لما كنت أصبت، كان خطئي، أنا آسفة.

- مريم.. توقفي عن البكاء رجاءً.

- أنا آسفة.

- لم يكن خطأكِ، هلَّا توقفتِ عن البكاء؟

أبعدت نظري عنها مستندًا بذقني إلى ذراعي، وأنا أحاول السيطرة على أعصابي، لكن صوتها المختنق بالبكاء استمر في الندب والصياح:

- أنا آسفة يا أحمد، إنه خطئي، كدت تموت لأننا طردناك، أنا آسفة.

- لم يكن خطأكِ.. للمرة الألف.

رفعت عينيَّ تجاهها لأجدها مستمرة في البكاء وقد حركت رأسها نفيًا، وبقيت تردد كلماتها السابقة دون أن تستمع إليَّ أو إلى حديثي أصلًا.. تعالى الغضب داخلي، شعرت بالشفقة عليها وكان هذا يقتلني، لم أرغب في أن تشعر بالذل أمامي بهذه الطريقة، كان عليها أن تتماسك، كان عليها أن تتوقف عن النواح، كلما بكت أكثر كلما اشتعل غضبي كوني لا أشعر تجاه هذا الوجه الباكي سوي بالشفقة، كان على مشاعري أن تتحرك أمام اعتذارها لكن لم يكن داخلي سوى الخواء، عجزت عن احتمال هذا وبالتالي صحت أخيرًا:

- مريم اذهبي.

نهضت وتحركت لتجلس إلى جواري وقد استمر بكاؤها الهستيري لتصيح بدورها:

- سامحني يا أحمد أرجوك.

- اذهبي يا مريم.

- لكنني أحبك.

- وأنا لا أحبكِ.

صحت مبتعدًا عنها ودفعت نفسي للوقوف مستندًا إلى العكاز الحديدي الذي أصبح مرافقًا لي، ظلَّت ترمقني من مكانها بصمت، بقيت الدموع المختلطة بسواد الكحل تلوث وجنتيها، وارتجفت شفتاها عن كلمات عجزت عن قولها، بهدوء رفعت يدي نازعًا خاتم الخطبة وانحنيت لأضعه أمامها فوق مسند المقعد.

أدركت أنني أجرحها، وشعرت بالكراهية لذاتي في تلك اللحظة، لكن إيذائي لها بتلك الطريقة كان الوسيلة الوحيدة لحمايتها من نفسي، لجعلها أقوى، كان عليَّ دفعها للذهاب إلى خارج هذا المنزل وخارج حياتي، سبَّبت لها الألم لكن الألم يمحو الضعف، ستشفى «مريم»، كنت أعلم أنها ستنهار قليلًا لفقداني لكنها ستشفى، ابتعدت عدة خطوات للخلف وقلت محاولًا أن أبدو عقلانيًا إلى أقصى درجة:

- أنا آسف يا مريم، لم أرغب في أن ينتهي الأمر بهذه الطريقة، لكنني لست مناسبًا لكِ، أنتِ فتاة جميلة وطيبة.. ستجدين مَنْ هو أفضل من شاب مجنون، معاق.

لم تُجب، بل خفضت رأسها ناظرة للخاتم بصدمة، لم أرَ تعبيرات وجهها لكنني تابعت على أي حال:

- كوني بخير يا مريم، وستجدين مَنْ هو أفضل مني، آسف لما سببته لكِ من متاعب لكن.. حياتي ليست مستقرة، ولا أستطيع توريطكِ معي بكل هذا..

- أنت تتخلَّى عني هكذا بكل سهولة؟

قالتها فصمتُّ أنا، كانت تعبيرات وجهها مبهمة، ظلَّت ترمق أصابعها بصمت، عجزت عن التنبؤ بما يدور في عقلها، حاولت التراجع عن إيلامها بهذه الطريقة لكن قبل أن أتمكن من الحديث قالت بشيء من البرود:

- أنت كاذب.

قاطعت كلماتي بغضب، وهي ترفع عينيها نحوي، تغضَّن وجهها الباكي بحمرة الغضب ورمقتني بنظرة كراهية لم أرَ وجهها يحملها مسبقًا، تراجعت مأخوذًا، فنهضت لتصيح وقد فقدت زمام أعصابها:

- أنت كاذب، أنت حقير، كاذب، توقف عن هذا الهراء.. خطر؟ غير مناسب؟ أتظنني بلهاء؟

تسمَّرت في مكاني، حملت الخاتم وألقته في وجهي بعنف صارخة:

- أنت خائن، وضيع.. هذا من أجل هذه المدعوة يُمنى صحيح؟! علمت هذا منذ اللحظة التي ناديتني باسمها، علمت أنها مسألة وقت.. كذَّبت نفسي لكن للأسف لم أكن أعلم أن الحقارة ستصل بك إلى هذه الدرجة.

- مريم..

نطقت باسمها همسًا لكنها دفعتني، وقد علا صياحها أكثر:

- لا تجرؤ على الرد، لا تجرؤ على نطق اسمي..

تسمَّرت مندهشًا، ليس مما تتفوه به، بل من رد فعلها هذا، وكأن شيطانًا تلبّسها منذ لحظات، التفتت حولها، وانطلقت قبل أن أتمكن من الرد نحو إحدى حجرات المنزل وقد جُنَّ جنونها:

- أتخفي صورتها في حجرتك؟ ها؟ أتقبّلها قبل أن تخلد إلى النوم؟ هل كنت تحدثها وأنت مستلقٍ هنا؟ لتخبرها كم تعشقها هي وحدها دون الأخريات؟!

- مريم رجاءً!

- اخرس..

صاحت فيَّ بشراسة وهي تدفع الهاتف النقال بحجرة النوم التي دخلتها أرضًا، صبّت غضبها على الفراش فبعثرته صارخة، لم أجرؤ على إيقافها أو الاقتراب منها حتى حين التقطت الهاتف من على الأرض لتحطم به زجاج المرآة الجدارية، نظرت إليَّ مطلقة السباب ثم غادرت وهي تتابع نوبتها:

- هذه العاهرة، ألقت شباكها حولك، ثم تأتي لتخبرني أنك حزين من أجلي، لكن لا يا أحمد، لست أنا مَنْ تتم معاملتها هكذا.. هل تفهم؟! لست أنا يا أحمد.

التفتت نحوي لتمطرني بسيل آخر من الشتائم، ثم ركضت باحثة داخل الغرف بنظرها، رأت باب المكتب مفتوحًا فانطلقت للداخل، في هذه اللحظة صرخت مذعورًا ولحقت بها بأقصى سرعة سمحت لي بها ساقي الاصطناعية.

- هل هذه الأوراق تخصُّها؟ هل كنت تجلس هنا لتفكر فيها وأنت تكتب؟ هذه الأوراق تخصها صحيح؟

حشدت أوراقي من فوق المكتب لتلتفت إليَّ فصحت محذرًا:

- مريم.. كفاكِ غباءً واخرجي من هنا.

لم تستمع إليَّ، بل مزَّقت حزمة الأوراق التي تحملها، وانطلقت نحو البقية، طار صوابي حين اقتحمت «مريم» معبد أفكاري، فتحركت خلفها صارخًا وأنا أجذب ذراعها لأدفعها بعيدًا:

- اخرجي من هنا.. اغربي عن وجهي.

دفعتني سابّة إياي من جديد، وبدأت تتحرك نحو الأوراق، لم أعد أفكر، شلَّ عقلي ولم أشعر بنفسي سوى وأنا أجذبها من جديد لأدفعها نحو الباب، دفعتني مرة ثانية ولطمت وجهي بيدها صائحة، فاستجمعت قواي كي لا أقوم بعمل أحمق وجذبتها مجددًا. لكنَّ قدمي الاصطناعية لم تساعدني، تعثَّرت ساقطًا أرضًا فأفلتت «مريم» مني، وعادت نحو الأوراق، صرعني الألم كسكين يجتز لحمي ابتداءً من ساقي وحتى صدري، عجزت عن التنفس حين شعرت بالحد الخارجي من الساق

ودعامتها ينغرس داخل جسدي، فقبضت شفتيَّ حتى سال الدم منهما، زاغت الرؤية أمامي لكن «مريم» كانت واضحة، كانت تمزق ما عملت على تجميعه طوال سبعة أيام دون راحة، تدمر عملي من أجل كذبة حمقاء أطلقتها وصدقتها، حاولت الاستغاثة، الاستجداء، لكنها استمرت في سبِّي وتدمير جُل ما تعبت من أجله، كرهتها في تلك اللحظة كما لم أكرهها في حياتي، أدركت كم هي سطحية، أدركت أن روحها قذرة، روحًا تقتات على الأكاذيب، كرهتها، وكرهت وجودها، وكانت تلك القشة الأخيرة.

سالت الدماء من ساقي بينما أقف، شممت رائحتها المعدنية فتقلَّصت معدتي، «مريم» أسالت دمي من أجل كذبة، ارتدت قناعًا لتؤذيني دون انتظار تفسير، توقفت عن الاستجداء، توقفت عن ندائها، انمحت مشاعري دفعة واحدة فلم أشعر بحركة يدي..

«مريم» كاذبة مثل الجميع، تحملتها رغم سطحيتها لأنني أنا أيضًا ارتديت القناع الحضاري الذي يرتديه العالم أجمع، كنت أكرهها ولا أخفي هذا، لكنني احترمتها دون مقابل، الآن عجزت عن استدعاء مثل هذا الشعور، عجزت عن إبقاء القناع فوق وجهي. تمكن السخط مني، ليس على «مريم» فقط، بل على كل شيء حولي، شعرت أنني بيدق في لعبة الشطرنج ولست بشرًا، تذكرت كافة المواقف التي مررت بها منذ أن وعيت، زملاء دراسة ذهبوا كما يذهب الجميع فور انقضاء مصالحهم، أطباء داووني فقط لأنه واجبهم لا لأنهم اهتموا فعلًا، ابتسامات تلقيتها

من معارف كمجاملة لا كحب أو تقدير، حتى هي.. «مريم» أرادتني لأنني فرصتها إلى عالم الزوجية التي تحلم به كل فتاة، لا لأنها فهمت عقلي، ولا لأنها تشبَّعت بروحي، فرضت روحها كأمر مسلم به وكفى، وحين أعلنت انسحابي شرعت تدمِّر كافة ما أمتلك عن ثقة بأنني أنا المخطئ لا هي.

غلا عقلي بحمم من الكراهية لا أدري من أين أتت أو كيف تمكَّنت من التجمع في حيز جمجمتي الضيق، شعرت أنني أغرق في دوامة من آراء الآخرين، الجميع موجودون سواي، كنت أغرق داخل بئر من أجساد الموتى نفسيًّا وأتلاشى في محاولة منهم لتطبيعي، لقتلي، كلما قاومت أغرقوني أكثر..

استسلمت كثيرًا لكن هذه المرة عجزت، أدركت أنني أصرخ دون صوت، حتى كادت حبال حنجرتي تتمزق.

يكفي.. صرخت.. يكفي..

لم أدرك ما تفعله أصابعي الحرة إلا حين سقطت القطعة الجلدية بمؤخرة عكازي أرضًا، دون وعي رفعت العصا الحديدية دافعًا إياها بكامل جسدي نحو مؤخرة عنق «مريم» أمامي.

لم أكن أراها كـ «مريم»، بل كـ «كل شيء آلمني وآذاني يومًا».

دفعتها حتى اختل توازني وسقطت ممددًا أرضًا أسفل قدميها، شعرت بالجسد يُخترق وانساب سيل من الدماء فوق وجهي، رفعت نظري لأرى

نهاية العكاز تبرز من داخل حنجرتها بينما مقبضه ما زال معلقًا.. هُناك.. بالخلف.. في الهواء.

أردت إخراسها للأبد، أردت إيلامها كما آلمتني، ترنَّح جسدها وارتعشت يداها فوق رقبتها المثقوبة حتى طُلي ذراعها بالأحمر الدامي.

سقطت، تهاوت كجِوال مثقوب، وانتفضت على الأرض أمام عينيَّ، دارت عيناها بوجهي تستغيث لكنني بقيت أرمقها بخواء فقط، رفعت يديها محاولة التمسك بأي شيء، فاقتربت منها حتى تقلَّصت أصابعها حول ملابسي، لم أكن أنظر إلى وجهها حينها، بل إلى بركة الدماء المحيطة بجسدها، مرَّرت يدي مداعبًا الطرف البارز للعكاز.. فارتعشت يدها أكثر فوق صدري، شعرت بالدم، اللحم الممزق، الروح التي بدأت تفر مبتعدة من بين أصابعي.

ثم غرق جسدي فجأة بدوامة من الكهرباء اللذيذة انبعثت كالخدر ابتداءً من أصابعي حتى غلَّفت جسدي بالكامل، أجل.. كنت أصرخ دون أن أشعر، لم أسمع صوتي، لكنني أدركت أنني أصرخ، كانت المشاعر التي اجتاحتني أقوى هذه المرة، الألم اعتصر عقلي وضربات قلبي تسارعت حتى توقفت، صرخت، انتشيت، انبعثت روحي مع الجسد الممزق ساحبة معها عقلي إلى الأعلى، عبر فضاء الغرفة حلقت، ثم اندفعت نحو الأسفل بقوة صرعتني أرضًا.

لدقائق عجزت عن التنفس، اسودَّت الدنيا أمام عينيَّ وتهاوى جسدي المنتشي الخاوي من القوى، متُّ للحظات تلاها بعث أسطوري

حملني نحو الضوء بهدوء، لم أرغب في أن أنهض، افترشت الأرض غير راغب في الاستفاقة. الموت، استحضرت الموت، فحملني مع الجسد المقتول لكن الأوان لم يكن أواني، عدت بعد أن رأيت بوابات البرزخ بين عالمينا. عدت بعد أن زرت بُعد «يُمنى» الأسود، ظلَّ الشذا غائبًا، لكن الشعور وحده كان كافيًا، بقيت على حالي عدة دقائق أخرى، ثم بدأ الهدوء يعود إليَّ أخيرًا، رفعت جسدي من فوق الأرض وقد عاد عقلي للعمل بعد هدنة استحقها، فتحت عينيَّ لأرى «مريم» الراقدة إلى جواري كوعاءٍ فارغ.. ميتة وباردة.

لم أشعر بالشفقة أو بالذعر، بل على العكس أدركت أن بحثي طوال الفترة الماضية كُلِّل بالنجاح أخيرًا..

استطعت العبور إلى عالم «يُمنى».. خطوت إلى الجانب الآخر من المرآة.

* * *

الفصل الثاني عشر

ارتفعت الضوضاء القادمة من الشارع أسفل النافذة الصغيرة في غرفة المعيشة حيث كنت أقف، رأيت تسعة أطفال يتناوبون قذف كرة مطاطية وهم يصرخون، يركض بعضهم وينتظر بعضهم الآخر، بدت صيحاتهم العالية قادمة من مكان آخر لا أنتمي إليه ولا يرحب بي.

أمامهم امتدت المحال والساهرين، أحجار طاولة تُقرع، طنين دراجات يختلط ببوق سيارة أو صياح رجل ما ثم بكاء طفل، كان العالم خارج النافذة مليء بالأصوات، مفعم بالحياة، لم يرفع أحدهم عينه نحو الأعلى ليراني، لم يكن أيٌّ منهم يكترث.

مِلت بجذعي ناظرًا إلى الأسفل نحو بؤرة الظلام فوق الرصيف، فكرت فيما قد يحدث إن هويت من أعلى لأفترش الأرض الباردة وقد تحطم جسدي، سأثير الذعر لكن هل سيهتم أي من هؤلاء بسبب سقوطي؟ كان العالم في الخارج مفعمًا بالحياة، أجل لكنه غير عابئ.

لذا تراجعت إلى الخلف وأحكمت إغلاق النافذة كي أغرق من جديد في الصمم المحبب، مضى الوقت بطيئًا وأنا جالس أحدق في الجدار المطلي بلون أبيض تقشَّر في بعض المناطق، كنت قد اغتسلت،

وضمدت ساقي التي ظلّت تنزُّ الكثير من الدم رغم أنني أحكمت الرباط حولها.

وكان جسد «مريم» يرقد على بعد عدة أمتار مني أسفل الفراش، داخل كفن صنعته لها من ملاءة قديمة وبعض الأوراق، أوراقي التي مزقتها، والأرض جفّت من الدماء الآن.

ما زالت هناك بضع بقع باقية في المكتب لكنني أخفيتها أسفل باقي الأوراق وأحكمت إغلاق الباب.

كان جسدي مخدرًا، لكن عقلي ظلَّ واعيًا كأفضل ما يكون، استرخيت في مقعدي عابثًا بالعكاز المعدني الدافئ، ترافقني دقات الساعة خلف رأسي، حتى سمعت صوت المفتاح يدور في الباب أخيرًا، دلف «حمدي» إلى الداخل ليقع نظره عليَّ فتجمَّد بالقرب من الباب مندهشًا.

ابتسمت فتوتر أكثر، ثم تقدم إلى الداخل وقد أغلق الباب وألقى بالمفاتيح ليجلس أمامي متأملًا وجهي الجديد النظيف، وملابسي التي لم تعد رائحتا القهوة والعرق تفوحان منها.

- حمدًا لله على سلامتك.

قلتها بودٍّ فهزَّ رأسه بذهول، تلفت حوله قليلًا ثم قال:

- هل انتهيت من عملك؟

- أجل.

- لم أتوقع أن أراك هُنا.

ضحكت قليلًا وأنا أتحرك في موضعي مجيبًا:

- أصبحت كقطعة أثاث أخفيتها، ثم أعدت استخدامها، لكنها ظلَّت شاذَّة عن باقي القطع التي اعتدتها.

- بالضبط.

ساد الصمت مرة أخرى، لكن «حمدي» قطعه مشيرًا بذقنه إلى يدي المستندة على العكاز:

- ماذا حدث؟

حوَّلت بصري إلى كف يدي المضمدة بإحكام وأطلت النظر إليها، رغبت في الصمت لكن كان عليَّ إعطاء إجابة ما؛ لذا قلت:

- تعثرت وسقطت.

- هل أنت بخير؟

قالها بقلق واضح فأومأت إيجابًا ليتابع رابطًا حادث يدي بموضوع آخر:

- علينا الذهاب إلى المستشفى غدًا من أجل غسيل الكُلى.. سأوقظك مبكرًا كي...

قاطعته دون أن تتغير تعبيرات وجهي الهادئة:

- لن أذهب.

صمت للحظات، ثم تشدق بحدة واضحة:

- ماذا تعني؟

- ليست لديَّ الرغبة في الذهاب هذه المرة.

بدا الضيق جليًّا على وجهه حين أكمل:

- أتريد أن تصاب بتسمم الدم يا أحمد؟!

- ...

- أتحاول الانتحار أو ما شابه؟

حركت رأسي نفيًا، فبدا على وشك الصياح وانتصب محتدًّا، لكنه أغلق فمه قبل النطق ليسأل عوضًا عن الصراخ رابطًا - من جديد - أمرًا بآخر:

- ما الذي توصَّلت إليه بشأن يُمنى تحديدًا؟!

أشحت بوجهي بعيدًا دون إجابة، ظل «حمدي» منتظرًا فبقيت على صمتي حتى نهض متجهًا إلى المطبخ، حرَّكت يدي فوق العكاز وعينيَّ مثبتتين فوق الجدار الباهت دون أن أراه.

في عقلي ندت نغمات لأغنية قديمة لا أعلم ما الذي دفعني إلى تذكرها في هذه اللحظة بالذات، حاولت دندنتها لكن اللحن هرب قبل أن أتمكن من الإمساك به، بحثت عنه من جديد لكنه لم يكن هُناك.

عاد «حمدي» حاملًا زجاجتين من المياه الغازية، ترك خاصتي فوق الطاولة وتناول زجاجته، رأيت التوتر مسيطرًا عليه دون أن أنظر، كان

مستعدًّا لنقاشٍ طويلٍ نتبادل فيه مزيج عقلينا من أجل الخطوة القادمة، لم يلح في السؤال بل طفق ينتظر فقط.

دون النظر إليه همست:

- حين كنت صغيرًا كانت لديَّ هواية لا يعلم أبواي عنها شيئًا، أحببت جمع النمل، والذباب، كنت أترك علبة بلاستيكية صغيرة شفافة فوق مكتبي مفتوحة بجوار ذراعي وأستذكر، بعد قليل تأتي نملة أو ذبابة ضالة لتجرب حظها مع العلبة، فور أن يقع الصيد في الفخ كنت أغلق العلبة، تاركًا الحشرات المقززة تجول بهستيريا هناك.

بدا محيا «حمدي» خاويًا من التعبير حين نظرت إليه فأكملت بهدوء:

- وحين يأتي الصباح كنت أتسلل إلى الشرفة الصغيرة في مؤخرة المنزل، تلك التي تحفظ أمي عناقيد الثوم داخلها. لطالما كرهت رائحة الثوم لكن الشرفة كانت المكان الملائم تمامًا للبحث عن ضالتي، فبجوار الجدار القديم كنت أرى الأعشاش الحريرية والخيوط الملتفة التي صنعتها العناكب الصغيرة المتناثرة هنا وهناك، لم أكن أخشى هذا النوع من العناكب رُبما لأنني لم أرَ غيره، كان مثيرًا للشفقة، غير قادر على الإيذاء، ليس مثل تلك التي نراها في الأفلام ذات الأرجل الضخمة والأجساد المشعرة. كانت العناكب في شرفتنا هزيلة وجائعة على الدوام؛ لذا اعتدت الاقتراب من بيوتها محاذرًا ألا أهشمها أو تعلق بملابسي، ثم أقوم بإفراغ العلبة البلاستيكية فوق الخيوط اللزجة.

تسقط الحشرة وتلتصق، كنت أراقبها تقاوم، تتحرك محاولة التحرر، لكنها كانت تعجز عن الفرار، وسرعان ما كانت تستسلم لتأتي إحدى العناكب النهمة وتقضي عليها بينما أراقب.

لم أشعر بالشفقة تجاه الحشرات، ولم أشعر بالحب تجاه العناكب، لم أكن أكره هذا أو أميل إلى ذاك، لكنني أحببت مُراقبة ما يحدث، أشعرني بالقوة، بأنني قادر على التحكم في مصير كلا الفريقين، كان إطعام الكائنات المقززة تلك يثير فيَّ نشوة طفولية لحظية تجذبني لتكرار الأمر من جديد كل صباح.

انتهيت من الحديث مبتسمًا، فسأل «حمدي» بهدوء:

- لِمَ تخبرني بهذا الأمر؟

حرَّكت كتفي مجيبًا:

- لا أدري.

ترك زجاجة المياه الغازية، وعقد يديه فوق ساقيه ليقول:

- أنت لست بخير يا أحمد.

- أنا على ما يرام.

- أنت خائف.

قالها بإقرار فرفعت بصري عن الأرض بابتسامة باهتة أرعبته على ما يبدو؛ لأنه سارع بالحديث:

- أحمد.. أنا أرغب في مساعدتك، أخبرني كيف أساعدك وسأفعل.

- ستظل أخي يا حمدي أليس كذلك؟

قلتها مباغتًا فحدَّق فيَّ بخوفٍ أكبر، فأضفت:

- هل سأظل أحمد، أخاك الأصغر مهما حدث؟

- لِمَ تتكلم هكذا؟!

تجلَّى قلق «حمدي» أكثر حين نهض ليجلس إلى جواري وقد علا صوته أكثر وتسارعت وتيرته:

- ما الذي أصابك يا أحمد، لم تتكلم وكأنك تودعني؟!

- لا أرغب في أن أترك خلفي كراهية فقط.

- تترك خلفك كراهية؟

كرَّر كلماتي بحنق فقلت:

- أنا جذبتك معي إلى داخل دائرة سيئة من الانتقام والألم يا حمدي، كانت لديك حياة قبل أن تقرر مؤازرتي، لديك امرأة تُحبك وطفل يدعوك أبي، لديك عمل ومستقبل تتطلع إليه. أنا اقتحمت حياتك فارضًا أفكارًا غريبة عنك، مشاكل جسدية، ونفسية، وعملية، لم يكن من المفترض أن ألوِّث حياتك بها، زرعت السم في منزلك يا حمدي.. أنا آسف.

حاولت الاعتذار لكنه أشار لي بالصمت، وقد حمل من الدهشة والضيق ما دفعه للفحيح بوجهي:

- وأنت تظن أنني نادم على كل هذا؟ أتظن أنني أفكر في نبذك كي أخلص نفسي من مشاكلك؟! هل هذه هي فكرتك عني فعلًا؟!

- حمدي اسمع!

- لا.. انتظر لحظة واحدة فقط، عن أي هراء تتحدث؟! وضعت السم في منزلي؟! أنا من تطوع بمساعدتك، أنت لم تفرض عليَّ البقاء معك، ولم تقيدني إليك بأغلال، بحق الله لِمَ تتفوه بمثل هذا الهراء؟!

اصطنعت ابتسامة لأجيب:

- لأنني مؤذٍ يا حمدي، لم أجلب سوى المشاكل لكل من كان غبيًّا بما يكفي كي يقترب مني، أهلي ومريم وأنت، أحيانًا أفكر في أنني قد خُلقت حاملًا لعنة تبتلع مَنْ يعاشرني لتلقيه داخل ثقب أسود لا بداية له ولا نهاية.

زفر بضيق:

- استغفر الله يا أحمد، ولا تتحدث هكذا.

تابعت دون أن ألتفت إلى حديثه:

- كنت أماطل لفترة طويلة، حاولت الاندماج مع الآخرين وصنع مستقبل باهر كي أثبت وجودي؛ كي أرضي الجميع وأرى نظرة الفخر على وجوههم، ظننت أن نجاحي سيساعد على محو الأفكار التي تعمل

داخلي دون أن أجد لها صدى، رغبت في الشعور بالانتماء، لكنني كنت أكذب على نفسي.. تعبت من الكذب.

- توقف عن نبذ حياتك يا أحمد رجاءً.

- أنا لا أنبذ حياتي يا حمدي، أنا أقول الحقيقة فقط.

- هذه ليست الحقيقة، حياتك ليست بهذا السوء.

رمقته بصمت، فتابع مسرعًا كي لا يفلت الخيط من يده:

- انظر إلى نفسك، أنت شاب ناجح، لديك مستقبل رائع أمامك، لديك عائلة وصديق يراك كأخ، عندك خطيبة تعشقك دون قيود، لديك عقل رائع يؤهلك للوصول إلى ما قد يعجز غيرك عن تحقيقه.

- وما الفائدة؟

صمت فأكملت أنا:

- ما الفائدة من صنع مستقبل في عالم كل مَنْ به يُزايد على أفكاره وميوله الخاصة مهمشًا الآخرين، لِمَ سأنشئ عائلة إن اضطررت إلى نسج قناع لكل فرد من أهل بيتي، حتى أولئك الذين لم يولدوا بعد؟ ماذا سأرى حين أنظر إلى الأمام؟! حياة زائفة أم هدفًا إن حاولت تحقيقه سينتهي بي المطاف خلف القضبان أو منبوذًا فوق فراش في مصحة أحدث نفسي دون أن أجد آذانًا مصغية؟

- أنت تتحدث مثلها.

- هل تظن أن حديثها خاطئ؟

نظر إليّ وازنًا كلماته كي لا يتسبب في ضيقي، ثم تابع:

- قد لا تكون يُمنى مخطئة في حكمها على العالم يا أحمد، قد تكون عاقلة في كثير من الآراء.. لكنها في النهاية سلكت الطريق الخطأ، لقد اقترفت ذنبًا لا يُغتفر..

- القتل؟

- أجل.

- أتعرف لِمَ قتلت؟

حدّق فيّ بوجهٍ خاوٍ من التعبير، فاستطردت:

- يُمنى قتلت لتضميد جرح غائر في روحها صنعه مَنْ أحبتهم، لم تكن قاتلة يا حمدي، يُمنى مدت يدها مستجدية قلوب مَنْ كانوا قريبين منها، لكنْ كلٌّ منهم خطا فوق جرحها غير عابئ، هربت إلى الأحلام لكنها عجزت عن الانفصال التام عن الواقع، يُمنى رأت الكراهية والزيف اللذين يحملهما البشر، لم ترغب في إيذائهم انتقامًا، بل رغبت في الحصول على شعور حرموها منه، كان عليها استخلاصه طالما رفضوا منحه.

- أنت لست مثلها يا أحمد.

قالها بخوف فابتسمت:

- ربما ليس تمامًا.

- ليس تمامًا؟!

- يُمنى حاربت من أجل الحصول على شعور افتقدته، أما أنا فأحارب من أجل التمسك بشعور لن أسمح بفقدانه.

- أحمد!

صاح رفيقي وهو يهب من مكانه وقد عجز عن كبح جماح غضبه:

- أحمد.. أنت لن تحارب من أجل أي شيء، توقّف عن التفكير بهذه الطريقة، أنا لن أسمح لك بتدمير حياتك، قلتها وسأقولها من جديد، لن أسمح لك بإيذاء نفسك يا أحمد.

ابتسمت ببؤس:

- لا تكرهني فقط.

انقض «حمدي» ممسكًا بتلابيبي:

- أحمد.. لن تصاب بلوثة عقلية، لن تتحول إلى قاتل.. هل تفهم، يُمنى هذه ليست مجنونة أو مجنونة لا أكترث، لكن لن أدعك تلقي بنفسك إلى التهلكة لإنقاذها من اختيارها الخاص، عليك أن تعود إلى وعيك يا أحمد رجاءً.

حافظت على وتيرة أنفاسي هادئة أمام ثورة غضبه حتى لا أجرحه من جديد، ظل «حمدي» يصيح بي ويكرر كلماته التي صيغت بجمل مختلفة في كل مرة لكنها جميعًا تحمل نفس المعنى، استمعت إليه بصمت،

رأيـت نظـرة القلق في عينيـه، لكن عجزت عـن الرد عليهـا أو مواجهتها سوى بالرضوخ النظري لأوامره.

بعـد أن انتهـى أخيرًا من ثـورة غضبه جلس أمامـي يحدجني بنظرات حادة لينهي النقاش قائلًا:

- سأصطحبك إلى المستشفى.

باستسلام أجبت:

- حسنًا..

- حين ننتهي سـتعود إلى هنا لتجد معي طريقة لتسوية الأمور بينك وبين حسن قدري، ثم تخرج هذا الموضوع من حياتك نهائيًا.

- حسنًا..

- هل تستمع إليَّ أصلًا؟

حركت رأسي إيجابًا لكنني بقيت على الهدوءِ ذاته، فصمت، ثم سأل بقلق:

- ماذا بك؟ لِمَ الاستسلام المفاجيء؟!

لم أجب فتابع:

- أحمد.. هل تخفي عني شيئًا ما؟

- لا..

- لست مطمئنًا.

- لا تقلق يا حمدي، سيكون كل شيء على ما يرام، أنا متعب فقط.

ظـل يحـدق فـيَّ متفحصًـا، ثـم ربـت كتفـي ونهـض أخيـرًا حامـلًا الزجاجـات نحـو الثلاجة، وقد أقر دون كلمـات أن النقاش انتهى، بقيت في مكاني أرمق الفـراغ بين الواقع والأحداث بعقلي حتى عاد «حمدي» قائلًا:

- أحمد.. عدني أنك لن تُقدم على فعل أحمق.

ابتسمت باتزان لأجيبه:

- أعدك أنني سأكون بخير.

بدا متشككًا على وشك المجادلة، لكنه استدار أخيرًا ليتابع طريقه نحو الحمَّام للقيام بطقوس الليل من اسـتحمام إلى آخر هذه الأشياء، أدركت أن لديَّ عدة دقائق فقط قبل أن يعاود الخروج إلى حيث أجلس.

لـذا نهضـت باحثًا عـن المظروف الصغيـر بجيبي، كنـت قد حضرته سـابقًا، لكننـي احتجت إلى تلك الجلسـة الأخيرة مع «حمـدي» قبل أن أذهـب، أردت الاعتـذار، أردت قتل الخـوف داخلي بمرافقة كائن حي آخر ولو قليلًا قبل أن أغادر.

حملـت المظروف بحـرص كمن يقبـض على ثعبان سـام، ووضعته فوق الطاولة في مكان يسـهل العثور عليه، أغمضت عينيَّ وأخذت نفسًـا عميقًا مستنشـقًا عبق المنزل الذي لن أراه مـرة أخرى، ثم أخذت طريقي إلى الخارج.

سببت لي ساقي صعوبة، لكن الوقت لم يكن مناسبًا للألم، كنت في طريقي إلى حيث كان يجب أن أكون منذ مدة طويلة مضت، كان أمام «حمدي» قرابة الساعتين والنصف حتى ينتهي من طقوسه ويتفرغ ليدرك أخيرًا أنني لم أعد بالمنزل.

فبعد أن ينتهي من الاستحمام سيظن أنني خلدت للنوم، أعلم أنه عملي؛ لذا سينهي ما تبقى من عمل عالق كي يتفرغ لي، سيلاحظ أنني تأخرت أو أنني هادئ أكثر من اللازم أو ربما فقط سيرغب في الاطمئنان، لكنه حين يبحث لن يجدني.

ساعة أخرى سيقضيها في الذعر والاتصال بي ثم البحث عني، سيرسل رجاله في إثري ثم وسط ذعره الحتمي سيجد رسالتي، سيعجز عن الفهم في البداية لكنه سينهار أخيرًا وقد أدرك ما حدث وما يرقد أسفل فراشه.

لا أدري إن كان سيكرهني أم سيشفق عليَّ، جل أملي أن يتذكر ما دار بيننا في الساعات القليلة الماضية ويعذرني، لم يكن يعنيني كثيرًا ما سيحدث داخل جدران هذا المنزل في الساعات القادمة؛ لأنه حين يتخذ «حمدي» إجراءً فعليًا، سأكون أنا قد وصلت إلى حيث لن يتمكن هو أو رجاله من إيجادي..

وسيكون الفصل النهائي في روايتي قد خُط أخيرًا..

* * *

الفصل الثالث عشر

تحركت السيارة مُبتعدة حاملة عددًا آخر من العاملين في المصحة، الذين أنهوا مناوبتهم، بينما كنت أقترب من بوابة المبنى البيضاء، مستندًا على عكازي المعدني الذي طفق يصدر طقطقة غريبة فوق الحصى.

من بعيد رأيت الكسر الناتئ بالجدار، ذكَّرني بمغامرتي الأولى هنا، لكنه كان بعيدًا عن متناولي الآن والفضل يرجع إلى مَنْ يحتل المكتب خلف النافذة الوحيدة المضيئة في المبنى الضخم الذي بدا أسفل مقبض ستار الظلام المخيم على المكان.

حين اقتربت من البوابة، برز حارس ضخم يرتدي اللباس الأزرق المميز، وسألني بعدم ود عن السبب الذي أتيت هنا من أجله. فأخبرته بهدوء تام أن لديَّ موعدًا مع د. حسن قدري مدير المصحة، لم يكن الرجل يعرفني، وبالتأكيد كان أمر الموعد كذبة اختلقتها، لكنني اعتمدت على فضول د. قدري حين يعلمه الرجل بقدومي إلى وكره بقدميَّ دون حراسة، ودون مرافق أمني يدافع عني.

صحَّ ظني؛ إذ سمح لي الرجل بالعبور، بل ورافقني إلى أن وصلت إلى مكتب الطبيب المتجهم، تركني الحارس ومضى فتحركت إلى

الداخل مغلقًا الباب خلفي بهدوء، وتقدمت مادًّا يدي لمصافحة الرجل الـذي لم أكره في حياتي أكثر منه في تلك اللحظة، تجهم الرجل ورماني بنظرة نارية غير عابئ بيدي الممدودة ليبح صوته حين قال:

- ماذا تريد؟

سـمحت لنفسـي بالجلـوس وأسـندت عكازي إلى سـاقي السـليمة متخـذًا أكبـر قـدر ممكن من الوقـت الذي يسـمح لي بمشـاهدة الطبيب يشتعل كمدًا:

- الحديث إليك.. لن أطيل.

جلـس الرجل بدوره ناظرًا إلى ابتسـامتي الودود بدهشـة عجز غضبه واحتقاره عن إخفائها ليقول:

- الحديث عن ماذا؟

- يُمنى.

- أظن أن الأمر انتهى بعد أن ألقتك بنفسها إلى الخارج يا د. أحمد؟

- الليلة هي الأخيرة التي سـترى فيها وجهي يـا دكتور، لا تقلق هذا وعد شرف.

تعجَّـب الرجل أمام الاحتـرام في لهجتي، فتابعت كـي أحتفظ بزمام الموقف:

- أرغب في طرح سؤال واحد فقط.

راقبنـي «قدري» بوجه البائع لا المشـتري، منتظـرًا أن أتابع الحديث، لكننـي حافظت على صمتي بـدوري فلم يجد بدًّا من السـؤال عن ماهية استفساري وقد غلبه الفضول للعرض، فقلت بثبات:

- أريد أن أعرف سر إصراركم على الاحتفاظ بيمنى بعيدًا عن الأعين.

ضاقت عينا الرجل غضبًا، وأوشـك أن يصيح، فرفعت يدي مشيرًا له أن ينتظر وتابعت:

- لا أحـد يعلم أنني هنا، تركت حمدي خلفي وكما أخبرتك.. لن أعود، أريد فقط معرفة الإجابة.

- لِمَ؟

- سمِّه فضولًا، غباءً، أو سمِّه ما شئت.

عقد الرجل يديه ليرد باشمئزاز بيِّن:

- ومَن الذي أشـار عليك بهذه الفكرة المختلة.. أن تأتي وتسأل مثل هذا السؤال ثم تتوقع إجابة؟

- هو ذاته الذي أخبرني بأن نهاية القصة يُمكن أن تُكتب هُنا، أحصل على إجابتـي منك وأرحل، لا يمكنني إثبات شـيء مما سـتقول إن حاولت مقاضاتك، أنت تعلم أن إقرار السـماح لحمدي باستجواب يُمنى مبني علـى زور، لكـن حتى تثبـت أنه زور سـتدخل في دوامة أنـت في غنى عنها.

صمت ليقلب كلماتي بعقله فانتظرت، تراجع بكرسيه راسمًا ابتسامة مسمومة على شفتيه المحاطتين بالتجاعيد:

- أنت تسلمني رقبتك وتلقي بالكرة في ملعبي؟

- على ما يبدو.. أجل.

- هكذا بكل بساطة؟!

- هكذا بكل سذاجة..

- وترغب في أن أصدق؟

ابتسمت فتطلع إليَّ ليعاود الانحناء إلى الأمام مستندًا إلى المكتب، متابعًا كلماته بمزيج من الترفع والكراهية:

- دكتور أحمد.. أظن أن كلينا يعرف أنه لا طائل من زيارتك، لست مؤهلًا للمساومة فأنت لا تملك شيئًا تعطيني إياه مقابل ما تطلب، يمكنك أن تذهب ولا تعود لأن المرة القادمة لن أكون بمثل هذا الترحاب.. تفضل.

- كلانا يعلم أنني لن أذهب يا دكتور حسن، ماذا ستفعل؟ ستقتلني هنا؟

ابتسم بتعالٍ وتراجع بمقعده:

- أنت تشبهها يا دكتور!

بقيت ناظرًا إليه دون تعليق فأضاف:

- حين أتت يمنى إلى هنا علمت أنني أواجه حالة استثنائية، قررت الاحتفاظ بها ودراستها عوضًا عن تسليمها للشرطة، لو سلمتها

سينتهي الأمر بإعدامها، هذه مضيعة لحالة لا تتكرر كثيرًا؛ لذا أبقيتها، ومنعًا للتساؤلات ملأت ملفًّا كاملًا عن يمنى، فقط ما تحتاجه الجهات الرسمية من بيانات لكن بلا تفاصيل، أصبحت يمنى إحدى مرضى المصحة بكامل إرادتها الحرة. علمت الكثير عن تلك الحالة الفريدة، لديها عقل مرعب، وقدرة لا بأس بها على الإقناع، في البداية شككت في كونها مريضة حقًّا، لكن يبدو أن كلًّا منا مريض بطريقته الخاصة يا دكتور.. صحيح؟ الخدعة كانت تكمن في نوع التعبير عن المرض، ويمنى كانت تملك أسلوبًا استثنائيًا في التعبير عن مرضها.

كان يتحدث كما لو كان يلقي محاضرة والكاميرات مصوبة عليه، واصل حديثه بصوتٍ فحيحي:

- ظلت تلك الحالة شغفي لفترة، لكنها توقفت، توقفت عن الحكي، وتوقفت عن التعبير عما بداخلها، ربما بسبب الملل أو ربما لأن استعادة ذكريات الصدمة كان أكثر مما تحتمل، المهم أنها توقفت وأصبحت صامتة كالقبور.. وأنا أصبحت عاجزًا عن استكمال دراستي.

ثم عاد صوته إلى طبيعته الشريرة، قائلًا بغيظٍ واضح:

- حتى أتى صديقك، وبكل بلاهة انتقى ملفها من بين الملفات كلها، وكلفك بدراستها، اعترضت بالطبع وحاولت إثناءك بالطرق التقليدية وإبعادك عن الحالة، لكن يمنى - وخلافًا لتوقعاتي - عاودت الحديث، لا أدري ما قالته لك، وما لم تقله، لكن صمتها كُسر، هكذا توقفت عن محاولة إبعادك، وتقبّلت وجودك هنا، ربما بطريقة ما تساعدني على

استعادة مريضتي. هل تظن أن الحظ واتاك هكذا بكل بساطة؟ حين تسللت إلى داخل المصحة، وحين ذهبت إلى غرفتها بعد الاطلاع على الملف الخاص بها، القدر قد يسهل طريقك لكن ليس إلى هذه الدرجة، كنت أعلم ما تفعل وتركتك، الطريق كان ممهدًا أمامك لأنني رغبت في ذلك، ألم تفهم بعد يا أحمد؟ لكل قصة بطل، وشرير، وإله.. أنا محرك الأقدار في قصتكما البائسة تلك. تركتك تجالسها لأنني ظننت أن ذلك من شأنه إعادة ثقتها بي، لكن يمنى ظلت متمنعة، رفضت الحديث إليَّ، حاولت بأكثر الطرق هدوءًا، ثم - و لا أنكر - بأكثر الطرق تطرفًا، لكن صمتها بقي، هنا راودتني فكرة جديدة، إن كانت الصدمة هي ما أطلقت لسانها، ثم الصدمة هي ما أسكتته، إذًا فصدمة ثالثة من شأنها أن تحرر عقلها ولسانها من جديد. كانت الطريقة المثلى هي حرمانها من الشيء الوحيد المتبقي لها.. طبيبها العزيز.

أنهى د. حسن كلماته وقد اتسعت الابتسامة المارقة على وجهه، فعجزت عن إبداء أي شعور سوى الاشمئزاز:

- أنت مريض..

قلتها بتقزز فرد بهدوء:

- كما قلت سابقًا، كل منَّا مريض بطريقته الخاصة يا دكتور، هناك فقط مَنْ يُعبر عن هذا علانية، وهناك مَنْ يمارسه في الخفاء.

تسارعت أنفاسي رغمًا عني لأقول:

- وأنت أخبرتني بهذا بسهولة؟ ألا تخشى أن يُفتضح سرك؟

حرك رأسه نافيًا:

- لا أظنك ستغادر هذا المكان لتفضح سري يا دكتور.

تسمَّرت صامتًا فتابع:

- أنت سلَّمتني الورقة الوحيدة الرابحة، واعترفت بخطتك المزيفة مع رفيقك الأبله، ليس لديك شيء ضدي سوى كلمات يمكنني بسهولة نفيها، بالعكس، يمكنني قلب الطاولة والسعي لاحتجازك هنا جوار الفتاة، ستكون دراسة حالتيكما معًا مثيرة للاهتمام.

أُسقط في يدي وعجزت عن الرد، تذكرت «مريم» و«حمدي» فلم أجد ما يمكنني به الدفاع عن نفسي، ما زالت رائحة دمائها عالقة بيدي، وإن رغب هذا الطبيب في تدميري فسيفعل، لكنني لم أكن خائفًا، لم يكن لديَّ ما أخسره، لقد انتهت اللعبة، فقط بقيت خطوة واحدة قبل أن يسقط الملك.

بهدوء تام طلبت:

- أرغب في رؤيه يمنى.

حرك رأسه متسائلًا:

- لِمَ؟

- سأراها ثم افعل ما شئت، أطلق سراح كلينا، أو أبقِ كلينا، ساوم السلطات علينا أو افعل ما ترغب في فعله، أنا أريد رؤيتها للمرة الأخيرة فقط.

صمت الطبيب لوهلة، بدا الرفض على وجهه، لكنه ظلَّ يُحدق بي، لا علم لي بما كان يحسبه داخل عقله، لكن أيًا كان ما فكر فيه فقد جاء لصالحي؛ لأنه نهض بعد دقائق وأشار إليَّ باتباعه، مضينا في الطريق الذي أعرفه جيدًا، الطريق الذي لم أمضِ فيه سوى مرة واحدة لكنه حفر ذكراه داخلي، ربما كان «حسن» مجنونًا، لكنه كان محقًّا، «حمدي» أيضًا كان محقًّا، «يمنى» لم تكن مجرد حالة أتابعها، لم تكن مجرد جسد أجري عليه دراسة لنيل شهادة ستصبح فيما بعد مجرد ورقة أخرى في ملفي، «يمنى» كانت تعرف ما تفعله، قد تكون مريضتي لكنها الوحيدة التي امتلكت مفتاح عقلي.

ويا له من عقل!

* * *

توقفنا قرب الحجرة، واستدار «حسن» إليَّ مشيرًا بيده باستهتار:

- اذهب، حدثها، قبّلها، افعل ما شئت، خذ وقتك؛ لأنها ستكون المرة الأخيرة، لا تحاول الإقدام على أي حماقات، فكلاكما سيصبح نزيل هذا المكان الآن، وكلاكما تحت رحمتي.

التفتُّ إليه بوجهٍ جامدٍ لأقول:

- هل تسمح لي بقول شيء أخير؟

رمقني فتابعت:

- أنا أكرهك يا دكتور، قد يبدو التعبير طفوليًا لكنني أكرهك، لا أكاد أرى روحك من بين العفن الذي كفّنها، قد أصفك بالأنانية ويأتي

كلامي كتعبير طفولي آخر، لكن ما بك ليس أنانية، أن تسلب غيرك حياته من أجل الحفاظ على خصوصياتك القذرة ليس إيثارًا لنفسك بل أسوأ، أنت تملك أكثر الأرواح تعفنًا، أنت لست إله القصة، أنت حقير يا دكتور، ولا تستحق الحياة التي خُلقت لتحياها..

لم يغضب الرجل، بل ابتسم بسخرية:

- لو أن بوسع كُل منا الالتزام بمبادئ الحياة التي خُلق ليحياها ما كنا هبطنا من الجنة يا أحمد.

أنهى كلماته وتركني ومضى.

* * *

كانت نائمة حين دلفت إلى مهدها، تتوسد ذراعها بقبضة مغلقة كأنها خائفة أن تفلت روحها بعيدًا عن الجسد الملائكي المستلقي قرب حافة عالمنا، فوق جسدها انعكست ضفائر فضية نسجها القمر خارج النافذة المفتوحة، يحرس ويراقب تلك الحالمة فوق الفراش.

أغلقت الباب خلفي قاطعًا خيط الوصل بيني وبين عالم الأحياء بالخارج، كان معبدها الأبيض هو محطتي الأخيرة، رغبت في إلقاء كافة الأحمال التي أرهقت كتفيَّ خارجًا إلى واقع لن أعود إليه، رغبت في الشعور بالحرية دون نقمة التفكير، أردت البقاء وحدي هذه المرة دون الحاجة إلى التطلع نحو مستقبلٍ ما أو حساب خطوات، كانت هذه اللحظة لي أنا، لا لآخر.

من دون ماضٍ أو مستقبل.. انحنيت جوار فراشها محاذرًا ألا تزعجها أنفاسي المرهقة، ابتسمت ودمعت عيناي في أن أراقب القسمات الشفافة السابحة بعيدًا عن عالمنا، حدثتها روحي أن تصطحبني إلى حيث تجول في هذه اللحظة، أكانت الجنة أم الجحيم تلك التي تأسر روحها الآن، توسَّلت صامتًا أن تسمح لي بمرافقتها.

كنت وحيدًا من دونها، كنت وحيدًا طوال عمري، بكيت وحيدًا في فراشي حين علمت أن لا أحد ينظر أو يصدر أحكامًا عليَّ، ابتسمت وحيدًا حين اختلطت بأناس ظنوا أنني مثالي، أنني الرجل المنشود عقلًا وجسدًا، فكرت وحيدًا حين عجزت عن إيجاد مَنْ يفهم، عشت بالكرة الزجاجية أرى العالم كافة، أشعر بكل شيء فرضه عليَّ مَنْ هم حولي، دون أن أتمكن من ترك أيٍّ كان يقترب بما فيه الكفاية ليلمس روحي، ليدرك إن كنت أصرخ خلف البسمة السمحة، أو أتنفس داخل الجسد المعروض بالواجهة.

كنت دمية من دونها، تتحرك فوق مسرح راقبه المئات، ثم تموت داخل صندوقها إلى أن يُسمح لها بالأداء من جديد، حين التقيتها.. ظننت أنني أرى وجهًا آخر يحدق حتى ينسدل الستار، لم أكن أعلم أن الوجه في الجهة المقابلة من المسرح يماثلني، ما كنت أدري أنه سيبقى حين تفرغ القاعة.

ظلت «يُمنى» نائمة وبقيت أحادثها، أخبرتها عن نفسي، أخبرتها عن همومي، أريتها صورة لعائلتي، حكيت لها عن «مريم»، وعن «حمدي»، وعن أصدقاء عانقتهم إلى أن محاهم الزمن فأضحى كل يأبه لحياته

الخاصة ويعود «أحمد» إلى صندوق العرائس حتى يخرجه شأن جديد، تركتها فوق الفراش لا أعلم إن كانت نائمة أم تتظاهر بالنوم، لكنني كنت أعرف أنها تسمعني.

كنت أعرف أنها الوحيدة التي ستسمعني؛ لذا لم أتوقف عن الحديث، أطلقت لنفسي العنان، وقلت كل ما كتمته سابقًا، حرَّكت يديَّ، أشرت برأسي، وصفت لها أحلامي، خيالاتي، الأماكن التي ظل كياني يزورها حين يهرب من الواقع باحثًا عن متنفس يبقيه حيًّا.. حكيت، انفعلت، غضبت، بكيت، ضحكت.

ثم نال مني التعب فتوسدت رأسي جانب فراشها أتنفس عطرها النقي الذي لاح من بين خصلات شعرها المتناثرة كالنجوم السوداء، أغمضت عينيَّ لأصارحها بأنني قتلت، اقترفت ذنبًا لأنني أصبحت أضعف من أن أحتمل مقت العالم لي، اعتذرت لا إليها بل إلى نفسي.. ثم صمتُّ.

دون أن أراها شعرت بيدها تلمس جبهتي، ارتجفت حين اخترق المرمر البارد هالتي، استمعت إلى أنفاسها المنتظمة وقد ظلت عيناي مغلقتين، خفت أن أفتحهما فتفزع لرؤية روحي عبرهما، استكنت مكتفيًا بروحها المشعة جواري، وبالشذا الناعم الذي تنسمته حين كانت يدها تنساب مقتربة أكثر، سمعتني «يُمنى» منذ أن خطوت إلى الحجرة، لم تكن في عالم آخر، بل كانت حاضرة تنصت إلى حديثي، تاركة لي الحرية لأتكلم دون تردد، رأت ما أبرزته لها وتقبلته، لم تنبذني بل فهمت ما لم يره الآخرون، حين تحدثت أخيرًا أتى كلامها مكملًا لحديثي.

أخبرتني عن «أريج» التي انتحت عنها لأسابيع قبل أن تسلبها روحها بوسادتها القطنية التي طرزتها بنفسها يومًا ما، لم تبكِ يومها بل جالست جسد أختها الميت تمسد شعرها وتغني لها، شعرت أنها حملتها بعيدًا عن عالم الزيف، أنقذتها من المعاناة، لحقت عائلة «يُمنى» بـ«أريج» بعد فترة ليست طويلة، حرصت على إيصالهم إلى الضفة الأخرى دون معاناة، كانوا نائمين حين امتدت النيران تلتهم كل ما مثّل لها ذكرى يومًا ما، جل ما ربطها بالماضي، محته تاركة إياه يذهب إلى عالم أفضل، عالم من دون كراهية.

هامت بعيدًا عن بقايا منزلها تحلم بيقظتها، تراقب الأوجه التي تعلم أن أيًا منهم لن يبحث عنها، رأت الشفقة عوضًا عن الذعر داخل أولئك الذين راقبوا المنزل يحترق، رأت الملل الطافح على وجوه المبتسمين بالطرق أو الحدائق مع عائلاتهم، راقبت النظرات النهمة التي التهمها بها رجال الشارع بينما تمر ماحية أي تعبير كان عن وجهها.

انطلقت إلى الجامعة، رأت أصدقاءها القدماء، رأت حياتها التي كانت تحياها قبل أن تتحول إلى محض زائرة لعالمنا، لمحته من بعيد، كان الوحيد الباقي ممن اكترثت لشأنهم، آخر منبع للشذا، لم يرها لكنها ظلت هناك تراقب ابتسامته وانعقاد حاجبيه حين يتحدث، انفرجت أساريرها رغمًا عنها حين ضحك، انتفض قلبها حين غضب، وغلت غيرتها حين داعبته إحدى الفتيات.

قررت الاقتراب وتركه يراها، ربما تحدثه للمرة الأخيرة قبل أن يذهب، ربما يخفف عنها ألمها قبل أن تصطحبه إلى حيث رأت روحه الحقيقية مرات عدة لم يعلمها، لكنها حين خطت أولى خطواتها شلت إرادتها، نظرت إليه فلم ترَ الضوء الذي جذبها لقتل أحبابها، بل رأته بعين عقلها مفارقًا للحياة، رأت نفسها تسلبه الأقنعة، والادعاء، والكذب، والصديد الذي أغرق كِيانه، لكنها لم تكن سعيدة بل ارتعبت.

كانت تسلبه مرضه، لكنه لم يكن ليعلم أنها تنقذه، كان سيذهب حاملًا الكراهية والخوف منها لا الامتنان، صحيح أن شذاها الأسود الوفي سيخفف عنها، لكن مع غيابه سيغيب الشذا، سينتهي الشفق لتغرق في ظلام اليأس وحدها، كان الاختيار بين إنقاذه ومعاناة فقدانه، أو تركه حرًّا ومعاناة تذكره..

دمعت عيناها حين لوّحت له دون أن يراها، لكنها كانت تبتسم، ربما فقدت اليقين، ومعه فقدت الأمل والسلاح الوحيد الذي دعم صبرها على حياة كرهتها، كانت تناقض نفسها لكنها علمت أن رحيلها هو الخيار الصحيح، حمل «أدهم» القدرة على استحضار الشذا، لكنها عجزت عن مطالبته به، ربما لأنها أحبّته أكثر مما ينبغي.

تحررت «يُمنى» من فراشها لتهبط إلى حيث مجلسي، فتحت عينيَّ لأرى بسمتها وسط الخيط الشفاف الذي توج وجنتيها، ابتسمت بدوري ومددت أصابعي أمحو الندى المالح فأطبقت أصابعها حولها، شعرت بنبضات قلبها رغم المسافة بيننا، تذوقت عذوبة صوتها حين تابعت سرد هربها، التحاقها بالمصحة كي تنأى بنفسها عن أي احتمال لتقديم الحب أو الحصول عليه، علمت أن أملها الوحيد كي توقف سيل الدماء من بين

يديهـا هو إحاطة نفسـها بالكراهية؛ لذا حكت قصتهـا للدكتور «قدري»، حكت كل شيء وعلمت أنه سيدون حالتها تحت بند الجنون.

لـم تكـن تنتظر أن يفهـم، فقدت الرغبة فـي المطالبة بالفهـم منذ أمد طويـل، أرادت فقـط خلـق شـرنقة حولهـا تعزلها عن إيـذاء العالـم لها، وتحميه من إيذائها له، تركها د. قدري في المصحة تنعم بالسـكينة وسـط العقول السـابحة في ملكوتها الخاص، كان الهواء أنقى هنا، العقول التي انفلت زمامها لم تعد ترتدي أقنعة، هنا وجدت راحتها وأنشأت منزلها.

كتمت قصتها إذ رغبت فقط في أن تُترك وشـأنها، عاشـت فترة راحة لـم تعهدها قبلًا، وتركت التفكير يسـقط إلى فوهة التناسـي بعقلها، ظل حالها يسـير إلى أن اسـتدعاها د. قـدري أحد الأيام إلـى مكتبه، تعجبت لكنهـا لم تملك خيار الرفض، ذهبت إلى طبيبها الذي وفَّر لها المسـكن، الوالـد الذي أشـعرها بالأمان، لكن عالمهـا انهار ما بيـن ليلة وضحاها، ظنـت أن الرجل تركها لحالها طوال تلـك الأيام، لم تكن تعلم أن قصتها ظلت تدور بعقله، لم تكن تعلم أنها سـتجد نفسـها ليلتها حبيسة المكتب المغلق مع مَنْ هربت تاركة العالم خلفها كي تحميه.

حدثتنـي «يُمنى» عن الاسـتدعاء الـذي تلقاه «أدهم» إلـى المصحة، أغمضـت عينيها غارقة في ذكرى حملت وجهه القلق ومواسـاته لها عما أصـاب عائلتها، رأت الرجـل القديم الذي أحبته يومهـا، كان «أدهم» قد عاد حين رآها فقدت كل شـيء، أمسـك بيديها ليخبرها أن كل شيء على ما يرام، وأنه لن يتركها تعاني، أخبرها أنه هُنا من أجلها.

كانت تعلم أن كلماته خاوية، وأن قلبها لا يقفز متسـارعًا لأنه صدقه، بـل لأنه خائـف من التصديـق، بكت فمحـا دموعهـا دون أن تقوى على إبعـاده، أرادت الصـراخ بوجهـه أن ابتعـد، كانـت موزعة بيـن الرغبة في إنقاذه والاشـتياق إليه، مزقها د. قدري، قضى على الشـيء الوحيد الباقي لها من نفسها.

لـم يغادر «أدهـم» المصحة في تلك الليلة، وحين أصابتها الهسـتيريا بعد أن سـلبته حياتـه خدروها فقط وألقوا بها في حجرتها، ظلت حبيسـة أقوى شـذا استحضرته، لكنه أحرقها حتى تمنت الموت، لم يقم الطبيب بتسـليمها، رغب في استغلال سـلاحها لصالحه بعد أن تأكد من وجوده، لـم يكن يعلم أنه أفقدها إياه إلـى الأبد، وحين تأكد من عجزها عن منحه ما يرغب فيه حاول إيذاءها، لكنه لم يعد قادرًا على تسليمها أو إلقائها في الشـارع؛ لأنه تورط بجثة لا تدري كيـف أو أين أخفاها، جعلها د. قدري سجينة اليأس، فجعلته سجين الخوف.

- ثم أتيت أنت.

قالتها «يُمنى» بعذوبة ويدها ترتجف بين يديَّ.

- راقبتـك حيـن جلسـت إليَّ، حيـن توترت قسـماتك، وحيـن حاولت بسذاجة اسـتجوابي، كانت تلك هي المرة الأولى التي تعاود الضحكة زيـارة قلبي، أخبرتك واختبرتك، وجدتك تسـتمع إليَّ، لم تكن تصدر أحكامًا بل تتلقى ما يطلقه عقلي فقـط. انتابني الخوف لكنني حدثتك أكثر، عجزت عن منع نفسي دون أن أدري السبب، كنت أستشعر قلقك،

وسعادتك، وخوفك، حين تجلس أمامي حتى وإن كنت صامتًا، لم أرَ طبيبًا بل رأيت روحًا غريبة عن مفهومي، ثم حدث واقتحمت حجرتي تلك الليلة، حين صرخت بي شعرت أنني كنت أمسك بالهواء، وأن روحك لم تكن غريبة، بل أنا فقط مَنْ لم يستشف شبهها بالآخرين لأنني أمضيت وقتًا طويلًا وحيدة، دمرت أنت تلك الفكرة حين جلست تستمع، وحين عدت بعد أن ودعتك، كنت تسلبني الكراهية التي أحطت نفسي بها شيئًا فشيئًا، لكنني ظننت أنني أمتلك القوة الكافية للسيطرة على تلك المشاعر التي ما لبثت أن نمت أكثر داخلي عندما أدركت مدى الشبه بيننا. أنت لم تستمع إليَّ فقط يا أحمد، بل حاربت من أجلي، كدت تموت من أجل منحي - فقط - الفرصة للحديث، تفهمت ما أخبرتك به وما أبقيته داخلي بعيدًا عن متناولك، شيئًا فشيئًا بدأت بنزع الطبقات التي رسمتها كي تعزلني عن العالم، فزعت لكنني رغبت في الشعور بدفء الروح الوحيدة التي لم تنبذني، الكِيان الوحيد الذي تمسك بي، ليس من أجل شفقة أو استغلال، بل من أجلي فقط.

توقفت «يُمنى» عن الحديث فتابعت من حيث انتهت:

- أدركتِ أنني انعكاس لألمكِ.

أومأت فتابعت:

- كان الفارق الوحيد بيننا منذ البداية أنكِ خلف قضبان العزلة بينما أنا حر.

- وأنني هربت ممن أحببت كي لا أؤذيهم، وأنت هربت إلى مَنْ أحببت كي لا تؤذي مَنْ تكره.

ابتسمت لقولها، ثم أرحت رأسي خلفًا لأسأل:

- أي منا تظنينه على صواب؟

- كلانا خطأ، المهرب الذي اخترناه أرانا الحقيقة التي لم يرها غيرنا لكنه كان خطأ، لو لم نكن نعلم ما رأيناه بالبشر لصبرنا مع الصابرين وحيينا.

تنفست بعمق شاعرًا بالدوار لكنني تابعت:

- قولك يعني أن الحياة خلف قناع واتباع الطريق الذي رسمته أقدام الآخرين هو الصواب، المزايدة على واقع رُسم في عقولنا ونبذ الاختلاف من أجل الشعور بالانتماء للروتين العقلي البشري ليس صوابًا يا يمنى.

ندت عنها ضحكة متألمة لتهمس:

- لو كنت جاهلًا بما يوجد خلف القناع لما تألمت لرؤيته.

- لكننا امتلكنا السلاح لتغييرهم، بوسعنا حملهم على التغير يا يُمنى، نمتلك القدرة على تخليص العالم من الشر، أو على الأقل فتح الطريق لتخليصه من الشر.

- لا يا أحمد..

نظرت لها مشدوهًا فرسمت ابتسامة هادئة وهي تمسح بباطن يدها على وجهي:

- الشر خُلق مع الخير قبل أن يوجد أي منًا وسيظل بعد أن نفنى، البشر يمتلكون الضوء والظلام داخل أرواحهم، هم يعلمون طريق الخير لكن التحليق إلى الحق صعب، السقوط إلى الباطل أسهل، لِمَ تحاول تبين طريق الصواب إن كان تبرير الخطأ أسهل؟ النفوس ليست سوية؛ لذا قلائل هم مَنْ يمتلكون الإرادة الكافية للتحليق، وإن أدمت أجنحتهم. نحن لا نملك تغيير الكون، أنا وأنت امتلكنا السلاح ذاته يا أحمد، لكن كل منا استخدمه بطريقة مختلفة، كل منا رأى الأمل بجهة ضد الآخر. الشذا ذو حدين وليس حدًّا واحدًا، القارب يمكنه حمل الأحبة بعيدًا عن العالم الملوث، ويمكنه أيضًا حمل الأعداء كي يغدو العالم نقيًّا، ليس بوسعنا إنقاذ العالم لأننا ببساطة لم نعد نفهمه.. لا يمكنك توحيد أرواح البشر إن كان عالمهم ذاته ذو وجهين.

سحبت مني يدها، وتنهدت متعبة، بقيت أرمقها غير شاعر بالألم لمفاهيمها التي تغيرت عما توقعته، بل شعرت بالحزن كوني وجدت نقطة الاختلاف الثالثة بيننا، سألت:

- لِمَ تمتلكين الأمل بينما لم أعد أشعر أنا سوى باليأس؟

ببساطة أجابت:

- لأنني أصبحت أكثر ضعفًا من أن أحارب، أنا متعبة يا أحمد، طالما أنت على قيد الحياة ستشعر باليأس كون واقعك بعيدًا عن توقعك،

لكن حين تقترب النهاية، ستحاول إيجاد بصيص أمل كي تنسلَّ خارج الحياة مبتسمًا لا شاعرًا بالعذاب.

- النهاية؟

ضحكت بصفاء وهي تأخذ بيدي كي أقف:

- أنا أحتضر منذ وقت طويل يا أحمد، متُّ كثيرًا حتى أصبح بعثي مجرد فترة احتضار في انتظار الموت القادم، راجية أن يكون نهائيًّا.

ارتجَّ جسدي حين حَوَت يدي بين يديها واضعة إياها فوق قلبها:

- لا تقلق، لست خائفة، لم أكن حية هُنا كي أخشى الرحيل، أعلم أن الجانب الآخر أفضل، وسأحصل على إجابتي هُناك، أنا طامعة في شعور لم أحصل عليه بين الأحياء.

- يُمنى...

نطقت باسمها غير عالم ماذا عليَّ أن أقول.. هوى قلبي نحو الأسفل ليُسحق تحت ركام من الذعر، شعرت به هي، فقالت بالبساطةِ ذاتها:

- أنت تحتضر بدورك يا أحمد، لكنك خائف، أنت ترغب في الذهاب، لكنك في الوقت ذاته ترغب في البقاء قليلًا، أنت ترغب في استكشاف العالم الذي لم تسنح لك الفرصة بمعرفة خباياه، لكنك على عكسي ما زلت تمتلك الخيار، يمكنك الشفاء والبدء من جديد.

- يُمنى...

- بوسعك البقاء، وبوسعي علاجك..

قالتها وهي تقترب مني أكثر، فانفلت السؤال من على لساني قبل أن يحكمه عقلي:

- كيف؟

بدت على وجهها راحة غريبة، وأضاء محياها حين قالت:

- أصبحت تبحث عن السلاح الذي بوسعه تخليصك مما تكره في سبيل ما تحب، يمكنني سلبك السلاح الذي يؤرقك، سأمحو الشذا الذي منحتك إياه.

- كيف؟

- إلى أي مدى تحبني يا أحمد؟

فاجأني سؤالها، لكنني دون تردد اندفعت أسكب ما حوته بوتقة مشاعري التي ظلت تغلي حتى نضحت بما داخلها، أخبرتها بمدى حبي لها، بملازمتها لتفكيري، بعطرها الذي أدمنته أكثر من الهواء، انفجر إحساسي دفعة واحدة، لكنني صمتُّ بغتة، وقد دق ناقوس الفزع بعقلي.

ظلت «يُمنى» تراقبني بابتسامة تتسع، وأنفاس تتلاحق بينما بردت يداها حول يديَّ أكثر، كانت تعلم إلى أي مدى تعلقت بها، كانت تعرف جل ما قلت قبل أن أنطق بحرف واحد، لكنها استنطقتني لا لأنها رغبت في سماعه، بل لأنها رغبت في أن يأتي اليقين مني أنا، لا منها.. بالضبط كما كانت تفعل حين تسألني في نهاية كل جلسة.

- لا..

صرخت فيها وتراجعت إلى الخلف ساحبًا يدي من بين يديها، بدا عليها الألم فصحت برعب:

- أنا أحبك يا يُمنى، ما هذا الذي تفكرين فيه؟

عادت إلى هدوئها، واقتربت مني من جديد:

- أحمد.. الطريقة الوحيدة لإخراجك من دائرة الشذا هي تحويله إلى ندم، ستقتل من جديد كي تُرضي فكرتك بالمحافظة على ما تحب، إن سلبك سلاحك ما تحب لن تفكر به من جديد، ستشعر بالألم لكنك ستشفى يا أحمد.

- يُمنى توقفي عن الحديث هكذا.

- أحمد اسمعني!

- لا..!

صرخت من جديد وأنا أندفع إليها قابضًا على كتفيها:

- يمكننا الهرب، يمكننا الخروج من هنا والهرب، سنحيا من جديد، لن تموتي يا يُمنى ولن أموت بل سنبقى معًا، يمكننا أن نحيا معًا وسيصبح العالم أقل سوءًا بوجودنا، لن أتركك، سأبقى بجوارك وسأحبك حتى أموت، لن يكون هناك ما يبرر اختباءك، سنحيا..

- أحمد..

تطلعت إليَّ، وقد تشبثت بملابسي دامعة، ارتعش صوتها حاملًا نبرة التوسل:

– أحمد دعني أذهب، دعني أرحل إليهم، لم يعد بوسعي البقاء والانتظار بين احتمالات بالسلب أو الإيجاب، أرجوك يا أحمد أطلق سراحي، أنا أموت ببطء منذ سنوات، أنقذني وحررني، دعني ألحق بهم يا أحمد، اشتقت إليهم، أريد رؤية عائلتي، اشتقت إلى أريج، لم أعد أشم رائحة أمي أو أرى ضحكة أبي، أريد الشعور بهم، بصخبهم وإزعاجهم لي، أريد الاستماع إلى صوت أدهم، اشتقت إليه كثيرًا، أرجوك، حررني ودعني أتخلص من الذكرى والألم، أتوسل إليك يا أحمد.

تحشرج صوتها فأصبحت غير قادرة على مواصلة الحديث، اكتفت بدفن وجهها في صدري واهتز جسدها بنشيج أدماني، عجزت عن منع دموعي من أن تسيل بدورها، أحطتها بذراعي وخبأت وجهي بين خصلات شعرها ذات العطر السماوي الأخاذ.

سمعت نحيبها المكتوم فضممتها إليَّ أكثر، شطر الألم رأسي إلى نصفين، لكن روحي ظلت خاوية، عجزت عن الشعور بما شعرت به، الندم والاشتياق، الحب لمن فقدت ومن رحلوا بسببي، كنت مجوفًا، لم أكن مُنقذًا أو أشعرتني ذكرى قتلي بلذة النصر التي أحسستها سابقًا، لم أكن في تلك اللحظة أكثر من قاتل.

مسدت شعر «يُمنى» الباكية بيدي وحركت الأخرى إلى حيث خبأت النصل ذي المقبض البني الصغير، لم يكن مقدرًا لـ «يمنى» بل لي.. لم أكن قد خططت لإنهاء القصة بدمائها لكن بدمائي، لم تكن تلك خطتي.

اختلج النصل بيدي، وذرفت عيناي دموعًا أغرقت الجسد المستسلم بين يدي، رفعت وجهها المبتل، وطبعت قبلة فوق جبهتها بشفاهٍ ترتجف وأنا أسحب شعرها عن مؤخرة رقبتها لأدعه ينسدل فوق كتفها، استنشقت روحها للمرة الأخيرة حتى امتلأت رئتاي قبل أن أهوي بالنصل.. لا مُحررًا إياها، بل فاقدًا لها إلى الأبد..

* * *

لم يعد للنهار دفء، أصبح مجرد ضوء أنار الممر أسفل قدمي، لم يعد لدموعي التي جفت فوق شفتي طعم يذكر، سلبتها الدماء على يدي قدرتها على استثارة أي شعور داخلي، اتخذت طريقي عبر السلم إلى مؤخرة المبنى، هبطت الدرجات إلى مثواي الأخير، غير عابئ إن صادفت حارسًا، أو طبيبًا، أو حتى عزرائيل ذاته.. انتهى كل شيء، أصبحت غير قادر على استحضار سوى السواد من داخل ذاك الجسد الذي كان في يوم ما أنا.

ذهبت «يُمنى»، ذهبت «مريم»، ذهبتا إلى حيث لا رجعة، ذهب «حمدي» وذهب أهلي، ذهبوا إلى عالم لم يعد من حقي المطالبة بالتواجد فيه، الشذا ذهب أيضًا، تبخر حاملًا معه آخر نفس أطلقته حنجرتي الصارخة حين انسلت حياة «يُمنى» مبتعدة تاركة إياي وحدي هنا، كانت محققة، لم أعد أرغب في القتل، أصبحت متعبًا من المقاومة، انتهى الشذا وذهب السلاح من غير رجعة، لم يكن الندم مؤلمًا كما قالت منقذتي، بل قاتلًا.

أزحت الباب لتقابلني رائحة العطن والتراب القادمة من القبو المهجور الذي رأيته لأول مرة حين تسللت إلى هنا، يا ألله! كم بدا ذلك بعيدًا كمشهد من حياة شخص آخر! أحكمت إغلاق المدخل وتحركت إلى حيث الهياكل الفارغة التي كانت يومًا ما غرفًا حوت حياة، وألمًا، وأملًا، ويأسًا، قبل أن تُهجر ليتحول كل ما كان يميزها إلى ذكرى.. محض ذكرى تمامًا مثلي.

اخترت إحدى الغرف القديمة وانزويت داخلها قرب جدار غطاه السواد، أسندت رأسي إلى الحائط بألم ألتقط ما تبقى لي من أنفاس تاركًا تسمم الدم يعمل مفعوله، تمنيت ألا يطول احتضاري، تمنيت أن يسامحني «حمدي» حين يقرأ الاعتراف في رسالتي، أو على الأقل يتذكرني بالخير، رغبت في وداعه والاعتذار لكن أصبح هذا حلمًا بعيدًا الآن، أخيرًا تمنيت أن أرى «يُمنى» حين أخطو إلى الجانب الآخر، تمنيت أن ألمس يدها وأرى ابتسامتها من جديد، تمنيت أن يغرقني شذاها، كانت هذه أمنياتي، كان هذا أملي الذي يُرى قُرب النهاية كما قالت هي..

تذكرت صورتها في الملف، ثم تذكرت القصة الصغيرة التي خطتها هي، عن المرأة في الصحراء و الحملان الثلاثة، لم أفهم يومها معناها لكنني فهمت الآن، «يمنى» تمسكت بأمل في حياة أفضل، بيأس من مستقبل مظلم، ثم بفراغ أسود غلّفها حين فقدت يأسها وأملها ولم يبقَ سوى اللا شيء.

ابتسمت بوهن، يا لنا من روحين! كلانا خائف من الذهاب، لكنْ كلانا عاجز عن البقاء، صارعنا لنبقى لكن في النهايه بعض الأرواح خُلقت فقط لترحل.

همست باسمها وأنا أريح ذراعي التي ثقلت جوار جسدي، أغمضت عينيَّ للمرة الأخيرة، وطفقت أنتظر..

* * *

الرسالة التي عُثر عليها بين أوراق تُركَت لـ «حمدي» بتاريخ 29 يوليو 2013

كان يا ما كان..

كان هناك عالِم، جل ما امتلكه من الحياة كان غرفة صغيرة ذات باب واحد وعدة نوافذ، في الغرفة كان يرعى ثلاثة أطباق معملية، حوى كل منها فيروسًا صغيرًا جمع خيوطه ورعاها بشق الأنفس، أمضى حياته بمراقبة محتويات تلك الأطباق تنمو وتتفرع صانعة عالمًا كاملًا صغيرًا خاصًا بها، رعاها كأطفاله، حدثها وغذاها وحماها من الغرباء.

لم يكن العالِم أغنى الأغنياء، أو أوفر الناس حُسنًا، لكنه كان راضيًا بحياته، وقعت غرفته وسط مدينة عامرة بالحركة، الغادي والرائح كان يمر بالقرب من مأواه.

منهم مَنْ يدس وجهه عبر النوافذ ليراقب بفضول، ومنهم مَنْ كان يمضي غير عابئ، أزعجه هذا لكنه لم يبُحْ بما يعتمل في نفسه، تركهم وشأنهم آملًا في أن يتركوه لحاله، اعتاد الرجل الخروج من غرفته كل صباح متجهًا نحو أقصى الشمال من المدينة، نحو مبنى أكثر ارتفاعًا من البقية.. يرتقيه لينفرد بذاته بعيدًا عن تلصص المتلصصين، من بعيد كان يرى الحد الخارجي لصحراء مترامية تجردت من رفاهية الحياة، فما عاد الناس يخطونها.

ودَّ لو يرحل إلى قلب الصحراء، إلى حيث ينعزل عن أولئك المتحكمين في حياته بأعينهم قبل كلامهم، تخيل لو أنه غادر المدينة إلى هناك باحثًا عن حياة أخرى، حياة عاشها كثيرًا بمخيلته، كان بها يستنفد الوقت بالأمل والتأمل، يرى أحداثًا، وطبيعة، ووحدة تمناها..

ثم كان التعب يهده فيعود إلى منزله لينام راضيًا عن الحياة والكون.

على هذا المنوال مضت أيامه، هائمًا بواقع خلقه، راضيًا بواقع لم يخلقه لكنه وُجِد فيه، إلى أن أتى الوقت واكتمل نمو أول فيروساته داخل الطبق الزجاجي.

طار صوابه فرحًا حين رأى المستعمرات ناصعة البياض، وكأن الشمس تشرق من بين راحتيه حين يحملها، أطلق عليها اسم «الأمل»، وضعها بحرص داخل حضانتها كي يحافظ عليها إلى أن يحين الوقت المناسب لإطلاقها، لكن الغرباء عرفوا بوجود «الأمل»، وحين غاب عن المنزل سرقوه.

صاح الرجل، جن جنونه وانطلق إلى داخل المدينة صارخًا باسم صغيره الضائع، بحث حتى تقرَّحت ساقاه، ونادى حتى بحَّ صوته، لكن «الأمل» لم يعد..

بعد يومين نضج ثاني أطباقه، فاح من الطبق عبير حلو يخطف الأنفاس، لكن الرجل خشي عليه أن يلحق بأخيه فأطلق عليه اسمًا مقبضًا، كان الاسم هو «اليأس».

اختفى «اليأس» حين ترك الرجل منزله، سلبه إياه الفضوليون فطار صواب العالِم..

ضرب الجدران حتى دميت يداه، سأل عن السبب، لِمَ يسرق الناس «اليأس»؟! لِمَ لَم يتركوه له رغم أن أحدًا لن يستفيد منه سواه؟! لم يأته جواب.. لحق «اليأس» بـ «الأمل»، ولم يعد لدى الرجل سوى طبق حيوي أخير.

حمله الرجل أينما ذهب، حضنه ورعاه كما لو كان من لحمه ودمه، لكن خشيته الدائمة عليه ظلت تؤرقه، وبوادر النضج التي حملها الطبق الأخير لم تعد تثير فخر العالِم، بل ذعره.

وفي أحد الأيام قرر الرجل فتح الطبق وإطلاق الفيروس الثالث الذي لم ينضج بعد، كان يعلم أن هذا يعني وأده قبل أن يرى نور الحياة، لكن خشيته عليه سلبت قدرته على الانتظار..

وبالفعل أطلق الرجل الفيروس الثالث، لكن الفيروس لم يمت، بل تحوَّل إلى سوادٍ حالكٍ انطلق من الطبق الصغير ليبتلع موجودات الحجرة وينساب خارج النوافذ ملتهمًا العالم بالخارج..

صرخ الناس ذعرًا، ثم صرخوا ألمًا حين بدأ الفيروس يحرقهم أحياءً، لم يعد الوحش الأسود الطليق يفرق بين مذنب وبريء، انتقم غير عابئ بصوابه أو خطئه.

داخـل الحجـرة ارتمى العالـم أرضًا يتلوى أسـفل قـوة الطفل الذي حـاول وأده بيديه، حرقه الفيروس، سـلخ روحـه وتركه يصرخ حتى رقد جثة هامدة غارقة في الدم.

لـم يدمر العالـم الفيروس بل جعله أشـرس، حرق الطفل الثالث أباه، وعالمـه، وعالـم الغربـاء الذين قتلـوا أخويه، حين سـاد الصمـت أخيرًا وتوقـف أنيـن المحتضريـن، لاح فـي الهواء بريـقٌ خافت، أقـوى من أن ينطفئ، لكنه أضعف من أن يسطع كالنجوم.

بريـق أبيض أبـى أن يموت، أسـرع الفيـروس القاتم إلـى أخيه الذي وجـده أخيـرًا، صحيـح أن الأخ الأكبـر لم يعـد ظاهرًا بين الظـلام، لكن «الأمل» ظل موجودًا تحت جناح أخيه الأصغر..

من بعيد داعب الوجود شذا أقوى من أن ينمحي، لكنه أضعف من أن يفوح كباقي العطور.

نسيم خافـت أبى أن يكمم، أسـرع الفيـروس المظلم مـن جديد إلى أخيه الثاني فرحًا، مد إليه يد العون فعَطّره «اليأس» مستجيبًا.

هكـذا مضـى الأخ الثالـث إلـى الكون الواسـع بيـن أخويـن أحاطاه واحتضنهما.

ولأنه – رغم بريقه وشذاه – ظل مظلمًا، ومؤلمًا، ومنتقمًا..

سُمّي الأخ الثالث بـ«الأسود».

– تمـت –